سلسلة الأئمة المصورة (3)

الإبداع الفكري



الإمام مالك

السيرة المصورة

مبرة بدور الخيرية
إشراقة في ليل الحاجة

السيرة المصورة لإمام دار الهجرة..
رمز العلم والعزة والرقي

د. طارق السويدان

الدروس والعبر من السيرة الكاملة لحياة الإمام ومسيرته العلمية








هذا الكتاب

- يعرّفك بشخصية فذة فريدة كان لها أثرها في التاريخ والفقه الإسلامي وهو الإمام (مالك) ويبين لك بالتفصيل كل جانب من جوانب حياته الشخصية والعامة.
- المؤلف لم يتبع الطريقة التقليدية في سرد الترجمة والتعريف إنما حلل الأحداث واستخرج العبر من كل حادثة ليخرج القارئ بفائدة علمية وإيمانية من قراءة الكتاب.
- الكتاب مدعم بالكثير من الرسومات المحترفة والمبدعة لتلك الحقبة الزمنية وأشهر شخصياتها وهي مستوحاة من الأوصاف الدقيقة التي نقلها المؤرخون.
- كما وضعت عبارات ملخصة لكل فقرة تعين القارئ على سرعة الحصول على المعلومات وتثبيتها، وإن كانت لاتغني عن قراءة الكتاب كاملاً.
- لم يكن المقصود من تعريفنا بسيرة الإمام مالك مجرد السرد التاريخي لكننا أردنا أن نستنهض الهمم ونحيي العلاقة بيننا وبين تراثنا الإسلامي وشخصياته العظيمة مع تفهمنا لتغير الأدوات والوسائل بتغير العصور والأزمان.


ردمك 9 789990 661989


الإمام مالك
رحمه الله تعالى
السيرة المصورة لإمام دار الهجرة...
رمز العلم والعزة والرقي

تأليف	د. طارق محمد السويدان
مدير المشروع	أحمد علي شربجي
إعداد وتنفيذ	منى دقاق
رسومات	د. ياسر نصر
تصميم وإخراج	عبد العزيز عصمت العتريس

الطبعة الأولى
محرم 1430 هـ
يناير 2009 م

الطبعة الثانية
صفر 1434 هـ
يناير 2013 م

الناشر



رقم الإيداع	2008 / 307
الرقم المعياري الدولي « ردمك »	978 - 99906 - 619 - 8 - 9

شركة الإبداع الفكري للنشر والتوزيع - الكويت

هاتف: 22404854 - 22404883 - فاكس: 22404852
ص.ب 28589 الصفاة 13146 الكويت

للشراء الالكتروني: www.ebdaastore.com - e-mail: info@ebdaastore.com



إهــداء

فهرس الكتاب:

الباب الرابع: علم الإمام

الباب الخامس: المذهب المالكي

المقدمة



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد قائد الغرِّ الميامين، خاتم الأنبياء والمرسلين، صادق الوعد الأمين، وعلى آله، وأصحابه، وأزواجه، وذريته، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين..

وبعد:

إن تاريخ أمتنا الإسلامية حافل بالعلماء الذين وهبوا أنفسهم لهذا الدين؛ تعلُماً، وتعليماً، وجهاداً، وصدعاً بالحق، وكانوا أئمة هدى، قادوا الأمة، وسطّروا صفحات مضيئة عبر تاريخنا الإسلامي، فصاروا قدوات على مدى الزمان، كما كانوا مثلاً من الأمثلة العليا للإنسان المسلم؛ علماً، وفضلاً، وسلوكاً، وقدوة لمن يريد أن يلتزم سبيل الرشد في دينه، ويرجو الاستقامة في دنياه..

ونحن عندما ندرس سيرة هؤلاء الأئمة الأعلام؛ فإن دراستنا للواحد منهم، مهما وصل من فضل ومكانة؛ إلا أنها لا تغني عن دراسة الآخرين، فلكل واحد منهم منهجه في العلم، ولكل واحد منهم سبيله في الحياة، وقد أحاطت بكلٍّ منهم ظروف خاصة، فتعامل معها بما يتناسب مع هذا الدين العظيم، وما يتناسب مع شخصيته الكريمة، ومن ثمّ تشكلت لنا أنواع من هذه الشخصيات، كلٌّ منها يمثل نموذجاً فريداً في التاريخ..

وسنتحدث في هذه الصفحات عن إمام عظيم، من أئمة الفضل والعلم.. هو الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، إمامٌ عظيم من ذوي الشأن على مدار التاريخ، خلّد التاريخ ذكره.. وخلّد مذهبه، وصار مذهبه أساساً في الفقه في بلاد كثيرة، من بلاد المسلمين، في زمانه، وفي هذا الزمان، منها ما هو قائم إلى اليوم، ككثير من دول الخليج العربي، ومنها ما زالت عنه الصفة الإسلامية، لكنها لمّا كانت، كانت على المذهب المالكي، كالأندلس وصقلية، التي كانت من ديار المسلمين، وكانت على هذا المذهب العظيم، ثم زال عنها ملك المسلمين، وسيعود إن شاء الله تعالى..

ولقد خلّد التاريخ ذكر الإمام مالك، كأحد الأئمة الأعلام؛ بل أحد الأئمة الأربعة، الذين تبعتهم هذه الأمة، هذه المذاهب الأربعة التي التزم بها عدد كبير، بل الملايين من الأمة الإسلامية؛ لما رأوا فيها من اجتهاد فريد، ومن خدمة عظيمة لدين الله تعالى، وبالذات الشريعة والفقه، فصارت منهجاً للعلماء، ومنهجاً للعامة..



ونحن عندما نتحدث عن قضية المذاهب، نريد أن نوضح فيها شأناً؛ فنحن نعلم أن الحق دوماً أحق أن يُتبع، والالتزام بمذهب واحد لا بأس به.. ولا شيء فيه.. ولكن بشرط أن يكون الإنسان متزناً.. فإذا جاء دليل صحيح يخالف هذا المذهب.. يتبعه دون تعنت.. وهذا ما فعله هؤلاء الأئمة الأعلام.. فكلُ إنسان يؤخَذ من كلامه ويُرَدّ، إلا المعصوم..

فإذن هي دعوةٌ متزنة، بين الاقتداء بهؤلاء الأئمة الأعلام، والسير على نهجهم، والاستفادة العظيمة من فقههم، وبين عدم التعصب لهم، وعدم ترك الكتاب والسنة من أجل قول أيّ إنسان..

هذا التوازن هو الذي نطرحه.. بالإضافة إلى أني حرصت على أن لا أطرح القضايا الفقهية، فللفقه رجاله وكتبه.. وإنما أكتفي بإعطاء القارئ الكريم صورة يكاد يراها أمامه عن شخصية هذا الإمام؛ في وصفه، وأخلاقه، وتعامله.. وفي حركته في الحياة، وسيرته، وعطائه، ومواقفه..

وهذا من أجل هدفٍ عندي من العظمة بمكان، وهو أن نبرز القدوات الإسلامية العظيمة، ونرفعها أمام شباب وشابات اليوم؛ ليكونوا لهم المَثَل الأعلى، والقدوة الكبرى، وننتزع من هذه الأمة، ومن نفوس هؤلاء الشباب القدوات الخطأ، من المغنين والممثلين، ومن لا قيمة لهم في الحياة.. من خلال شرح شخصية وتاريخ الأئمة الأعلام..

أما منهجي في الكتاب، فقد قسمته إلى خمسة أبواب.. وكل باب إلى عدة فصول.. وبدأت الكتاب بلمحة تاريخية موجزة عن عصر الإمام مالك، من النواحي السياسية، والاجتماعية، والفكرية، والدينية..

وفي الباب الأول تحدثت عن مولد الإمام مالك، وأسرته، ودورها الكبير في اتجاهه العلمي، وسيره في طريق العلم، وتلقيه على يد كبار الأساتذة والفقهاء في عصره..

وتناولت في الباب الثاني ما تميز به هذا الإمام من الصفات الشخصية، والمواهب، والملكات، التي أهّلته ليكون إماماً فيما بعد.. ثم سيره في طريق الفقه، وتلقي الحديث.. ومنهجه الخاص في ذلك.. ثم تصدره للفتوى والإمامة..

وذكرت في الباب الثالث علاقته مع الدولة والحكّام، وطريقته في التعامل معهم..

وفي الباب الرابع عرّجت على علم الإمام، وآرائه في العقيدة والسياسة..وعلى التلاميذ والنجوم الذين تخرّجوا على يديه..

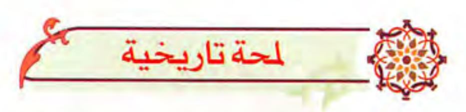
ووقفت في الباب الخامس مع المذهب المالكي.. فتحدثت عن أعظم كتب هذا المذهب.. والأصول التي بني عليها..

وأخيراً رحيل هذا الإمام العظيم.. وشهادات العلماء فيه..

وأسأل الله عز وجل أن يكون عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم.. وأن يكتب به النفع للمسلمين..

والحمد لله رب العالمين..

د. طارق محمد السويدان



لمحة تاريخية

ولنبدأ باعطاء لمحة تاريخية موجزة عن عصر الإمام مالك رحمه الله عز وجل:



1 الناحية السياسية

وُلد الإمام مالك -رحمه الله تعالى- في عهد الوليد بن عبد الملك، (الذي استقرّ في عهده الحكم الأموي، بعد النزاع الطويل مع خصومهم)، وقد فُتحت في عهده الأمصار النائية، فوصل الإسلامُ شرقاً إلى حدود الصين، بل دخل إلى أهلها، ووصل غرباً إلى جنوب أوربا، وغزت كتائبه وسطها، ثم جاء عمر بن عبد العزيز؛ عادلُ بني مروان، والخليفة الراشد الخامس، -رحمه الله تعالى- وقد رأى مالك نعمة الاستقرار وثمرته..

الفتن والتمزق

وصل إلى علم مالك، تاريخ تمزق المسلمين، وما حدث من فتنة بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما، وما كان من فتن في عهد يزيد، وكيف سرى الفساد بين المسلمين، وتنازعتهم رغبة الدنيا والسلطان، واصطلى المسلمون بنيران أكلتْ الأخضر واليابس، وصار بأسهم بينهم شديداً؛ مما أثّر على نشر الدعوة، والفتوحات في زمن الصراعات..

وكذلك سمع مالك، وعاين خروج الخوارج، وإزعاجهم لأمن الناس، وتخطفهم المسلمين في أطراف البوادي، لا يبقون على قائم، يفهمون الدين بظواهر الألفاظ، ويمرقون من حقائق الإسلام، مروق السهم من الرمية، ورآهم بقيادة أبي حمزة يساورون المدينة، ويقتلون أهلها القتل الذريع، ثم يدخلونها، فلا يقيمون حقاً، ولا يخفضون باطلاً..

فكر مالك السياسي

هذا ما رآه مالك من فساد، جرّه الخروج على الحكام؛ بغير تخطيط، ولأجل الزعامات الدنيوية، أو الأهواء والأفكار المنحرفة، لذلك كان مبغضاً لكل خروج، ويرى فيه فوضى، تُفْسِد ولا تُصْلح، وتزعج الآمنين، ولا ترد ظلماً..

وهذا ما شكل جزءاً من الفكر السياسي للإمام مالك -رحمه الله تعالى-؛ فنجده يرضى بالاستقرار، ويرى أن صلاح حال الأمة سيؤدي لا محالة إلى صلاح حكامها، وأنه يجب البدء بإصلاح الرعية، فإنها الأصل، وهي الشجرة، والحكام ثمرتها، والثمرة دائماً من جنس شجرتها، تستمد عناصر تكوينها منها، فإن كانت طيبة صالحة، فهي كذلك، ولا يجني أحد من شجر غير ثمره، ولا تحيا ثمرة في غير شجرها..

وإن كان سكوته العام هذا لا يجعله يقر أمراً ليس من الدين أصلاً من أجل مصلحة عامة، بل يكتفي بالسكوت أو يشير بالتلميح أنه ليس من الدين، ولكنه لا يفتي أو يصرح أبداً بما يخالف شرع الله تعالى فالفتوى عنده دين ، والدين أعظم مالدى الإنسان.



الحكم العباسي

ثم جاء الحكم العباسي، وقد سبقته اضطرابات شديدة، وغُزيت المدينة، وقُتل أبناء المهاجرين والأنصار، ثم استقرت الأمور في زمن أبي جعفر المنصور، ووجد مالك في بني العباس سامعين لنصائحه، مسترشدين بمواعظه، فشجعه ذلك على الاتصال بهم وقبول هداياهم..

عاصر الإمام مالك الدولتين الأموية والعباسية، وعاين الخلافات والنزاعات التي جرت فيهما؛ فتولد عنده بغض الخروج على الحكام، وإيثار الإصلاح في فترات الاستقرار، كمنهج عام لفكره السياسي..

(2) الناحية الاجتماعية

مظاهر الحياة الاجتماعية في عصر الإمام مالك، كانت تموج بعناصر مختلفة، من فرس، وروم، وهنود، وعرب، وقد اتسعت الرقعة الإسلامية، وكثرت فيها الحواضر والمدن العظيمة، وقد تفرق أصحاب رسول الله ﷺ في عهد عثمان رضي الله عنه، وما تلاه من العصور، فكان لكل صحابي تلاميذ وأتباع، ولكلٍ منهم آراء فقهية، تراعي طبيعة أهل تلك المدن؛ من خلال سعة الشريعة، ومرونتها، حيث إن كل مدينة لها خصائصها الاجتماعية، والتجارية، والعلمية، حتى صارت الرقعة الإسلامية تزهو بحضارتها على كل حضارة سبقتها، ومن الطبيعي أن المجتمع الذي يكون على هذه الشاكلة، من اختلاط الشعوب والأجناس، بخلفياتها، وثقافاتها، تتفاعل فيه الأحداث الاجتماعية، ولكل حادثة حكمها في الشرع..

والشريعة الإسلامية، شريعة واسعة، تحكم بالحكم المناسب والمتوافق مع مصالح العباد، في كل الأحداث دقيقها وجليلها، ومن شأن تلك الأحداث المتنوعة، أن توسع عقل الفقيه، وتفتق ذهنه لاستخراج المسائل وأحكامها، وتوسع فيه ناحية الفكر اللازم، لوضع ضوابط وقواعد عامة، للفقه وأحكامه..

والمدينة المنورة، التي كانت إليها الهجرة، وبها الروضة الشريفة، والمسجد النبوي، ومثوى النبي ﷺ، كانت مزار المسلمين في حجهم، يتيمنون بالمقام فيها، واللبث بجوار الرسول ﷺ، وقد ارتضاها الإمام مالك مقاماً له، وخالط فيها كل أعراف الناس، ورأى صور معاملاتهم، ومعايشهم، وأحوالهم الاجتماعية، بأنواعها وأشكالها، مما وسّع عنده الوعي باحتياجات الناس وشكّل فكره الاجتماعي والفقهي..

إذاً اتساع الرقعة الإسلامية، وكثرة الأحداث الاجتماعية، واختلاط الشعوب والأجناس، كل هذا أدى إلى توسع عقل الفقيه، خاصة في المدينة المنورة، وهذا كله شكل فكر الإمام مالك الاجتماعي والفقهي..

3 الناحية الفكرية والعقائدية

في ذلك العصر كانت البلاد الإسلامية عموماً، والعراق خصوصاً، مرتعاً لأفكار ومذاهب تدس بين المسلمين في الخفاء؛ لتفسد عقيدتهم، أو لتحيرهم في أمور دينهم، وتلبس عليهم الواضح السائغ المستقيم، بأفكار فلسفية يصعب على عموم الناس فهمها، مثل البحث في حقيقة القضاء والقدر وإرادة الإنسان، وغيرها..

كانت هذه المجادلات تُثار بين المسلمين بتدبير خفي وعلني، ليضطربوا في دينهم، وليجد خصوم الإسلام منفذاً ينالونه منه، وليستطيعوا أن يقيموا الحواجز التي تنفر الناس عن الإسلام..

وقد وجد بجوار هؤلاء زنادقة منحرفين عن الإسلام الصافي، يعلنون آراء مفسدة للجماعة الإسلامية، ويتناجون بأمور هادمة للإسلام، ويدبرون الأمر كيداً لأهله وتهويناً لشأنه..

تلك هي النزاعات الفكرية والعقائدية في عصر الإمام مالك، وقد كان على علم بها وبتفاصيلها وآثارها السلبية على الإسلام والمسلمين، ولذلك تجافَتْ عنها نفسه، وما كان يسمح لأحد أن يجرِي المناقشة حولها في مجلسه أو أمامه، بل كان يجيب بإجابات مختصرة، تحسم النقاش وتوضح الحق بلا دخول في نقاش جدلي فلسفي..

4 الناحية العلمية

لقد كان العلم في صدر الإسلام يتجه إلى التلقي بالسماع، ولم يدوّن في الكتب إلا ما ندر، واتجهت طوائف من الناس للعكوف على العلوم المختلفة يدرسونها ويذاكرونها، ثم اتجه العلماء في آخر العصر الأموي إلى التدوين، وأخذت العلوم تتميز وتتطور، وصار لكل علم علماء اختصوا به، يتعمقون فيه، ويضبطون قواعده، واتجه الفقهاء والمحدّثون إلى تدوين الحديث والفقه في العصر الأموي، فكان فقهاء الحجاز يجمعون فتاوى عبد الله بن عمر، وعائشة، وابن عباس، رضي الله عنهم أجمعين، وكذلك فقه مَنْ جاء بعدهم من كبار التابعين بالمدينة، واتجه العلماء إلى دراستها والنظر فيها والاستنباط منها واستخراج الأحكام الفقهية منها..

كما كان العراقيون يجمعون فتاوى عبد الله بن مسعودﷺ، والأحكام القضائية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وفتاواه، وقضايا شريح وغيره من قضاة الكوفة، ثم يستخرجون منها ويستنبطون، فلما جاء العصر العباسي اتسعت آفاق التدوين في الحديث، ودرسوه مرتباً ترتيباً فقهياً، وتوسع الفقه والعلوم الشرعية..

المناظرات

ولا ننسَ أن العصر كان عصر مناظرات ومناقشات، يرحل العلماء لأجلها، وكانت المناظرات الفقهية تبرز في موسم الحج، فنرى مثلاً أن أبا حنيفة كان يتذاكر في المسائل الفقهية مع مالك، ويتناظر مع الأوزاعي، ولذلك كانت المناظرات الفقهية أخصب وأكثر إنتاجاً من غيرها..

ولكن الإمام مالكاً -رحمه الله تعالى- كان ينفر من الجدل العلمي، الذي يكون الغرض منه السبق والفوز وغلب الخصم، ويعد الجدل في الدين لا ينتج شيئاً، وأنه يفسد الدين وصفاء القلوب، ولعله كان يعتبر تلك المناظرات لا يراد بها طلب الحق، ولكنها من قبيل الجدل الذي نُهينا عنه..

توزع العلم بين المدن

وقد ظهرت في عصر الإمام مالك ظاهرة بينة واضحة الأثر في تميز الآراء؛ وهي تميُز كل مدينة من المدائن المشهورة بالعلم، بناحية من نواحي الفكر، فالبصرة مثلاً كانت تتميز بعلومها الدينية بالمسائل التي تتصل بالعقيدة، حيث كانت بها الفرق المختلفة التي تتكلم بفلسفة العقائد، وتميزت البصرة كذلك ببروز علماء في الوعظ والقصص كالحسن البصري -رحمه الله تعالى- بينما التميز الفقهي فيها محدود..

أما الكوفة فكان بها الفقه العراقي الذي يقوم على آثار ابن مسعود ﷺ، وآراء إبراهيم النخعي رحمه الله، ومدرسته التي كان يمثلها درس حمّاد بن أبي سليمان رحمه الله، ثم درس أبي حنيفة رحمه الله من بعده..

وقد كان فيها فقه الرأي والقياس والاستحسان بشكل بيّن واضح..

أما دمشق فقد كان فيها الفقه الذي يقوم على تعرف آثار الصحابة والتابعين، وقليل من الآراء، ويمثل هذا الفقه الإمام الأوزاعي رحمه الله ومدرسته، حيث كان الأوزاعي على علم بالسنة، ولم يكن محدّثاً كمالك رحمه الله..

أما المدينة المنورة فقد كان بها الحديث النبوي الشريف، وكانت بها آراء وفقه الصحابة والسلف الصالح، وكذلك كانت بها الخصوصيات الفقهية لبعض الصحابة الذين امتازوا بالرأي كعمر ﷺ، وزيد بن ثابت ﷺ، ومن تلقى عليهم من بعدهم، فاجتمع في المدينة الحديث والسنة والرأي..

بدأ تدوين العلم في آخر العصر الأموي، وتميزت كل مدينة بناحية من نواحي الفكر، أما المدينة المنورة فجمعت الحديث والسنة والرأي والفقه الموروث من كبار أصحاب المصطفى ﷺ..



5 دار الهجرة

بما أن الإمام مالكاً كان إمام دار الهجرة، فلا بد أن نتحدث عن تعريف بالمدينة المنورة في زمنه بكلمة موجزة:

كانت المدينة مكان هجرة النبي ﷺ، وفيها نزل الكثير من القرآن الكريم، وحفظت فيها أحاديث النبي ﷺ، وظهر التشريع الإسلامي الأول، وأنشئت المدينة الفاضلة التي كان أساس الحكم فيها حكم الله تعالى، فالشرائع الدينية ما عدا الصلاة، كلها نزلت بالمدينة، وبها سنة الرسول ﷺ في القضاء بحكم القرآن، وبيانه وتفسيره، وإعلان أحكامه للناس، فلما انتقل النبي ﷺ للرفيق الأعلى، كانت المدينة قصبة الدولة الإسلامية، وموطن الخلافة، وفيها تفتق عقل الصحابة رضي الله عنهم في استخراج أحكام إسلامية تصلح لما جدّ من شؤون المجتمعات الإسلامية، وخاصة بعد الفتوح التي كثرت واتسعت بها رقعة الإسلام؛ لذلك ولأسباب أخرى تتصل بحسن السياسة وتدبير الأمر على أكمل وجه؛ أبقى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أكثر الفقهاء من الصحابة بجواره يستشيرهم ويستفتيهم، مما جعل المدينة مرجع العلم الفقه في الأمة الإسلامية الجديدة..

ولما قُتل الفاروق ﷺ وآلت الخلافة إلى عثمان ﷺ؛ سمح للصحابة الذين احتجزهم عمر أن يخرجوا إلى الأقطار، فصاروا قادة لها ونوراً بها..

وكذلك كان الأمر في عهد عليّ ﷺ، بل هو نفسه خرج من المدينة إلى الكوفة، وشكل تلاميذه الأصل العلمي لمدرسة الكوفة بما تلقوه وتعلموه من فتاوى وأقضية وما رووه عنه من أحاديث نبوية شريفة..



المدينة في العهد الأموي

ولما بدأ العهد الأموي تجمع مَن بقي من الصحابة هم وتابعوهم في المدينة من جديد، ليبتعدوا عن ذوي السلطان والصراعات السياسية، ولم يبقَ حول معاوية رضي الله عنه إلا الذين أيدوه كعمرو بن العاص رضي الله عنه، وقليل آخرون..

ثم جاءت خلافة يزيد ومَن بعده من حكام آل مروان.. واشتدت الفتن وكثر الخروج على الخلفاء، فكان العلماء من التابعين يفضلون الابتعاد عن الصراع، ويتوجهون نحو جوار الحرم النبوي حيث آثار الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه الأكرمين، وعكفوا على الدراسات العلمية وبيان أمور الدين للناس فيما يجدّ من الأحداث، حتى إن عمر بن عبد العزيز لما أراد أن يفقّه الناس في أمور دينهم لم يجد إلا المدينة المنورة يرجع إلى علمائها ليجد منهم المرشدين والمفقهين، ولقد قال:

«إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً، فمَنْ عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش أعلمْكموها وأحملكم عليها، وإن أَمُتْ فما أنا على صحبتكم بحريص»..

ولذلك من باب حرصه على انتشار الفقه وتعليم الناس حدود وشرائع الإسلام، أمر بتفريق علماء المدينة في الأمصار ليعلموا الناس، ويرشدوهم ويبينوا لهم حدود الإسلام وشرائعه، فانتشر الفقه وعمّ الاسترشاد بهم..

كما أمر بتدوين السنة المشهورة في المدينة، وأمر قاضيها أبا بكر بن حزم أن يدوّن الحديث والسنة، وجاء في الموطأ برواية محمد بن الحسن عن مالك عن يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن حزم: «أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنة ونحوها فاكتبه لي، فإني خفت دروس أي (ضياع) العلم وذهاب العلماء»..

والفقه والسنة لم يكونا في المدينة وحدها، فإن أصحاب رسول الله ﷺ تفرّقوا في الأمصار، ولكن المدينة كانت أوفر حظاً بأكبر عدد منهم، وقد قال ابن القيم -رحمه الله- في بيان المفتين من الصحابة وتلاميذهم: «والدين والفقه انتشر في الأمة نقلاً عن أصحاب (أي تلاميذ) ابن مسعود، وأصحاب ابن عمر، وأصحاب زيد بن ثابت، وأصحاب عبد الله بن عباس، فعلمُ الناسِ عامته (أي أكثر علم المسلمين منقول) عن هؤلاء الأربعة..

فأما أهل المدينة فعلمهم عن أصحاب زيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وأما أهل مكة فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن عباس، وأما أهل الكوفة فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن مسعود»..

وهكذا نجد أن المدينة المنورة (شرّفها الله تعالى، وعلى ساكنها أفضل الصلاة والسلام) كانت أهم المراكز العلمية والفقهية في العالم الإسلامي، مما مهد للإمام مالك بيئة علمية فريدة وثرية، وساهم كذلك في التمكن العلمي لدى الإمام مالك، وخاصة في السنة والحديث والفقه..

وأيضاً ساهم صفاء العقيدة (بسبب وجود أعداد كبيرة من الصحابة رضي الله عنهم في المدينة، ومَنْ سار على نهجهم من التابعين الكرام) ساهم ذلك في صفاء العقيدة لدى الإمام مالك، وابتعاده الكامل عن الفكر الفلسفي والجدل المنطقي، واكتفائه باتباع السلف الصالح بلا تحريف..

إن تواجد أعداد كبيرة من الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين الكرام، في المدينة المنورة، ساهم في التمكن العلمي والفقهي وصفاء العقيدة والثروة الضخمة من الحديث النبوي الشريف لدى الإمام مالك..





الباب الأول

بداية الطريق

- الفصل الأول: المنبت الطيب
- الفصل الثاني: طريق الجنة

الفصل الأول

- مولد الإمام
- مالك اليمني
- الأب المعلِّم
- الأعمام
- الجَدّ التابعيّ
- البيئة المحفّزة
- الأم المربية

الباب الأول



الفصل الأول

المنبت الطيب





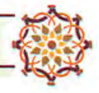
الإمام مالك هو الإمام المشهور، أكمل العقلاء، وأعقل الفضلاء في زمانه، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن عمرو بن الحارث.. ينتهي نسبه إلى يعرب بن يشجب بن قحطان الأصبحي..



مولد الإمام

ولد في عام 93 للهجرة، في مدينة النبي ﷺ: المدينة المنورة..

وكان قد عُرف بالعلم منذ نعومة أظفاره، وليس هذا بشيء غريب عليه، فهذه الأسرة التي هو منها أسرة علم، فأبوه وأعمامه وجده كلهم من أصحاب العلم وأرباب الفضل، ولهم مع هذا العلم حديث طويل..



مالك اليمني

أما نسب مالك فعربيٌّ من أهل اليمن، هاجرت أسرته على عهد جده مالك، فهو مالك بن أنس بن مالك، وبفضل الله تعالى هُيئت له في هذه الأسرة العلمية أسباب الانخراط في الدراسات العلمية، بالإضافة إلى ولادته ونشأته في مدينة النبي ﷺ، التي كانت مملوءة بالعلماء الذين نشروا العلم في أرجاء الأرض من تلك المدينة المباركة..

يقول أبو سهيل عم مالك في بيان نسبهم: "نحن قوم من ذي أصبح، قدم جدُّنا المدينة، فتزوج في التيميين، فكان معهم ونسبنا إليهم"..

ملخص: أصل نسب الإمام مالك عربيّ من أهل اليمن، وولد ونشأ في مدينة الرسول ﷺ ..



الأب المعلَم

أنس بن مالك هو والد الإمام مالك، وهو ليس الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه وكان يعمل نبّالاً (أي يصنع النبال)، وكان هذا شأن العلماء في ذلك الزمان، فلم يكن لهم راتب شهري من الدولة ليتفرّغوا للعلم، وكان هذا شأناً معروفاً أن كل إنسان يعيش من كسب رزقه..

وقد تأثر الإمام مالك بهذا الشأن، فكان يقول: طلب الرزق في شبهة أحسن من الحاجة للناس..

والعجيب في والد الإمام مالك أنه كان مشلولاً، ولم يمنعه ذلك من أن يكون صاحب صنعة، وفي الوقت نفسه كان صاحب علم وحديث، وهو أحد الذين روى عنهم الإمام مالك..

صورة حسب الوصف لوالد الإمام مالك

ملخص: كان والد الإمام مالك يعمل نبّالاً، بالإضافة إلى كونه من أهل العلم، وكان كذلك من رواة الحديث..



الأب يستفزّ ابنه لطلب العلم

يقول الإمام مالك: كان لي أخ في سن ابن شهاب الزهري، فألقى علينا أبي مسألة فأصاب أخي وأخطأتُ، فقال لي أبي: ألهتك الحمام عن طلب العلم (حيث كان صغيراً ويلعب بالحمام)..
يقول الإمام مالك: فغضبتُ لما قال لي أبي هذه الكلمة، وانقطعت (أي تفرغت لطلب العلم) عند ابن هرمز سبع سنين..
وكانت هذه من البدايات العلمية للإمام مالك..
وهكذا نرى أن جدّية الأب في طلب العلم انعكست على ابنه، فأخرجت للأمة هذا الإمام العظيم..

والد الإمام مالك: أنس بن مالك



الأعمام

أما أعمامه فثلاثة من أهل الفضل هم: أويس ونافع والرُّبَيِّع، فإذا أضفت إليهم أنس والد الإمام مالك، فهؤلاء الأربعة كانوا يروون حديث رسول الله ﷺ عن والدهم مالك جدّ الإمام مالك، وأشهرهم أبو سهيل نافع الذي كان يُعَدُّ من شيوخ الزهري، رغم أن فارق السن بينه وبين الزهري قليل، بل كانت وفاته بعد الزهري..

أعمام مالك: أويس ونافع والرُّبيِّع، وكلهم من أهل العلم ومن رواة الأحاديث النبوية الشريفة..



الجدّ التابعيّ

أما جده فهو مالك بن أنس الذي كان عنه هؤلاء الأبناء يروون، فأنس هو أكبر أولاد مالك جدّ الإمام مالك، وكان أبو أنس من كبار التابعين ومن علمائهم، وهو مصدر العلم الرئيسي لحفيده الإمام مالك..

روى أبو أنس عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، وعائشة أم المؤمنين، رضي الله عنهم.

فالإمام مالك تلقى العلم من هذه الأسرة، وبخاصة من أبيه وأعمامه الذين تلقوا من جده، وكان مالك جد الإمام مالك يكتب المصاحف حين جمع عثمان رضي الله عنه المصاحف، وكان يملي على كُتّاب المصحف..

وكان له خصوصية: حيث أنه لما استشهد الإمام العظيم عثمان بن عفان صاحب النبي ﷺ ذو النورين رضي الله عنه في الفتنة العظيمة، ومُنع الناس من الصلاة عليه ومن دفنه إلا المقربين إليه، كان مالك الجدّ واحداً من أربعة حملوا جسد عثمان بن عفان رضي الله عنه وأدخلوه القبر..

أسرة معمرة

وكان مالك من المعمّرين، وامتد به العمر إلى زمن عمر بن عبد العزيز، إلى ما بعد سنة 99 للهجرة، التي تولى فيها عمر بن عبد العزيز الخلافة، وكان عمر يستشيره في أموره، ويبدو أن هذه الأسرة من الأسر المعمرة، فعمه أبو سهيل يعيش إلى ما بعد الزهري (والزهري أكبر منه سناً)، أما الإمام مالك فتوفي وعمره تسعون سنة، فنحن نتحدث عن أسرة علمية معمرة.

ملخص: مالك جدّ الإمام مالك، كان من كبار التابعين، روى عن عمر وعثمان وطلحة وعائشة رضي الله عنهم، وكان من كُتّاب المصحف في زمن عثمان، وهو مصدر العلم لحفيده الإمام مالك..



مالك (جد الإمام مالك)




البيئة المحفّزة

نشأة الإمام مالك وعلمه وفضله

نشأ الإمام مالك في بيت اشتغل بتعلم ورواية أحاديث النبي ﷺ في المدينة التي كانت مهد السنن وموطن الفتاوى المأثورة، حيث اجتمع بها الرعيل الأول من علماء الصحابة رضي الله عنهم، ثم تلاميذهم من بعدهم، حتى جاء مالك فوجد تلك التركة الثرية من العلم والحديث والفتاوى، فنمتْ مواهبه تحت ظلها، وجنى من ثمرها، وقد حفظ القرآن الكريم في صدر حياته، كما هو الشأن في أكثر الأسر الإسلامية التي يتربّى أبناؤها تربية دينية، ثم اتجه بعد حفظ القرآن إلى حفظ الحديث، فوجد من بيئته محرّضاً، ومن المدينة موعزاً ومشجعاً..

وكنا قد تحدثنا عن أسرة الإمام مالك أنها أسرة علم وفضل، وقد سبقه إلى هذا الفضل أخوه النضر بن أنس، الذي كان حريصاً على الالتزام مع الفقهاء والتلقي عنهم، وكان معروفاً بينهم، حتى كان الإمام مالك يُعرَف بأخي النضر، فيقال له: هذا أخو النضر..

ولكن بالهمة ومع الصبر والاستمرار، استطاع الإمام مالك أن يتجاوز أخاه النضر، ويصبح النضر يقال له: أخو مالك.. فالقضية ليست قضية سبق بالزمن، ولكنها سبق بالهمم..

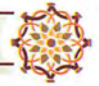
ملخص: الهمة العالية مع الصبر والمثابرة جعلت الإمام مالكاً يتفوق على أخيه النضر الأكبر منه سناً..

بداية أمر اهتمامه بالعلم

لا يكفي أن ينشأ الإنسان في أسرة علمية ليكون من أهل العلم، فكم في الزمن من أُسر معروفة بالعلم، من أبنائها مَنْ ليس لهم شيء من العلم، بل ربما كانوا من أهل الترف واللهو وغير ذلك..

والعكس أيضاً صحيح، فكم من أسرة مغمورة هي أبعد ما تكون عن العلم، أنجبت علماء نابغين وفقهاء مرموقين، فالقضية ليست فقط انتماء إلى أسرة علمية، ولكن هناك سبب مهم نكتشفه من خلال التاريخ، وكيف أنه هو الذي حول منهج الإمام مالك نحو العلم..

ملخص: الأسرة العلمية لا تكفي ليصبح الإنسان عالماً، وإن كانت بيئة مناسبة لتخريج العلماء..



الأم المربيّة

كان السبب الذي حوّل منهج الإمام مالك نحو العلم هو أمه: عالية بنت شريك بن عبد الرحمن بن شريك الأزدية (عربية من قبيلة الأزد)..

هذه الأم العاقلة أحسنت توجيه أبنائها واختيار الطريق السويّ لهم، بتشجيعهم على العلم، وتوجيههم نحو النجاح في الحياة..

والغريب أنه في بداية الأمر أُعجب الإمام مالك بالمغنين وأراد أن يتجه إلى الغناء، وكطفل صغير بدأ يغني ويجيد الغناء، وكان يتمنى أن يصبح مغنياً مشهوراً، فالغناء في كل زمن مصدر للثروة وجمع المال والشهرة، ولكن في غير الطريق السوي الأفضل، وهو العلم..

ولكن العاقلة هذه ما أرادت لولدها أن يتجه في طريق الغناء، وفضّلت أن يتوجه نحو العلم، فصرفته عن الغناء بحكمة بالغة وأسلوب لطيف من غير ضغط وبدون عنف.. وهذه قصة تحوله من الغناء إلى العلم:

ملخص: أمه عالية بنت شريك صرفته من الاهتمام بالغناء إلى الاهتمام بالعلم.

الإمام مالك وأمه





قصة تحوله من الغناء

يقول الإمام مالك: نشأت وأنا غلام، فأعجبني الأخذ عن المغنين، فلما رأتني أمي مهتماً بقضايا الغناء، وشعرت أن القدوة التي أقتدي بها بدأت تتجه في غير الطريق السوي، أرادت أن تصرفني عن هذا الغناء، فقالت: يا بني، إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يُلتَفَتْ إلى غنائه! فدع الغناء واطلب الفقه..

يقول مالك: فتركتُ المغنين وتبعت الفقهاء، فبلغ الله بي ما ترى..

إن مالكاً لم يكن قبيح الوجه، ولم تقل له أمه: أنت قبيح، وإنما أرادت صرفه بهذا الأسلوب، فظن أنه المقصود لصغر سنه..

يقول مالك: ثم جاءت بعد فترة لي بملابس العلماء، فألبستني ثياباً مشمرة، ووضعت لي القلنسوة الطويلة على رأسي، ووضعت فوقها العمامة، فأخذتني وقالت: اذهب الآن، ثم اختارت لي أحد العلماء..

فلننظر إلى توجيه هذه الأم الفاضلة.. وإلى الكلمة التي قالتها لابنها حين وجهته إلى العلم واختارت له العالِم الذي يأخذ منه.. إنها لكلمة جديرة بأن تكتب بماء الذهب لتكون نبراساً للأمهات والآباء في توجيه أبنائهم..

قالت له: اذهب إلى ربيعة، فتعلَّم من أدبه قبل علمه، إنها لكلمة عظيمة.. وإنها لأم عظيمة هذه التي صنعت بتوجيهها وتربيتها السليمة الصحيحة رجلاً صنع أمةً..

دور المرأة المسلمة

وهكذا شأن المرأة المسلمة إذا عرفت دورها في الحياة، ومهمتها العظيمة في صناعة رجال المستقبل..

إن توجيه الأولاد وتأديبهم واختيار الطريق السوي لهم هو الدور والمسؤولية الكبرى الملقاة على عاتق الأم..

"تعلَّم من أدبه قبل علمه" .. فتعلم الأدب والأخلاق والمعاملة هو من الأهمية بمكان، بل ربما يكون أهم من تعلم العلم نفسه، لأن العالِم إذا كان فظاً غليظاً لا يُستفاد من علمه، بل ينفر الناس منه، بينما العالِم كريم الخُلُق يشجع الناس على العلم، وتكون بشاشته أثناء إعطائه العلم سبباً في إقبال الناس عليه، والاستفادة منه..

هكذا يقدَّم العلم بلين، ورفق، فيحبب العلم للناس، لا يقدَّم بخشونة وغلظة..

وهكذا كان ربيعة الرأي.. كان من أصحاب الأدب الرفيع..

مما جعل أم الإمام مالك توجه ابنها أول ما توجهه إلى التلقي عن هذا العالِم الجليل، ليأخذ من أدبه ويكون قدوة له في ذلك، ثم يأخذ من علمه..

وهكذا يتوجه الطفل مالك بثياب العلم التي ألبسته إياها أمه إلى حلقة ربيعة الرأي، ليبتدئ بذلك في هذه المسيرة الطويلة التي استمرت أكثر من ثمانين عاماً.. مسيرة العلم، حتى صار إماماً فذاً من أئمة المسلمين..

فأي هدية أهدتها هذه الأم العاقلة، إلى الأمة الإسلامية؟!

أي فكر عظيم تجلَّى في فهم هذه الأم للتربية؟!

حيث وجهته إلى القدوة الحسنة..

وشجعته بأسلوب لطيف..

وصرفته عن الغناء..

دور الأم في التوجيه

وأرسلته إلى المفكر الجليل والعالِم العظيم ربيعة الرأي، الذي ساهم في تشكيل هذه الشخصية العلمية للإمام مالك..

بالإضافة إلى بيئة المدينة المنورة التي نشأ بها.. وكانت سبباً رئيسياً في التكوين العلمي الذي جعل من الإمام مالك إماماً كبيراً!!

ولننظر بعد هذا إلى أمهات اليوم، وإلى اهتماماتهم، وكيفية توجيه أبنائهم..

إن الأم هي المدرسة التي يتربَّى الطفل في أحضانها من أول لحظة يأتي فيها إلى الحياة، تزرع فيه القيم والأخلاق والمبادئ الفاضلة، وتختار له الطريق الذي يرسخ هذه المبادئ ويقويها، فتجعل منه إنساناً عاملاً صالحاً لدينه ومجتمعه.. أو العكس..

ففي أي طريق توجِّه الأم أبناءها اليوم، ومَنْ تختار لهم القدوة، وفي أي مدرسة تؤدبهم؟!

هل تختار لهم أحد العلماء ليؤدبهم ويوجههم؟ وتعرِّفهم القدوات الصالحة ليقتدوا بها، وتكون نبراس حياتهم؟!

أم تختار لهم الممثلين والممثلات، والمغنين والمغنيات، ليكونوا القدوة والمَثَل الأعلى لهم؟!

هل تدفعهم إلى المساجد والمدارس الإسلامية ليتعلموا دينهم ويتأدبوا بآدابه؟!

أَمْ في النوادي والملاهي التي لا تراعي ديناً ولا تحفظ أدباً ولا خُلُقاً تؤدبهم؟!

إن أم الإمام مالك صرفته عن الغناء واختارت له طريق الفقه والعلم والأدب.. فأصبح إماماً.. فماذا عنك أيتها الأم اليوم؟!

إن أمتنا تحتاج لِمَن يكمل لها مسيرة الخير والعطاء، تحتاج لمن يدرك حجم المسؤولية الملقاة على عاتقه..

أنت أمل هذه الأمة وبلسمها الشافي بعد عون الله تعالى، فعليكِ تعلَّق الآمال، وترتجى الخيرات..

فهلا عُدْتِ أيتها الأم وعرفت دورك الحقيقي، وأدركتِ حجم المسؤولية الملقاة على عاتقك؛ تربية الأولاد وتوجيههم..

ولتكن أم الإمام مالك وأمثالها من الأمهات الفاضلات العاقلات قدوةً لنا في تربية أبنائنا وتوجيههم توجيهاً سليماً صحيحاً..

وليكن الإمام مالك وأمثاله من الأئمة الكبار والأعلام العظماء قدوة لأبنائنا..

فنسعد، ويسعد أبناؤنا، وتسعد الأمة كلها بهم!!



الفصل الثاني

- الجامعة الكبرى
- الثقافة الفريدة
- التلقي من الأساتذة الكبار
- الفقهاء السبعة

الباب الأول



الفصل الثاني

طريق الجنة





الجامعة الكبرى

كانت مدينة النبي ﷺ تعج بالعلماء من التابعين، ولم يكن في ذلك الوقت مدارس ولا جامعات، بل كان العلم ينطلق من المسجد، فالمسجد مكان صنع الحضارات، مكان انطلاق النور، مكان القرارات السياسية والعسكرية، وتوزيع الأمور الاقتصادية، وكان أيضاً مكان الجامعات والمدارس، وكانت الجامعة الكبرى حيث الحلقات العلمية المتنوعة هي مسجد النبي ﷺ..

في تلك الجامعة كانت تنتشر حلقات العلم، وعلى رأس كل حلقة من هذه الحلقات إمام عظيم من الأئمة المرموقين من أمثال ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن، وابن هرمز، والزهري، ونافع، ومحمد بن المنكدر، وجعفر الصادق رأس أهل البيت، وآخرين رحمهم الله أجمعين..

المسجد النبوي الشريف هو الجامعة التي تلقى فيها الإمام مالك العلم على يد أعظم أساتذة ذلك الزمان..

علم أهل المدينة

كان ذلك العهد قريباً من عهد النبي ﷺ، والخلفاء الراشدين والصحابة الأخيار رضي الله عنهم، وبالتالي كانت فتاواهم يتناقلها الناس كما هي بلا تغيير، وظلّتْ محفوظة في الصدور، وكان حديث رسول الله ﷺ كذلك محفوظاً في الصدور ومروياً على الألسنة..

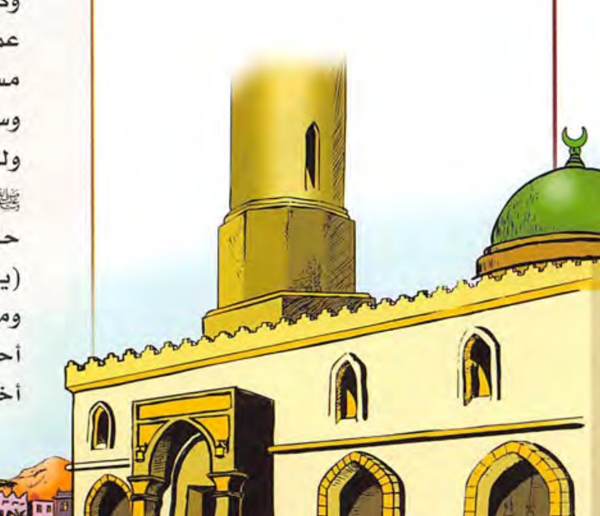
وكان فقه الأئمة الكبار والصحابة الأجلاء مثل فقه عبد الله بن مسعود، وفقه عبد الله بن عمرن وسعيد بن المسيب من التابعين الكبار، وأمثالهم من هؤلاء الأعلام الكبار، الذي فيه مسائل واستنباط للأحكام، كان معروفاً ومتوارثاً في هذه الحلقات جيلاً بعد جيل..

وسنة النبي ﷺ لم تتبدل لدى الفقهاء، فطريقة صلاتهم وتعاملهم، وطريقة كلامهم ولباسهم وغيرها كانت على النهج النبوي الشريف، حيث تعلموا على آثار مدرسة النبي ﷺ وورثوا شمائل الصحابة الكرام، وتداولوا علمهم وعملهم..

حتى كان ابن عمر يقول لاثنين يختلفان: إن كنتما تريدان المشورة فعليكما بدار الهجرة (يقصد أيكما كان أقرب إلى عمل أهل المدينة فهو أقرب للحق)..

ومن هنا كان الاعتزاز بالعلم في مدينة النبي ﷺ، حتى بلغ هذا الاعتزاز أنه إذا أفتى أحد من الصحابة بفتوى في مدينة أخرى ثم وجد أهل المدينة المنورة يفتون بفتوى أخرى، رجع عن فتواه..

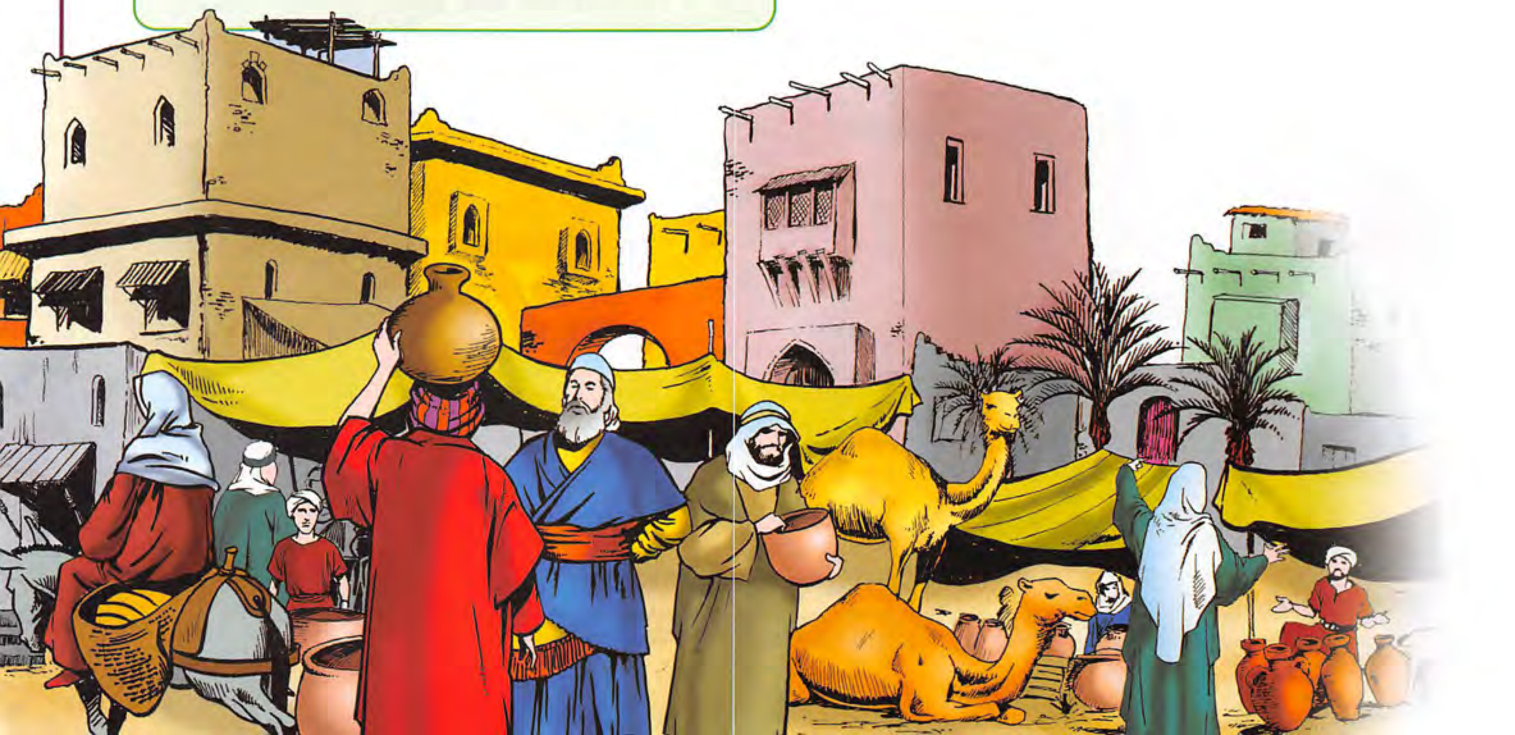
المكانة العلمية لمدينة النبي ﷺ وعلمائها كانت مقدمة على غيرها، لقرب عهدها من النبي ﷺ وأصحابه، وحفظ أهل المدينة وتوارثهم للحديث والسنة وفقه الصحابة..



ترجيح مالك للمدينة

عاش بالمدينة على عهد الإمام مالك نحو أربعين فقيهاً من الفقهاء الكبار والأئمة الأعلام، وبناءً على ذلك كان الإمام مالك يميز عمل أهل المدينة، ويرجح رأيهم لكثرة الصحابة والفقهاء فيها..
يقول الإمام مالك: انصرف رسول الله ﷺ من غزوة كذا (لعله يقصد غزوة تبوك) في نحو كذا وكذا ألفاً من الصحابة (ثلاثين ألفاً)، ومات بالمدينة من هؤلاء الأصحاب رضي الله عنهم أجمعين عشرة آلاف، وباقيهم تفرقوا في البلاد، فأيهما أحرى أن يُتبع ويُؤخذ بقولهم:
مَنْ مات عندهم النبي ﷺ وأصحابه، أم مَنْ مات عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبي ﷺ؟!
ومن هنا جاءت مسألة عظيمة في الفقه المالكي وتُسمَّى (عمل أهل المدينة) حيث يقدِّم ما عليه فعل أهل المدينة على بعض الأدلة الأخرى، لأن احتمال خطأ متوارث من قبل المئات بل الآلاف أقل من خطأ آحاد في نقل حديث أو قول صحابي..
ولا شك أن هذه البيئة التي أحاطت بالإمام مالك، كان لها أثر عظيم في صنع هذه الشخصية الفريدة، بالإضافة إلى الجهد المتواصل في العلم لأكثر من ثمانين عاماً، مع سعي دائم بدون كلل، جهاد ومثابرة، وصبر ومصابرة.. حتى صار الإمام مالك إمام دار الهجرة، بل إمام المسلمين في زمانه..

تقديم عمل أهل المدينة عند مالك على غيرهم يرجع إلى كثرة الصحابة والفقهاء فيها..







الثقافة الفريدة

انصرف الإمام مالك نحو العلم بتوجيه من أمه التي صرفته عن الغناء، وبتوجيه من أبيه حين نبهه إلى أن سبب خطئه في المسألة العلمية هو الانشغال بالحمام، فتوجه نحو العلماء، وكان انصرافه نحو عدد قليل منهم، من بينهم ربيعة الرأي، وابن هرمز..

وكان من حرصه على طلب العلم قد بلغ شيئاً عظيماً، حتى أنه كان يطيل الوقوف بباب ابن هرمز، ويقف ينتظر إلى أن يحسَّ أهل البيت أن هناك حركة عند الباب، فيقول ابن هرمز لجارية عنده: مَنْ بالباب؟ فتتجه الجارية نحو الباب، ثم ترجع وتقول لسيدها: ما ثَمَّ إلا ذاك الأشقر..

فيقول ابن هرمز: ادعيه (أي أدخليه)، فذاك عالِم الناس..

وهذا من فراسة ابن هرمز، فمالك كان لا يزال صغيراً.. ثم بعد ذلك صار ابن هرمز أعمى، فكان مالك يقوده من البيت إلى المسجد، ومن المسجد إلى البيت، ويتلقى العلم منه خلال هذه الفترات..

ويقول الإمام مالك عن خبره في طلب العلم وهو صغير: كنتُ أتخذ ثياباً محشوة أتقي بها برد حجر على باب دار ابن هرمز..

وظلَّ يتلقى العلم على باب ابن هرمز سبع سنين لم يخلطه بغيره، فكان يلازمه طوال النهار..

يقول مالك: .. وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين لم أخلطه بغيره، وكنت أجعل في كفي تمراً وأناوله صبيانه، وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ، فقولوا: إنه مشغول..



وكان يقول: وكنتُ آتي ابن هرمز بكرةً، فما أخرج من بيته حتى الليل..

كان الإمام مالك يطيل الوقوف على باب العلماء ليأخذ من علمهم وهو طفل صغير..

تلميذ نافع مولى ابن عمر

وكذلك كان من أئمة العلم الكبار في ذلك الوقت نافع مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وكان نافع حادّ الطبع لا يحب أن يسأله أحد عن قضايا العلم إلا في حلقة العلم، والإمام مالك كان صغيراً لا يُتاح له أن يسأل بحضور الكبار، فاضطر إلى حيلة لطيفة يصفها بقوله: كنتُ آتي نافعاً نصف النهار وما تظلني الشجرة من الشمس أتحين خروجه، فإذا خرج أتبعه كأني لم أره، ثم أتعرض له فأسلم عليه، ثم أتركه حتى إذا دخل المسجد دخلت عليه مرة ثانية فأقول: ما رأي ابن عمر في كذا وكذا؟
فيجيبني، ثم أحبس عنه..
فانظر إلى صبر هذا الشاب الصغير، يصبر على الحَرِّ ساعات من أجل مسألة واحدة، حتى كانت أخته تشفق عليه، فتخبر أباها أنه يقف بباب نافع في حَرِّ الشمس ساعات، فيقول لها: إنه يحفظ حديث رسول الله ﷺ..
لقد قذف الله في قلب هذا الفتى حبَّ العلم، ففضَّل طلب العلم على الراحة، واكن جادّاً أيما جدٍّ في طلبه، حتى إنه كان يتحيَّن أوقاتاً يرتاح فيها الناس وهو لا يرتاح..

يقف مالك في حَرِّ الشمس ساعات من أجل مسألة يستفيدها من نافع..





تلميذ الزهري العظيم

وكذلك كان الشاب مالك يحرص على الذهاب إلى عالم جليل وإمام من الأئمة الأعلام هو الإمام ابن شهاب الزهري، ويتحرى ساعات فراغه، يقول مالك: شهدت العيد، فقلت لنفسي: هذا يوم يخلو فيه ابن شهاب، فانصرفتُ من المصلّى، وجلستُ عند الباب، فسمعته يقول: انظري مَنْ بالباب؟

فنظرَتْ، فسمعتها تقول: مولاك الأشقر..

قال: أدخليه..

فدخلتُ، فقال: ما أراك انصرفتَ بعد إلى منزلك؟

قلتُ: لا..

قال: هل أكلتَ شيئاً؟

قلت: لا..

فتعجب الزهري وجاء بطعام، فقال: اطعم..

قلت: لا أريد الأكل..

قال: فما تريد؟

قلت: تحدثني..

فقال لي: هات..

فأخرجتُ ألواحي، وبدأ يحدثني بحديث النبي ﷺ، فحدثني بأربعين حديثاً..

فقلت: زدني..

قال: حسبك..

قلت: قد حفظتها..

فتعجب وأمسك الألواح التي بيدي وقال: حدّث..

فحدثته بها، فأعطاني الألواح، وقال: قم فأنتَ من أوعية العلم..

تحيَّن الإمام مالك للفرص المناسبة للحصول على أكبر قدر ممكن من العلم والحديث من كبار العلماء..

الحرص على العلم

وكان الإمام مالك يعتمد على حفظه للأحاديث التي يلقيها الزهري في حلقته، ومن شدة حرصه على حفظها يمسك خيطاً فكلما انتهى الزهري من رواية حديث يعقد عقدة في الخيط، ثم في نهاية الجلسة يعرف كم حديثاً روى الزهري، ويراجع هذه الأحاديث من حفظه..

وفي إحدى المرات عقد في الخيط ثلاثين عقدة، وعندما بدأ يسترجع الأحاديث إذا هي تسعة وعشرون حديثاً، وحاول أن يتذكر الحديث الثلاثين فلم يستطع، فذهب إلى الزهري وسأله عن الحديث الذي نسيه..

فقال له الزهري: ألم تكن في المجلس؟

قال: بلى..

قال: لِمَ لمْ تحفظ؟

قال: ثلاثون، إنما نسيتُ منها واحداً..

فقال: لقد ذهب حفظ الناس، ما استودعتُ قلبي شيئاً قط فنسيته..

هكذا كان هؤلاء الأساتذة الذين تأدبوا في مدرسة النبي ﷺ، وهكذا صنعوا الأئمة الأعلام..

قارنوا تلك الهمة العالية، وقارنوا تلك التربية، مع همة الشباب اليوم وتربيتهم!!

فمَنْ أراد العلم فليحرص على أن يقتدي بهؤلاء الأئمة الأعلام..

شدة حرص الإمام مالك على حفظ الأحاديث، وشدة حرص الزهري على أمثال مالك..

ودعونا الآن نسلِّط الأضواء على شيوخ الإمام مالك العظماء:



التلقي من الأساتذة الكبار

جاء مالك في عصر الدولة الأموية، وقد كثر العلماء بالمدينة، وأخذ يستقي العلم من شيوخهم غلاماً صبياً، حتى إذا ما شدا العلم أخذ ينتقي من يأخذ عنهم العلم والحديث، ووجد كثرة عظيمة ينتقي منها مَنْ ينهل من معارفه..

ولقد روى عنه ابن أخته قوله: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، لقد أدركتُ سبعين ممن يقولون: قال فلان، قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين، وأشار إلى مسجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، فما أخذتُ عنهم، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان به أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، وقدم علينا الزهري، فنزدحم على بابه؟..

وما كان مالك لينقد الرجال ذلك النقد، إلا لأنه رأى كثرة من العلماء، كان يرفض أحاديث السبعين منهم، مع ما لَهم من الأمانة وفضل التقى..





التعلم من كبار العلماء

نشأ مالك في ذلك الوسط العلمي غلاماً حافظاً متقناً، وبرّاً تقياً، في معدن العلم والآثار، وأخذ العلم عن نحو مائة من هؤلاء العلية، يتلقف من هنا وهناك، لا يهمه من أي شخص يأخذ ما دام أميناً ورعاً تقياً ناقداً..

وكان معنياً بالعلم بكل شيء في عصره، ولكنه لم ينشر بين الناس إلا علم رسول الله ﷺ، وعلم الصحابة والتابعين، وما يتصل بالحديث وإفتاء الناس بما يعلمون به أحكام أمورهم والحق فيها من الدين..

ولذلك كانت عنايته القصوى بمعرفة آثار النبي ﷺ وفتاوى أصحابه، ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه، وقد كان يقول: لا تجوز الفتيا إلا لمن علم ما اختلف الناس فيه، قيل له: اختلاف أهل الرأي؟

قال: لا، اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ، ويعلم الناسخ والمنسوخ من القرآن والحديث..

وكان أخص ما يخصه مالك في دراسته أن يعرف فتاوى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد كان عصره عصر ازدهار الدولة الإسلامية، وفيه فتحت الأمصار، وكان تفتح الفكر الإسلامي لاستنباط أحكام شرعية من الدين، ولذلك عني مالك بتعرف فتاويه رضي الله عنه، وفتاوى من خلفه في المكانة العلمية وفي الإفتاء وفقه الدين زيد بن ثابت، ومن خلفه وهو عبد الله بن عمر..

ولقد قال بعض علماء الأثر: "كان إمام الناس بعد عمر، زيد بن ثابت، وبعده عبد الله بن عمر، وأخذ عن زيد أحد وعشرون رجلاً، ثم صار علم هؤلاء إلى ثلاثة: ابن شهاب، وبكير بن عبد الله، وأبي الزناد، وصار علم هؤلاء إلى مالك بن أنس"..

وهذا يدل على عناية مالك بفتاوى هؤلاء الصحابة الثلاثة، ولقد ذكر لنا هو كيف انتقل إليه علم هؤلاء الفقهاء الممتازين من أصحاب رسول الله ﷺ، فهو يذكر أنه وصل هذا إلى من سموا في التاريخ الفقهي بالفقهاء السبعة من التابعين..

ثم ذكر الذين تلقى عليهم مباشرة علم هؤلاء التابعين، وهم مشايخه الذين تفقه عليهم، وأخذ أحاديث رسول الله ﷺ عنهم، وهذا نص عبارته يخاطب بها أحد الخلفاء وهو المهدي، فقد قال:

سمعت ابن شهاب يقول: جمعنا هذا العلم من رجال في الروضة، وهم سعيد بن المسيب، وأبو سلمة، وعروة، والقاسم، وسالم، وخارجة، وسليمان، ونافع..

ويقول مالك: ثم نقل عنهم ابن هرمز، وأبو الزناد، وربيعة، والأنصاري، وبحر العلم ابن شهاب، وكل هؤلاء يقرأ عليهم..

وهؤلاء الأخيرون هم أخص مشايخ مالك رحمه الله، فإنه ما خصهم بالذكر إلا لمزيد اتصاله العلمي بهم، وحسن ثقته بفتاويهم ونقلهم وملازمته لهم، حتى تخرّج عليهم.

تلقى الإمام مالك العلمَ على أيدي الأئمة الكبار في المدينة المنورة، الذين أخذوا العلم من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم..





1 ربيعة الرأي

من أوائل شيوخ مالك، (ويُقال هو أولهم): ربيعة الرأي، وهو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فرُّوخ، ويكنّى أبا عثمان، وهو من موالي آل المنكدر، وكانوا تيميين من بيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه ..

وكان ربيعة عالماً فريداً متميزاً، قوي البيان حسن الكلام، حتى لقد كان يكثر منه مع الإجادة، وقد وصفه الليث في رسالته إلى مالك بالبلاغة وحسن النية فقال: ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير، وعقل أصيل، ولسان بليغ، وفضل مستبين، وطريقة حسنة في الإسلام، ومودة صادقة لإخوانه عامة ولنا خاصة، رحمه الله وغفر له، وجزاه بأحسن من عمله..

وقال مصعب الزبيري: أدرك بعض الصحابة والأكابر من التابعين، وكان صاحب الفتوى بالمدينة، وكان ثقة كثير الحديث..

وقد كان ربيعة أحد الفقهاء الذين تلقوا العلم على الفقهاء السبعة، كما ذكر مالك رحمه الله، ولذلك كان له علم بفقه الأثر وروايته، تلقى الحديث من معدنه، واستقى فتاوى الصحابة والتابعين من منبعها، ولكنه لم يأخذ ليحفظ ويتوقف، بل أخذ ليحفظ ويبني ويتصرف، ولذلك كانت له آراء في المسائل التي لم يؤثر فيها للسابقين رأي، بل ربما خالف الفقهاء السبعة أو التابعين بشكل عام في بعض المأثور من الفتاوى، وقد أكثر من البناء على المادة الفقهية التي بين يديه، حتى سمي ربيعة الرأي لكثرة ما أبدى من آراء فقهية، وقيل: نسبة إلى الرأي، أي العقل والسداد والفطنة..

أخذ مالك عن ربيعة فقه الأثر معقول المعنى متجهاً إلى البناء عليه، لا إلى الوقوف عنده، يفتي فيما يقع من الأمور بما يراه مأثوراً، فإن لم يجد المأثور بنى عليه، وقد يخالف بعض التابعين ويبين وجه مخالفته..

وقد كان مالك يستسيغ منه ذلك في أول دراسته عليه، ويأخذه عنه ويسلك سبيله، ثم خالفه بعد تلقيه على ابن شهاب الزهري، وقد كان يروي عنه أخبار الصحابة وآدابهم..

ربيعة الرأي هو أول شيوخ مالك، كان عالماً متميزاً، أخذ عنه مالك فقه الأثر والرأي.. ثم خالفه فيما بعد..



تأثر مالك بربيعة الرأي

ومهما تكن من مخالفة الإمام مالك لربيعة، إلا أنه أخذ عنه الكثير، واقتبس من طريقة تفكيره الكثير، وآراء ربيعة واضحة في فقه مالك.. فربيعة كان يأخذ بعمل أهل المدينة إذا وجدهم على أمر قد اتفقوا عليه، واعتبر ذلك أقوى في إيجاب العمل من حديث الآحاد، ولذلك روي عنه أنه قال: ألفٌ عن ألف أحبُّ إليَّ من واحد عن واحد، فإن واحداً عن واحد ينتزع السُّنَّة من أيديكم..

ومن هنا كان الإمام لديه ميلٌ شديد لعمل أهل المدينة اقتداءً بأستاذه الكبير ربيعة الرأي..

أخذ الإمام مالك عن ربيعة الرأي: الفقه والحديث والأدب، وأخذ شيئاً آخر، أخذ منه الأناقة، كان الإمام ربيعة حريصاً على مظهره وأناقته وجماله، وقد أثَّر هذا في الإمام مالك، فكان من أصحاب الأناقة تأثُّراً بأستاذه ربيعة الرأي، فلما كبر وصار رجلاً صار أستاذه ربيعة صديقاً له، وكان يذهب في صحبته لسماع أحاديث النبي ﷺ من الزهري، وكلاهما في منتهى الأناقة، وسنعلق لاحقاً على موضوع الأناقة إن شاء الله..

وأخذ منه فقهاً عظيماً، لأنه كان لا يكتفي بالأحاديث، بل كان يستخرج منها الكنوز، ويأخذ الحديث، ويربطه بالأحاديث الأخرى، ويستنتج منه استنتاجات تخفى على غيره..

قال عبد العزيز بن أبي سلمة: يا أهل العراق، تقولون: ربيعة الرأي!! والله ما رأيت أحفظَ منه، ومع ذلك كانوا يتقونه لموضع الرأي (أي كان بعض العلماء يتجنب آراءه لأنه يبنيها على التحليل العقلي).

وكان مالك يقول فيه: ذهبت حلاوة الفقه مذ مات ربيعة، ومات سنة 136 هـ (على قول ابن سعد).

وكان لربيعة تأثير كبير على مالك في العلم والاستنباط والأصول التي جعلها أساساً لفقهه..

وروى عنه الإمام مالك الكثير من الأحاديث، وروى عدداً غير قليل منها في الموطأ..

تلقى الإمام مالك عن ربيعة الرأي، وتأثر به في رأيه وعلمه ومظهره..

مكانة ربيعة الرأي

ولقد كان مالك يجلُّ شيخه ربيعة كل الإجلال، فهو لا يتكلم في مجلسه، ولا يبادر بالجواب إذا سئل، وإذا دعاه السلطان لا يذهب إليه إلا بعد استشارته، ويروى أنه لم يجلس للفتيا إلا بعد استئذانه..

ومن أدب مالك مع ربيعة: أنه جلس ابن شهاب، وربيعة، ومالك، فألقى ابن شهاب مسألة، فأجاب فيها ربيعة، وصمتَ مالك، فقال له ابن شهاب: لِمَ لا تجيب؟

قال:قد أجاب الأستاذ.

فقال ابن شهاب لا نفترق حتى تجيب.

فأجاب بخلاف جواب ربيعة.

فقال ابن شهاب: ارجعوا بنا إلى قول مالك.

وهذا خبر يدل على عظيم احترام مالك لربيعة، وأنه على خُلُق عظيم كريم، فلم يرَ أن يناقض شيخه في مجلسه، كما يدل على نضج الإمام مالك في الفقه، حتى إنه ليرى الرأي فيعدل إليه ابن شهاب عما قد اختاره ووافق عليه.

وتشير هذه القصة كذلك إلى جواز سكوت العالم عن رأيه ما دام هناك رأي آخر معتبر، وهو أدب الخلاف الجم..

بلغ من احترام مالك لشيخه ربيعة وإجلاله لَـهُ أنه لا يتكلم في مجلسه، ويستشيره في كثير من أموره، ولم يجلس للفتيا إلا بعد استئذانه..

2 عبد الرحمن بن هرمز

هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج أبو داود المدني، مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وهو من التابعين، روى عن أبي هريرة، وأبي سعيد، وابن عبّاس، ومعاوية بن أبي سفيان، وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم..

وروي عنه الكثير. قال ابن سعد: كان ثقة كثير الحديث..

وقال العِجْلي: مَدَنيّ تابعيّ ثقة، وكان عالماً بالأنساب والعربية..

وهو الشيخ الثاني من الذين تلقى عنهم الإمام مالك من الناحية الزمنية، أما من الناحية العلمية فهو حقيقة الإمام الأول، لازمه الإمام مالك نحو سبع سنوات أو تزيد، ولم يخلط به غيره من العلماء، وكان بعد ذلك يختلف إليه من وقت لآخر..

وقد قال مالك في ملازمته لابن هرمز: كنتُ آتي ابن هرمز بكرةً، فما أخرج من بيته حتى الليل..

ومع أن ابن هرمز لم يكن عربياً، بل كان من الموالي، إلا أن ذلك لم يمنع الإمام مالكاً -العربي الأصيل- أن يتلقى منه، فالعلم هو الذي يرقى بالناس، والإسلام بمبدئه العظيم سوّى بين الناس جميعاً، لا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح والعلم النافع..

العالِم الأصمّ الأعرج

ويصفون ابن هرمز فيقولون: كان أعرج، وكان أصماً (إما أنه لا يسمع فكان يُكتب له، وإما أن سمعه ثقيل) ومع هذا لم تمنعه هذه الصفات أن يكون من علوّ الشأن وسموّ المكانة، بحيث يُعتَبر في الطبقة العالية من عظماء المسلمين، فكانوا يعدونه من طبقة ربيعة الرأي، وابن شهاب الزهري، وعمر بن عبد العزيز، وأبو الزناد، هذه الطبقة يسمّونها بالطبقة الرابعة في العلم بعد الصحابة والتابعين وكبار العلماء في زمانهم.

وكان يشهد لابن هرمز أهل زمانه، ومنهم ربيعة حيث يسأله سليمان بن بلال: أرأيتَ العلماء والناس؟ (أي حدثني من أعلم من رأيت؟).

فيقول: ما رأيت عالماً قط ينفعك إلا ذاك الأصم.

فهذا ابن هرمز الأعرج الأصم وصل إلى هذه المرتبة العظيمة وصار إماماً للمسلمين وأستاذاً للإمام مالك، وكان له الأثر الكبير في علم الإمام مالك وأدبه.

ولعلّ في ذلك دافع وهمة لأصحاب العوائق لكي لا تمنعهم الإعاقة عن المكانة العالية في العلم..

ابن هرمز كان له من المكانة العلمية بحيث يعدونه من الطبقة الرابعة في العلم، مع أنه أصم..

لا أدري

ومن الأمور العظيمة التي تلقاها الإمام مالك عن ابن هرمز قول: لا أدري، فمع المكانة العلمية العالية التي كانت لابن هرمز كان يؤثر الأناة وطول التفكير قبل القول في أي مسألة، وكان أحياناً بعد طول التفكير يقول: لا أدري.

وقول: (لا أدري) مسألة مشهورة بين كبار العلماء، وكان الفاروق وابن عباس رضي الله عنهم لا يترددون في قول: لا أدري.

ويقول ابن عباس: إذا أخطأ العالِم لا أدري أُصيبت مقاتله. (أي إذا لم يتعود قول: لا أدري كَثُرَتْ أخطاؤه)..

هكذا تربى الإمام مالك على التواضع في العلم، مع المكانة العلمية العالية التي كانت له ولشيخه ابن هرمز.

تعلّم الإمام مالك من ابن هرمز ومن الصحابة قبله قول لا أدري فيما لا يعلمونه، وهذا هو تواضع العلماء..

3 نافع الديلمي



أما الشيخ الآخر من شيوخ الإمام مالك، فهو نافع الديلمي الفقيه المحدِّث المشهور باسم نافع مولى ابن عمر.
صحبه الإمام مالك فترة وجيزة، ذلك أنه توفي سنة 117 للهجرة، أي لما كان عمر الإمام مالك 24 سنة.
وهو نافع بن جرجيس الديلمي، كان عبداً وحرره عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فكان يُعرف نافع مولى ابن عمر، وكان ديلمياً ليس عربياً، حتى أنه عندما يتكلم العربية تظهر في لسانه لَكْنَة، ومع ذلك وصل إلى قمة العلم في زمانه، وكان من أئمة الفقه، ووصل شأنه بين العلماء أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد الخامس بعثه معلماً لأهل مصر، ومصر من أهم بلاد المسلمين وأعظمها ومن أخطر البلاد الإسلامية، وكون عمر بن عبد العزيز يختار نافعاً لتعليم أهل مصر فهذا يدل على المكانة العظيمة التي وصل إليها نافع.

نافع مولى ابن عمر، شيخ الإمام مالك، كان له من المكانة العلمية والفقهية في زمانه ما جعله من أكبر العلماء..

علم نافع

لما رأى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عبده هذا مُقدِماً على العلم، سريعاً في التعلُّم، فَطِناً؛ تولى تنشئته على العلم، وفقّهه في الدين، وعلّمه الأحاديث..
وكان ذكياً جداً، فأخذ الحديث عن ابن عمر، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأم المؤمنين عائشة، رضي الله عنهم أجمعين، وساعده ذكاؤه على سرعة الحفظ، وكان أعلم الناس بفقه عبد الله بن عمر رضي الله عنه.
وقد استفاد الإمام مالك من نافع في الفقه والحديث، فكان يقول: إذا سمعت من نافع يحدِّث عن ابن عمر لا أبالي ألا أسمعه من أحدٍ غيره.





سلسلة الذهب

وكان عبد الله بن عمر يقول: «لقد مَنَّ الله تعالى علينا بنافع»..

ومن هنا كان رجال الحديث يقولون: أصحّ الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر، وإذا اتصل بهذه السلسلة الشافعي فصارت: الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر؛ سموها سلسلة الذهب.

وقال ابن عيينة عن إسماعيل بن أمية قال: كنا نريد نافعاً مولى ابن عمر على اللّحن فيأبى..

وقال مالك: كنتُ آتي نافعاً نصف النهار وما تظلني الشجرة من الشمس أتحيَّنُ خروجَه، فإذا خرج أَدَعُهُ ساعة كأني لم أره، ثم أتعرض له، فأُسلِّم عليه وأدَعُه، حتى إذا دخل البلاط أقول له: كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبني، ثم أحبس عنه، وكان فيه حدَّة..

وكان مالك يقود نافعاً من منزله إلى المسجد -وكان قد كُفَّ بصره- فيسأله فيحدثه، وكان منزل نافع بناحية البقيع..

مات نافع سنة تسع عشرة ومائة، وقيل: عشرين..

استفاد الإمام مالك من نافع في الفقه والحديث، ومن أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر.

4 ابن شهاب الزهري

الشيخ العظيم الآخر الذي تلقى عنه الإمام مالك هو: أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله، المشهور بابن شهاب الزهري..

وهو قرشي من بني زهرة أجداد النبي ﷺ لأمه، فَلَهُ بالنبي ﷺ نسب وقرابة..

ويُعَدّ من صغار التابعين لأنه تلقى من بعض أصحاب النبي ﷺ، فروى عن عبد الله بن جعفر، وربيعة بن عبّاد، والمِسْوَر بن مخرمة، وغيرهم من الصحابة..

ولكن أكثر أخذه عن التابعين، وقد عاصر بعض التابعين، ولكنه كان مقدَّماً عليهم..

مكانة الزهري

ولما سمع عمرو بن دينار وهو من التابعين الكبار الناسَ يتحدثون بأخبار كثيرة يروونها عن الزهري قال: أي شيء عند الزهري؟ لقيتُ ابن عباس وابن عمر ولم يلقهما..

فقدم الزهري مكة، فقال عمرو: احملوني إليه، وكان في آخر حياته مقعداً، فحُمِل إليه، ولم يَعد إلى أصحابه إلا ليلاً، فقالوا: كيف رأيته؟

قال: والله ما رأيت مثل هذا القرشي.

انظروا إلى إنصاف العلماء واحترامهم لبعضهم، ولو كانوا أصغر منهم سناً ومنزلة..

وفضلُ ابن شهاب ومكانه في الإسلام عظيم.. وكانت له منزلة كبيرة عند الخلفاء الأمويين، حتى لقد ولّاه القضاء يزيد بن عبد الملك.

شهادة العلماء للزهري

وكان الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز يقدره حق قدره، حتى قال فيه: عليكم بابن شهاب، فإنكم لا تجدون أعلم بالسُنَّة الماضية منه.

وكذلك يقول فيه الليث بن سعد إمام مصر، وشيخ علماء مصر قبل الشافعي: ما رأيتُ أعلم منه.

وعن مكحول: ما بقي على ظهرها أعلم بسنَة ماضية من الزهري..

ابن شهاب الزهري شيخ الإمام مالك، أعلم الناس بالسنَّة في زمانه، روى عن الصحابة والتابعين.

ثقافة الزهري

وكان الزهري كثير القراءة، دائم الاطّلاع، له مكتبة خاصة في البيت يكثر من النظر فيها، ومن الطرائف أن زوجته ضاقت ذرعاً بهذه الكتب، فتقول: والله لَهذه الكتب أشدُّ عليَّ من ثلاث ضرائر.

وكان ذا ثقافة واسعة، إذا تحدَّث في الأنساب قيل: لا يعرف غير الأنساب، وإن تحدث عن القرآن والسنة قيل كذلك، وهكذا بالنسبة لعدد من العلوم.

أخذ مالك رحمه الله عن ابن شهاب علم الحديث، حتى صار أعلمَ الرواة عنه، وفي الموطأ أحاديث كثيرة رويت عن طريق ابن شهاب..

وكان مالك قد التقى بالزهري أول مرة مع أستاذه ربيعة الرأي، يقول مالك: قدم علينا الزهري، فأتيناه ومعنا ربيعة، فحدثنا نيفاً وأربعين حديثاً، ثم أتيناه في الغد، فقال: انظُروا كتاباً حتى أحدثكم، أرأيتم ما حدثتكم به أمس؟

قال له ربيعة: ههنا من يرد عليك ما حدثت به أمس..

قال: ومَنْ هو؟

قال: ابن أبي عامر..

قال: هات..

فحدثْتُه بأربعين حديثاً منها..

فقال الزهري: ما كنتُ أرى أنه بقي أحد يحفظ هذا غيري.





رواية مالك عن الزهري

وكان مالك حريصاً على الانتفاع من رواية الزهري، فلازمه، حتى أنه كان يذهب إليه في أيام استجمامه، ليروي عنه منفرداً، لأن الناس كانوا يزدحمون في الاستماع إليه، ومالك المتثبت التقي الأمين كان يريد التثبت دائماً مما يرويه، ولقد كان ابن شهاب معجباً بحفظه وإتقانه، حتى لقد سمّاه وعاء العلم..

قال مالك: وكنا نزدحم على درج ابن شهاب حتى يسقط بعضنا على بعض..

وقال أيضاً: كنا نأتي ابن شهاب في داره في بني الدَّليل، وكانت له عَتَبةٌ حسنة كنا نجلس عليها، نتدافع إذا دخلنا عليه..

وقال أيضاً: كنا نجلس إلى الزهري، وإلى محمد بن المنكدر، فيقول الزهري: قال ابن عمر كذا وكذا، فإذا كان بعد ذلك جلسنا إليه، وقلنا له: الذي ذكرتَ عن ابن عمر مَنْ حدَّثك به؟

فيقول: ابنه سالم..

وروى مالك عن شيخه الزهري شيئاً من الحكمة، فقد أنشد مالك بن أنس قال: أنشدني الزهري لنفسه:

لا تأمَنَنَّ امرءاً أسكنتَ مهجتَه

غَيْظاً، وإن قلتَ إنّ الغيظ يَنْدملُ



والحق أن الزهري كان أعظم شيوخ مالك أثراً فيه..

فتاوى الزهري

تلقى الإمام مالك عن شيخ عظيم هذه ثقافته، وقد كان مع علمه بالحديث فقيه أَثَر، فقد أخذ فقه الفقهاء السبعة من التابعين، وقد وصفه مالك بأنه بحر العلم، وقال فيه أيضاً: ما له في الناس نظير..

وذكر ابن القيِّم في كتابه أعلام الموقعين أن للزهري من الفتاوى عدداً كبيراً، جمعها ابن نوح العالِم الكبير في ثلاثة أسفار (مجلدات) ضخمة مرتبة على أبواب الفقه..

جلس مالك إلى الزهري وتلقى منه العلم الكثير، ولم يكن له في الناس نظير..

توفي الزهري سنة 124 للهجرة على حدود الحجاز وفلسطين.. رحمه الله تعالى..

كان الزهري ذا ثقافة واسعة، ومن أعظم شيوخ مالك أثراً فيه، بالإضافة إلى مكانته العظيمة بين العلماء..

5 جعفر الصادق

هو الإمام العظيم ومن أكبر أئمة أهل البيت عليهم السلام، التقى به الإمام مالك، وتلقى منه العلم وعايشه عدة سنين إلى أن توفي عليه السلام سنة 148هـ، وكان الإمام جعفر حكيماً، يتناقل الناس أقواله، ومنها قوله: إن الله تعالى أراد بنا شيئاً، وأراد منا شيئاً، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بالذي أراده بنا عما أراده منا؟!

وكان له من الدعاء الشيء الجميل الذي يدل على الشفافية ورقة القلب، يقول: اللهم لك الحمد إن أطعتك، ولك الحجة إن عصيتُك، لا صنيع لي ولا لغيري في إحسان، ولا حجة لي ولا لغيري في إساءة.

تلقى الإمام مالك عن الإمام جعفر العلم والحديث والأدب والزهد والعبادة والشفافية الإيمانية.



شفافية إيمانية

تلقى الإمام مالك من الإمام جعفر ليس فقط العلم، بل تلقى منه الشفافية الإيمانية، وتلقى منه الأدب..

يقول مالك: كنتُ آتي جعفر بن محمد، وكان كثير المزاح والتبسم، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اخضرَّ واصفرّ، ولقد اختلفت إليه (أي عايشته) زماناً فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صائماً، وإما يقرأ القرآن.

هكذا كان الإمام جعفر شديد التعبد لله رب العالمين، وهكذا كان الإمام مالك.

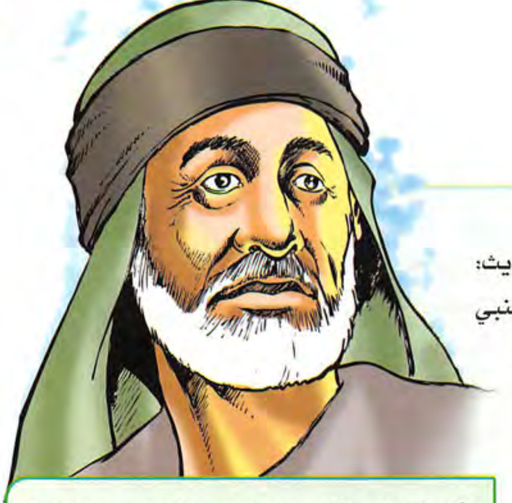
و ما رأيتُه قطّ يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا على الطهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء العبَّاد الزهَّاد الذين يخشون الله..

وما أتيته قط إلا ويخرج الوسادة من تحته ويجعلها تحتي.. (مما يدل على أدبه وتواضعه لمن هو أصغر منه).

وقد تأثر الإمام مالك بالإمام جعفر، وروى عنه تسعة أحاديث في الموطأ.

هكذا كان الإمام جعفر شديد التعبد لله رب العالمين، وهكذا كان الإمام مالك متأثراً بتربيته الأصيلة، وبالذات من الإمام جعفر الصادق وتعلم منه التأدب مع الحديث الشريف فلا يرويه إلا على طهارة.





6 محمد بن المنكدر

ومن الشيوخ الذين تلقى عنهم الإمام مالك الفقه وروى عنهم الحديث: محمد بن المنكدر التيمي القرشي، وكان معروفاً بالزهد، وبحبِّه حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا حدَّث عن النبي صلى الله عليه وسلم بكى..

وكان إذا سئل: أي الأعمال أفضل؟

أجاب: إدخال السرور إلى المؤمن..

وإذا سُئل: أي الدنيا أحبُّ إليك؟

قال: الإفضال على الإخوان (أي إكرام الأصدقاء وخاصة المحتاجين).

وقد تأثَّر الإمام مالك بمحمد بن المنكدر، وبزهده وبنفسيته الشفافة.

يقول الإمام مالك عن محمد بن المنكدر: كنتُ إذا وجدت في قلبي قسوة آتي ابن المنكدر فأنظر إليه، فأتعظ أياماً.

تأثر الإمام مالك بشيخه ابن المنكدر، وبشفافية نفسه، وبزهده، بالإضافة إلى علمه وأدبه.

7 أبو الزناد

هو عبد الله بن ذكوان، آخر أساتذة الإمام مالك، وهو من غير العرب من الموالي، أصله من همدان، وكان يكنى أبا عبد الرحمن، وقد غلب عليه لقب آخر هو أبو الزناد..

وكان ذا منزلة دينية رفيعة، حتى ولاه الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز خراج العراق مع عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب..

وقد مات أبو الزناد فجأة في مغتسله في شهر رمضان سنة 130 للهجرة، وهو ابن ست وستين سنة.

وهو أحد الذين رووا عن الفقهاء السبعة، وتلقى عليهم..

وقد روى عنه الإمام مالك، ولكن لم يكن ذكر الإمام مالك لابن ذكوان كثيراً كذكر ابن شهاب، وابن هرمز، اللذين كان لهما أثر واضح في فكره ونفسه..

ولم يكن ابن ذكوان من المشهورين بالرأي، ويظهر أن شهرته كانت برواية الأحاديث، وفقهه فقه رواية وأثر، لا فقه دراية ورأي، ولذلك نستطيع أن نقول: إن مالكاً ما أخذ عنه إلا الحديث والفقه المأثور عن الصحابة والتابعين.

ولأبي الزناد ابن اسمه عبد الرحمن كان في سن مالك تقريباً (إذ توفي سنة 174 للهجرة)؛ قد جمع رأي الفقهاء السبعة في كتاب سماه (كتاب رأي الفقهاء السبعة).



أبو الزناد عبد الله بن ذكوان آخر أساتذة الإمام مالك، روى عن الفقهاء السبعة، وأخذ عنه مالك الحديث والفقه المأثور، توفي سنة 130 للهجرة وعمره 66 سنة.

شيوخ مالك

هؤلاء هم شيوخ الإمام مالك رحمهم الله، قد درس عليهم اختلاف الناس، وفقه الرأي، وتلقى عليهم أحاديث رسول الله ﷺ، فتخرج عليهم في الفقه والحديث، فكان المحدِّث الضابط، والفقيه الثاقب النظر، المستنير في بصيرته، لا يندفع إلى مغالاة في الرأي، ولا ينقبض حول النصوص لا يتعداها.

هكذا كان الأئمة الأعلام، هكذا كان أساتذة الإمام مالك، بين العلم والفقه والحديث، والعبادة والزهد، والشفافية الإيمانية.

هكذا تربى الإمام مالك.

جعلنا الله وإياكم ممن يقتدون بالأمة الأعلام في أدبهم وفهمهم، بالإضافة إلى اقتدائنا بعلمهم وفقههم..




الفقهاء السبعة

ذكر العلماء فقهاء سبعة، وقرروا أنهم هم العلماء الذين اشتهر ذكرهم، وحملوا علم كبار العلماء والصحابة، من أمثال عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، وأبي هريرة، وابن مسعود، رضي الله عنهم..

وقد نظمهم القائل فقال:

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر … روايتهم ليست عن العلم خارجة

فقل : هم عبيد الله عروة قاسم … سعيد أبو بكر سليمان خارجة

والحق أن كون الذين نقلوا فقه الصحابة سبعة من التابعين بالحصر لا يمكن أن يكون صحيحاً من كل الوجوه، فالناقلون كثيرون، والممتازون منهم أكثر من سبعة، وكل كان يختار سبعة يراهم أكثر تأثيراً من غيرهم في نظره، وقد اتفق على عدد منهم، مثل سعيد بن المسيب، وعروة، والقاسم..

وممن تلقى العلم والفقه من هؤلاء السبعة : ابن شهاب، ونافع مولى ابن عمر، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان، وربيعة الرأي..

ويحق علينا أن نذكر بياناً عن الفقهاء السبعة بكلمات موجزة، ما دام العلم المدني مديناً لهم، وما دام مالك قد ذكرهم على أنهم الفقهاء وحملة العلم، وغيرهم لهم تبع.

وأولهم من حيث المكانة والمنزلة في العلم:





سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى

ولد في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان قرشياً مخزومياً، ومات سنة 93 للهجرة، وبذلك حضر عصر عثمان رضي الله عنه، وعلي كرّم الله وجهه، ومعاوية رضي الله عنه ويزيد ، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان.

ولقد انصرف إلى الفقه انصرافاً تاماً، ولم يُعْنَ إلا به، وقد جاء في تفسير الطبري: «عن يزيد بن أبي يزيد: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام، وكان أعلم الناس، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن، قال: لا تسألني عن آية من القرآن، وسَلْ مَنْ يزعم أنه لا يخفى عليه شيء منه، يعني عكرمة»..

التقى ابن المسيب بطائفة كبيرة من الصحابة، وأخذ عنهم، وتلقى عليهم..

وأخص ما كان يطلبه قضايا رسول الله ﷺ، وقضايا أبي بكر، وعمر، وعثمان، وأخذ شطر علمه عن زيد بن ثابت، وجلّ روايته عن أبي هريرة أبي زوجته، إذ كان سعيد زوج ابنته، وأخذ فقه عمر ﷺ من فم تلاميذ عمر مباشرة، حتى عُدَّ سعيد بن المسيب راوية فقه عمر رضي الله عنه، وقد قال فيه ابن القيم:«راوية عمر، وحامل علمه».

اتجه سعيد بن المسيب بكليته إلى الفقه، فكانت عنايته في الحديث بمعرفة أقضية النبي ﷺ، وعنايته من الآثار بأقضية الخلفاء، وإذا كانت هذه العناية بأقضية الخلفاء وفتاويهم، فلا بد أ، يبرز في روايته علم فقيه الصحابة عمر بن الخطاب ﷺ، لأن عصره هو العصر الإسلامي الأول للفقه والقضاء والإفتاء، لاتساع رقعة الدولة، وحدوث الحوادث التي اقتضت ذلك الفقه وهذه الأقضية، وتلك الفتاوى..

وإذا كان ابن المسيب يقتفي آثار عمر في القضاء والفقه، فلا بد أنه كان للرأي قيمة كبيرة عنده، لأن رأي عمر رضي الله عنه فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة كان كثيراً، فلا بد أن ابن المسيب كان يجتهد فيما يعترض عليه من أسئلة في وقائع لم يجد فيها نصاً من كتاب أو سنة أو قضاء صحابي أو فتواه، وأنه يفتي برأيه حيث لا خروج عن الجادة ولا ضلال، ولذلك أُثِر عنه –رحمه الله- أنه كان يفتي حيث يتهيب غيره الفتيا.

ولقد جاء في أعلام الموقعين: «كان سعيد بن المسيب واسع الفتيا.. وذكر ابن وهب عن محمد بن سليمان المرادي، عن أبي إسحاق، قال: كنت أرى الرجل في ذلك الزمان، وإنه ليدخل يسأل عن الشيء، فيدفعه الناس من مجلس إلى مجلس حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب، كراهية للفتيا، وكانوا يدعونه سعيد بن المسيب الجريء»..

وإذا كان كذلك فإمام فقهاء المدينة في عصر التابعين، لم يكن يمتنع عن الرأي إن وجدت الحاجة إليه، وكان رأيه قائماً على أساس محكم الدعائم من فقه القرآن والحديث، وأقضية النبي ﷺ والخلفاء الراشدين..

سعيد بن المسيب من الفقهاء السبعة، أخذ عن عدد كبير من الصحابة، وجلُّ روايته عن أبي هريرة أبي زوجته، وعُدَّ راوية فقه عمر وحامل علمه..
وتخصص ابن المسيب في الفقه وبرز فيه وهو أستاذ أساتذة الإمام مالك



وثاني الفقهاء السبعة الذين كونوا الفقه المدني في عصر التابعين هو:

التابعي عروة بن الزبير رحمه الله

وهو أخو الصحابي عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، وابن أخت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ولد في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتوفي سنة 94 للهجرة.

كان منصرفاً كل الانصراف إلى الدراسات العلمية، فدرس الفقه والحديث، وكان في الحديث كما قال تلميذه ابن شهاب: بحراً لا تكدره الدلاء..

وإذا كان ابن المسيب أفقه التابعين في المدينة، فقد كان ابن الزبير أغزرهم حديثاً، وقد تلقى فقه الدين عن طائفة من الصحابة، وأخصهم خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت مقدَّمة في العلم والفرائض والأحكام..

وكان عروة أعلم الناس بحديث عائشة، حتى لقد قال: «لقد رأيتنا قبل موت عائشة بأربع حجج، وأنا أقول: لو ماتت ما ندمت على حديث عندها إلا وقد وعيته»..

ويظهر أنه كان معنياً بتدوين ما يلقاه من حديث وفقه، روى ابن هشام: أنه كانت له كتب فأحرقها يوم الحرَّة، ولكنه ندم، فكان يقول بعد ذلك: لأن تكون عندي أحبُّ إليّ من أن يكون لي مثل أهلي ومالي.

ونرى من هذا أنه كان محدِّثاً، وفقيهاً، ينحو نحو الأثر، ولم تكن له جرأة ابن المسيب على الإفتاء.

عروة بن الزبير ثاني الفقهاء السبعة، كان فقيهاً ومحدِّثاً، تلقى فقه الدين عن طائفة من الصحابة وخاصة عائشة أم المؤمنين، وكان أغزر التابعين حديثاً وهو أستاذ كذلك لأساتذة الإمام مالك.





وثالث الفقهاء السبعة:

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث رحمه الله

توفي سنة 94 للهجرة، وكان متنسكاً عابداً زاهداً، حتى كان يسمى راهب قريش، روى عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، وكان فقيهاً محدثاً، ولم يكن جريئاً في الإفتاء، كما هو الشأن عند ابن المسيب، ولقد كان يغلب على فقهه الأثر.

أبو بكر بن عبد الرحمن من الفقهاء السبعة، عابد متنسك زاهد محدِّث فقيه، يغلب على فقهه الأثر.

ورابع الفقهاء السبعة:

القاسم بن محمد بن أبي بكر رحمه الله



ابن أخي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقد توفي سنة 108 للهجرة، تلقى الفقه والحديث عن عمته؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهم..

كان محدِّثاً ناقداً للحديث الضعيف، وكان فقيهاً، فاجتمع له الفقه والحديث، ولقد قال فيه تلميذه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان: ما رأيت فقيهاً أعلم من القاسم، وما رأيت أحداً أعلم بالسنة منه..

وهو مع تدينه كانت فيه كياسة وهمَّة واعتزام للأمور؛ لذلك روى مالك أن عمر بن عبد العزيز قال: لو كان لي من الأمر شيء لاستخلفتُ أُعيمش ابن تيم يعني القاسم بن محمد.

ومن الفقهاء السبعة: القاسم بن محمد، عمته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، اجتمع له الفقه والحديث، وكانت فيه همة وكياسة واعتزام للأمور.



وخامس الفقهاء السبعة:

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود رحمه الله

روى عن ابن عباس، وعائشة، وأبي هريرة رضي الله عنهم، وكان أستاذاً لعمر بن عبد العزيز، أثَّر في عقله ونفسه تأثيراً كبيراً، وكان مع علمه بالفقه والحديث، وحسن سمعته، يقرض الشعر، مات سنة 98 للهجرة.

قال الزهري: كنتُ أطلب العلم من ثلاثة: «سعيد بن المسيب وكان أفقه الناس، وعروة بن الزبير وكان بحراً لا تدركه الدلاء، وكنت لا تشاء أن تجد عند عبيد الله طريقة من العلم لا تجدها عند غيره إلا وجدت».

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود خامس الفقهاء السبعة، كان محدِّثاً فقيهاً، حَسَن السَّمْت، يقرض الشعر.

سادس الفقهاء السبعة:

سليمان بن يسار رحمه الله



وكان مولى لأم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها، (ويُقال أنها كاتبته، ففرضت عليه مقداراً من المال يكون حرّاً إذا أداه، وقد أداه فكان حراً)..

وقد روى عن زيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وأبي هريرة، وأمهات المؤمنين ميمونة وعائشة وأم سلمة، رضي الله عنهم، وكان منه فهم دقيق، نمّى علمه وفقهه بدراسة شؤون الناس، وتعرف أحوالهم، فقد كان مشرفاً على سوق المدينة عندما كان عمر بن عبد العزيز والياً عليها، توفي سنة 100 للهجرة.

سادس الفقهاء السبعة سليمان بن يسار، مولى أم المؤمنين ميمونة، روى عن الصحابة وأمهات المؤمنين، وكان منه فهم دقيق.







وسابع الفقهاء السبعة:

خارجة بن زيد بن ثابت رحمه الله

توفي سنة 100 للهجرة، كان فقيه رأي كأبيه زيد، ورث علمه فغلب عليه ما اشتهر به أبوه وهو الرأي والعلم بالفرائض، لذلك كان خارجة قليل الحديث، كثير الإفتاء بالرأي، وكان على علم بالفرائض، يقسم للناس مواريثهم على كتاب الله تعالى..

قال مصعب بن عبد الله: وكان خارجة وطلحة بن عبد الرحمن بن عوف في زمنهما يستفتيان، وينتهي الناس إلى قولهما، ويقسمان المواريث بين أهلها من الدور والنخل والأموال، ويكتبان الوثائق للناس..

وكان خارجة مع علمه وفقهه وفتياه، واتصاله بالناس في أول أمره، من عبَّاد المدينة ،وقد دفعته العبادة في آخر أمره إلى العزلة والانفراد، ولذلك لم ينتشر من علمه وفقهه شيء كثير.

خارجة بن زيد بن ثابت، كان فقيه رأي كأبيه، وكان على علم بالفرائض، ومن العُبَّاد.

الفقه المدني

هؤلاء هم الفقهاء السبعة، كانوا ومَنْ هم في طبقتهم، وفي مثل درجتهم العلمية، المدرسةَ التي كوَّنت الفقه المدني، وجعلت له كياناً متميزا، أساسه الإفتاء بما أفتى به السابقون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسير على منهاجه، والمشاكلة بين أحكام الوقائع التي لم يجدوا فيها فتوى السابقين، فهم يجتهدون بآرائهم أحياناً، أو في كثير من الأحيان، ولكن في الدائرة التي سار فيها فقه الصحابة، ولا يفرعون في المسائل تفريع أهل العراق.

وقد ذكرنا أنه تلقى فقه هؤلاء: ابن شهاب ، وربيعة، ونافع، وأبو الزناد، ويحيى بن سعيد، وسائر طبقتهم، وتلقى مالك من هذه الطبقة الأخيرة.

فتأمل في مستوى الأساتذة، تعرف درجة التلميذ..

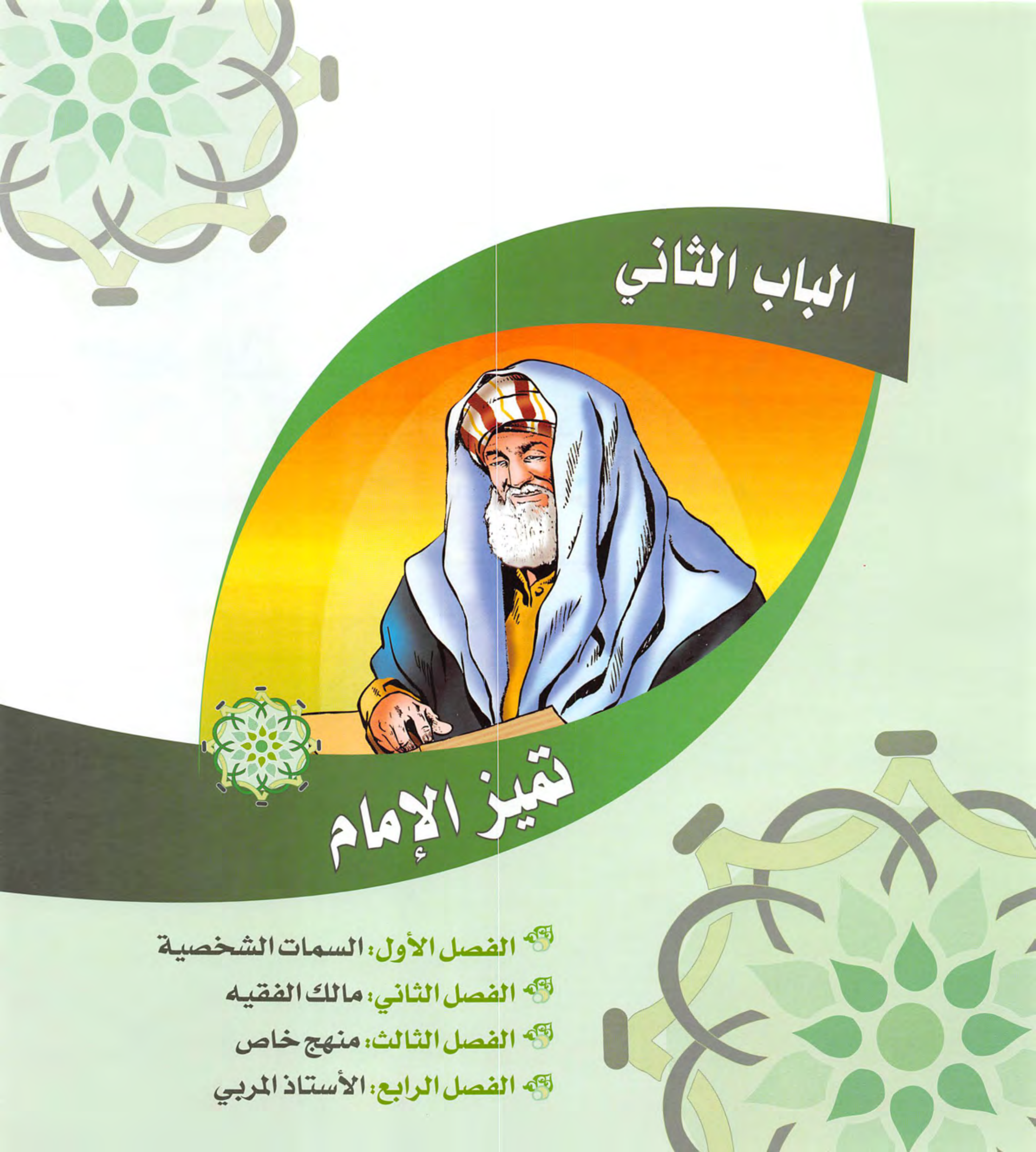
مدرسة متنوعة

ويلاحظ أن شيوخ مالك كان فيهم من يغلب عليه الرأي والفقه، وفيهم من يغلب عليه الحديث..

فابن شهاب يغلب عليه فقه الحديث، وربيعة الرأي ويحيى ابن سعيد يغلب عليهما الرأي مع شيئ من الحديث.

فليس بغريب إذن إذا وجدنا أن للرأي مكاناً كبيراً في فقه مالك رحمه الله..

قال فيه الدهلوي: «وكان مالك من أثبتهم في حديث المدنيين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأوثقهم إسناداً، وأعلمهم بفتاوى عمر، وأقاويل عبد الله بن عمر، وعائشة، وأصحابهم من الفقهاء السبعة، وبه وبأمثاله قام علم الرواية والفتوى، فلما وسِّد إليه الأمر حدَّث وأفتى، وأفاد وأجاد».



الباب الثاني

تميز الإمام

الفصل الأول

- مالك الزاهد
- مالك كأنك تراه
- صفاته العلمية
- الشاب الأنيق
- جنة الدنيا

الباب الثاني



الفصل الأول

السمات الشخصية



مالك الزاهد

فلسفة الزهد

قال الله تعالى: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّه الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِه وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (الأعراف: من الآية 32)..

وقال تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا)(الأعراف: من الآية 31)..

وقال ﷺ: "كلوا واشربوا، والبسوا وتصدقوا، من غير مخيلة ولا سَرَف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده".. (أحمد، وأخرج نحوه النسائي، وابن ماجه)، وهذا المبدأ يؤيده كل ذي عقل أو فكر، وكل حكيم أو مصلح، ويتفق مع الواقع والفطرة، ويراعي مشاعر الناس، ويحقق المصالح الكاملة في الحياة والمجتمع، ويدفع عن صاحبه كل مضرة أو مفسدة..

وقال تعالى أيضاً: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى)(النساء: من الآية 77)..

وقال تعالى: (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّه بَاقٍ) (النحل: من الآية 96)..

وقال تعالى: (وَلا تَمُدَّنَ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِه أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيه) (طه: من الآية 131)..

وقال النبي ﷺ: "مَنْ أصبح وهمُّه الدنيا، شتت الله عليه أمره، وفرَّق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتب له، ومَنْ أصبح وهمّه الآخرة، جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة"،ومن خلال هذه الآيات والأحاديث اختلف الأئمة في فهم وتطبيق الزهد، فمنهم من يميل إلى الملابس الزهيدة الثمن، بل الظاهرة الفقر والرقع أحياناً، وهذا هو الغالب، ونرى الإمام مالك يلبس ملابس فخمة جداً..

ونجد بعضهم لا يجد ما يأكل، والإمام مالك يأكل اللحم كل يوم، ويحب الفاكهة والموز، والإمام الثوري ربما حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج (نوع من الحلوى)..

ونرى من ينام على حصير، ومنهم من ينام على أسرة وثيرة (ناعمة).

هذا الاختلاف بين الأئمة يدل على سماحة هذا الدين، وعظمة هذا الدين، فكل إنسان له طبيعة، وما دامت تحدنا حدود الحلال والحرام، تقيدنا بشريعة رب العالمين، تبقى دائرة الحلال واسعة..

فمنهم من يتشدد على نفسه، ومنهم من يخفف، لكن كلهم يجتمعون على الحرص على العلم، وعلى تقوى الله رب العالمين..



خلاصة أمر الزهد

سُئل الإمام أحمد: أيكون المرء زاهداً وعنده ألف دينار (من الذهب)؟

قال: نعم..

قالوا: كيف؟

قال: بأن تكون الدنيا في يده وليست في قلبه..

قالوا: وما علامة ذلك؟

قال: إذا زادت لم يفرح، وإذا نقصت لم يحزن!

فعلامة الزهد الحقيقي ثلاث:

- أن لا يفرح بموجود، ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) (الحديد: من الآية 23)..
- أن يستوي عنده ذامه ومادحه..
- أن يكون أنسه بالله تعالى، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة..

هكذا فهم العلماء الزهد، كلٌ حسب طبيعته، وحسب تصوره، فمنهم من رآه التقليل من الدنيا في المطعم والملبس والمسكن، ومن رآه سلامة القلب والدين، ولا ضير في حُسْن المطعم والملبس والسكن..

ولنا في هؤلاء الأئمة قدوات مختلفة، نقتدي بمن يتناسب مع طبيعتنا وحياتنا، لكن بشرط سلامة القلب من الرياء والشهرة، ومن التفاخر والتعجب، وعدم التعلق بهذا المتاع الفاني الزائل، فتكون الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا، وأن لا يجرنا التنعم إلى الغفلة عن الآخرة، ونسيان يوم الحساب، فنتذكر أننا مسؤولون (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) (التكاثر:8)..

فلا نسرف ولا نبذر (إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)(الإسراء: من الآية 27)..

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا) (الأعراف: من الآية31)..

وأن يكون كسبنا حلالاً، فأيما جسم نبت من سحت (حرام) فالنار أولى به، وقال تعالى: (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً) (المؤمنون: من الآية 51)، أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل..

فإذا ما حافظنا على هذه الأمور فلا ضير إن كان لباسنا جميلاً، وطعامنا حسناً، ومسكننا أنيقاً..

وكما يقول الإمام مالك: التواضع في التقى والدين لا في اللباس..

اختلف الأئمة في فهم معنى الزهد، فمنهم من رآه بترك الدنيا وزينتها، ومنهم من رآه بسلامة القلب وعدم التعلق بالدنيا، مع التنعم والأخذ بالطيبات منها.. ونحن لنا أن نقتدي بما يتناسب مع طبيعتنا وحياتنا..



زهد الإمام مالك

لا شك أن عيشة الإمام مالك عيشة في الدنيا راضية، ولكن قد يقول قائل: إنها لا تتفق مع ما قد عرف عن رجال الدين من الانصراف عن نعيم الحياة، وزخرف الدنيا، وعدم العناية ببهجتها، وإن ذلك قد ينزع بذلك الرجل المتدين عما ينبغي لمثله من عزوف عن زينة الحياة وتلك المظاهر المادية، وإن هذه حياة أقرب ما تكون إلى حياة الأمراء، لا حياة العلماء، وحياة السلاطين لا حياة رجال الدين، الذين جعلوا كل غايتهم المعنى لا المادة، والروح لا الجسم!

هذا كلام يبدو بادي الرأي صحيحاً، ولكن النظرة الفاحصة لحياة مالك رحمه الله تعالى وما اكتنفه من أمور، وما أحاط به من شؤون، يجعلنا نستبين أنه ما قصد بهذه المعيشة زخرفها وزينتها وبهجتها، بل قصدَ بها علوَ الروح، وسموَ النفس، والبعد عن سفاسف الأمور، والاتجاه إلى معاليها.

ذلك لأن الجسم الذي لا يستوفي كل عناصر التغذية، ويستمد كل أسباب الحياة والنمو من غير إفراط ولا تفريط، لا تكون الأعصاب فيه سليمة، ولا كل عناصر التفكير قويمة، بل يكون مضطرب النفس، مضطرب الفكر، وكثيراً ما يكون سوء التفكير من سوء التغذية، ونقص الإدراك من نقص الطعام، وإذا كانت المعدة إذا اكتظت أضرَّت، فكذلك إذا خلت أخلَّت ببيان الجسم والعقل معاً.

فما كان مالك يُعنى بمأكله لشهوة الطعام فقط، وإن كان ذلك غير إثم، بل كان يُعنى بطعامه لتكون له سلامة التفكير، والجَلَد على طلب العلم، وقوة الاحتمال، والظهور أمام الناس غير ضعيف، ولا متماوت، كما يصنع الزهّاد الذين لم يفقهوا لبَّ الإسلام..

ولقد كان أزهد الزهاد الرسول الأعظم محمد ﷺ يتخيَّر أطيب الطعام من غير حرص على طلبه، ولا شهوة في ابتغائه..

وعناية مالك بملبسه ومسكنه أيضاً كانت لأجل الروح، لا لأجل المادة، ولذلك كان يحض أهل العلم على العناية بملابسهم، ذلك لأن العناية بالملابس توجد في النفس صفاء وقراراً واطمئناناً، وهذه أمور من شأنها أن تجعل التفكير يسير في طريق ليس فيه عوج ولا اضطراب..

والعناية بالملبس والمسكن من شأنهما تربية العزة في النفس، وإبعاد الذلة والهوان أمام الناس، فالملبس الحسن، والمسكن الحس يجعل النفس لا تشعر بهوان ولا صَغار، ولقد كان الإمام مالك يلاحظ ذلك كل الملاحظة عن بينة وبصر بالأمور..





مالك كأنك تراه

كان مالك من أحسن الناس وجهاً، قال أحد تلاميذه في وصفه: «كان طويلاً، جسيماً، عظيم الهامة، أشقر الشعر في صفرة، ولما كبر صار أبيض الرأس واللحية، شديد البياض، أعين(واسع العينين)، حسن الصورة، أشم الأنف، عظيم اللحية تبلغ صدره؛ ذات سعة وطول، وكان يأخذ من أطراف شاربه ولا يحلقه، ولا يحفيه، ويرى حلقه من المُثلة (تشويه خلق الله)، ويترك له سبلتين طويلتين (أطراف الشوارب النازلة إلى الذقن) ويحتج بفتل عمر لشاربه إذا أهمه أمر».

وكان شديد الأناقة والعناية بملبسه، حيث أعطاه الله الوسامة والجمال، مع العقل الراجح والصفات العظيمة، وإذا اجتمعت صفات العلم والعقل الراجح والأدب من ناحية، مع الشكل الجميل والمظهر الجميل منم ناحية أخرى كان أدعى للتأثير في نفوس الناس، وأدعى للاحترام، وأحرى بالإجلال.

وهب الله الإمام مالكاً الوسامة والجمال، بالإضافة إلى العلم والعقل الراجح، وزينها بالوقار والأناقة.

صفاته العلمية

بالإضافة إلى صفاته الخَلقية والخُلقية التي تحدثنا عنها، فقد آتاه الله من المواهب والصفات ما جعله محدِّثاً وفقيهاً يأخذ سمته في الاتجاه المستقيم، والسير في ضوء الكتاب والسنة.

لقد آتاه الله حافظة واعية، وحرصاً شديداً على الحفظ، وصيانة ما يحفظ من النسيان، ولعلّ الحفظ وشدة الوعي على هذا النحو كان ينميه اعتماد الناس على ذاكرتهم في ذلك الزمان، فما كان العلم يؤخذ من الكتب، بل كان يُتلقى من أفواه الرجال، وكانت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مدونة، بل كانت في القلوب.





الذاكرة القوية

ولا شك أن الذاكرة القوية جعلت من مالك وعاء علم كما ذكر ابن شهاب الزهري، ولقد كان هو يعتمد على الذاكرة ثم ينتقل بعد الدرس إلى كتابة ما حفظ، حتى أنه ليستظل تحت الشجرة يكتب ما حفظ بعد مزاولة مجلس الدرس ليدون ما علق بذهنه..

وإذا كانت الحافظة القوية أساساً للنبوغ في أي علم، لأنها تمد العالم بغذاء لعقله يكون أساساً لفكره، فهي ألزم المواهب للمَحدِّث، وخصوصاً في تلك الأزمنة التي كان فيها الحفظ هو الأساس الأول، والكتاب بالمحل الثاني..

ولذلك كان مالك بهذه الذاكرة القوية، وبغيرها من الصفات المحدِّث الأول في عصره الذي يشار إليه بالأصابع كأنه النجم الثاقب، كما قال تلميذه الشافعي..

ولقد كان مالك يحفظ كل ما يلقى عليه، ويدونه في مذكرات خاصة، ولا يلقي على تلاميذه منه إلا ما يرى فيه مصلحة الناس، وما يستقيم مع مقاييس نقده، في الفحص، وتمييز الصحيح من غير الصحيح، حتى أنهم وجدوا بعد موته صندوقين من الكتب، قد دوَّنها ولم يعلنها..

يقول بعض أبناء تلاميذه: وجدنا في تركة مالك صندوقين فيهما كتب، فجعل أبي يقرؤها ويبكي، ويقول: رحمك الله، أن كنتَ تريد بعلمك وجه الله تعالى، لقد جالسته الدهر الطويل وما سمعته يحدِّث بشيء مما قرأناه..

وقال أحمد بن صالح: نظرتُ في أصول مالك فوجدتها شبيهاً باثني عشر ألف حديث، وهو حديث أهل المدينة في ذلك الوقت، فلم يحدِّث مالك إلا بثلثها أو ربعها..

ولقد قال الشافعي: قيل لمالك: عند ابن عيينة أحاديث ليست عندك..

فقال: إذن أحدث بكل ما سمعت، إني إذن أحمق، إني أريد أن أضلهم إذن، ولقد خرجَتْ مني أحاديث لوددتُ أني ضُربْتُ بكل حديث منها سوطاً، ولم أُحدِّث بها..

فمالك كما يروي تلاميذه، وكما يحكى عنه، كان يحفظ كل ما يسمع، ويدون كل ما يحفظ، ولكنه لا يحدِّث الناس إلا بما يرى المصلحة في إفشائه للناس، ونشره بينهم، وما يستقيم مع مقاييسه في النقد والفحص..

الذاكرة القوية أساس للنبوغ في أي علم، وهي ألزم المواهب للمحدِّث، وقد كان مالك بذاكرته القوية مع غيرها من الصفات العلمية، المحدِّث الأول في عصره..



الصبر والإرادة

الصفة الثانية التي اتصف بها مالك رحمه الله، وكانت أساساً لنبوغه، وهي أساس لكل نبوغ، هي الصبر والجَلَد والمثابرة، ومغالبة المعوقات في الوصول إلى الغية، وقد رأينا كيف كان صبوراً مثابراً في سبيل طلب العلم، حتى أنه يذهب في الهجير إلى بيوت العلماء ينتظر خروجهم، ويتبعهم حتى المسجد، وكان يجلس على باب دار الشيخ في شدة البرد سبيل طلبه للعلم، فهو في طلب العلم المجاهد الذي لا يعوقه حرٌ ولا قرٌ،بل يصل الغاية في لافح الحر، وفي قارس البرد..

وكان يصبر على ما يبدر من حدة الشيوخ، ويتلقاها بصدر رحيب، لأن ما يجنيه من علمهم يذهب بغضاضة الحدة، ولاذع القول، ومرارة اللوم، ولو كان من غير مبرر أحياناً..

وكأنه يرى أن المجاهدة في طلب العلم تثبت العلم وتمكنه في النفس، ككل شيء في هذا الوجود، فما يجيء بيسر وسهولة لا تكون له النفاسة التي توحي للنفس باستحفاظه، وما يجيء بمشقة يكون نفيساً فيستحفظ.

فالصبر والإرادة هما العدة لطلب العلم، ومن لم يتذرع بهما لا يصل إلى غاية منه ولا يدرك شأواً.

بالصبر والإرادة، والجدّ والمثابرة، استطاع مالك أن يصل إلى أعلى درجات العلم..

الإخلاص

الصفة الثالثة التي كانت من أسباب إدراكه للحقائق وفهمه لكتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ هي إخلاصه في طلب العلم، فطَلَبه لذات الله، لا يبغي به علواً ولا استكباراً، ولا مراءً ولا جدالاً.

والإخلاص نورٌ يشرق في النفس فيضيء الفكر، ويسير على هدى مستقيم.

فالاتجاه المستقيم الخالي من شوائب الغرض والهوى والشهوة يكون معه فيض روحاني يدرك به الباحث الأمور من غير التواء، ولا امتراء، إذ أنه لا يعكر صفو الفكر، ويكون كالغيم على الحقائق يمنع العقل من إدراكها، أكثر من انغماس النفس في الشهوات، واستيلاء الهوى على الإدراك، واستغراق الأحاسيس المختلفة للمدارك، فإنها تجعل العقل يعمى عن الحقائق، فتعمه البصيرة ولا تنفذ إلى الأمور..

ولقد كان يدفعه إلى الإخلاص أن العلم الذي يطلبه يتصل بالدين، وهو قربة يتقرب بها إلى الله، وإنما الأعمال بالنيات، فلا يحتسب له من الخير إلا بمقدار إخلاص النية واحتسابها لربه، ولذلك كان يقول: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذونه..

وكان يدفعه إلى الإخلاص أنه كان يعتقد أن نور العلم لا يؤنس إلا من امتلأ قلبه بالتقوى والإخلاص، وقد أُثر عنه أنه قال: «العلم نور لا يأنس إلا بقلب تقي خاشع»..

فالإخلاص وترك ملاذ الدنيا وشهواتها ينور السبيل لطلب العلم في نظره، فيقول: «ما زهد أحد في الدنيا إلا أنطقه الله الحكمة»..

وقال لتلميذه ابن وهب يوصيه: «إن كنتَ تريد بما طلبتَ ما عند الله فقد أصبت ما تنتفع به، وإن كنتَ تريد بما تعلمتَ الدنيا فليس في يدك شيء»..

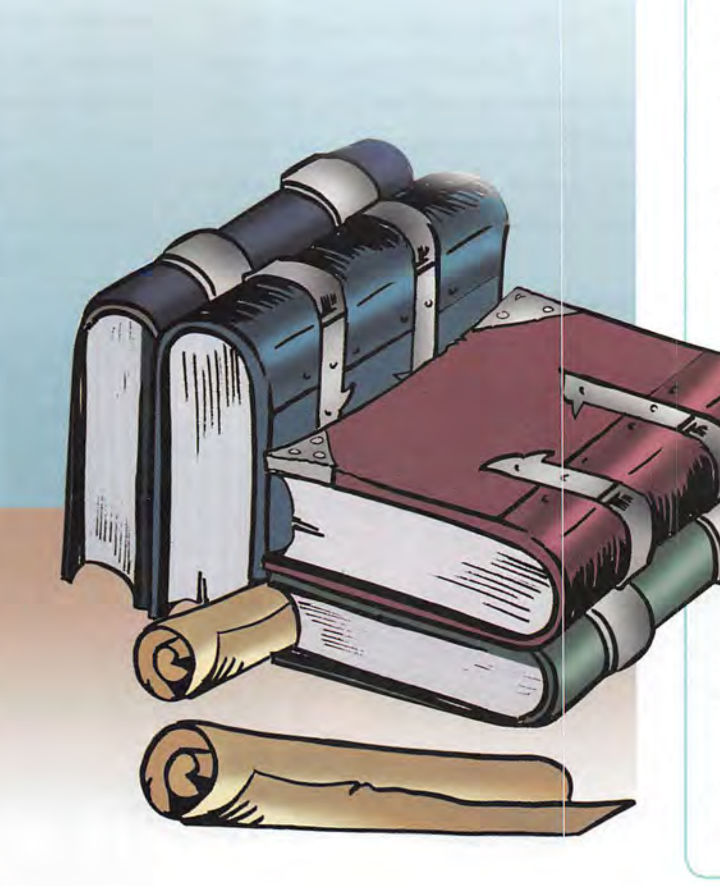
وقد دفعه الإخلاص إلى التزام السنة والأمور الظاهرة الواضحة البينة، ولذلك كان يقول: «خير الأمور ما كان منها ضاحياً بيناً، وإن كنت في أمرين أنت منهما في شك فخذ بالذي هو أوثق» (أي ابتعد عن الأمر إذا كنتَ تشك في أنه حرام، والتزم بالأمر الذي لا شك فيه).

إن نور العلم لا يؤنس إلا مَن امتلأ قلبه بالتقوى والإخلاص، فالإخلاص نورٌ يشرق في النفس، فيضيء الفكر ويسير على هدى مستقيم..

الفراسة

ومن المواهب التي أعطاها الله مالكاً، قوةُ الفراسة والنفاذ إلى بواطن الأمور، وإلى نفوس الأشخاص، يعرف ما تكن نفوسهم من حركات جوارحهم ومن لحن أقوالهم..
ولقد كان الشافعي صاحب فراسة أيضاً، فقيل له فيها، فقال: أخذتها من مالك..
ولكن الفراسة لا تؤخذ ولكن تنمَى، ولعلّ الشافعي أراد بما قال أن مالكاً نمّاها، لا أنه أخذها منه، فإن الفراسة ترجع إلى الإحساس ونفاذ البصيرة والتنبه الشديد، والتتبع لحركات الأعضاء وما يقترن بها من أمور نفسية، وذلك كله يهبه العليم الخبير، ولا يجيء بالمصادفة أو التربية، إنما التربية تنميه وتقويه..
ولقد قال الشافعي في فراسة مالك: لما سرْتُ إلى المدينة ولقيتُ مالكاً، وسمع كلامي، نظر إليَّ ساعة، وكانت له فراسة، ثم قال لي: ما اسمك؟ قلت: محمد..
قال: يا محمد، اتقِ الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن..
ولقد قال أحد تلاميذه: كان في مالك فراسة لا تخطئ..
والفراسة النافذة إلى نفوس الأشخاص التي بها يعرف كنه نفوسهم، من الصفات التي يعلو بها كل من يتصدى لإرشاد طائفة من الناس أو تعليمهم، فإنه يستطيع أن يعرف خفايا نفوسهم، فيعطيها ما يكون غذاء صالحاً لها، وتقوى على هضمه، ويطب لأدوائهم وأسقام قلوبهم..

الفراسة ترجع إلى الإحساس ونفاذ البصيرة والتنبه الشديد.. وتنمو بالتربية.. وقد كان في مالك فراسة لا تخطئ..





المهابة

وهناك في مالك صفة خاصة هي جماع ما وهبه الله من صفات، وهي مهابته في النفوس، وقد تواترت الأخبار واستفاضت بمهابته..

هَابَهُ تلاميذه، حتى أنه ليدخل الرجل إلى مجلسه فيلقي السلام عليهم، فلا يردّ عليه أحدٌ إلا همهمة وإشارة، ويشيرون إليه ألا يتكلم مهابة وإجلالاً، فيستنكر عليهم أن يكونوا كذلك، ولكنه ما أن يملأ العين في مالك وسمته، ويقع تحت تأثير نظراته النافذة، حتى يأخذه ما أخذهم، ويجلس معهم كأن على رأسه الطير..

ويهابُه الحكام، حتى أنهم ليحسون بالصغر في حضرته..

ويهابُه أولاد الخلفاء، حتى أنه ليروى أنه كان في مجلسه مع أبي جعفر المنصور، وإذا صبي يخرج ثم يرجع، فقال: أتدري مَنْ هذا؟

قال: لا..

قال: هذا ابني، وإنما يفزَع من شيبتك.!

فما سرّ هذه الهيبة؟ وما أسبابها؟

إن من الناس مَنْ تتوافر فيه هذه الصفات العقلية والجسمية، ولا يكون له هذه الهيبة..

ولذلك لا نقول في سبب هذه المهابة: إلا أنه قوة الروح، فمن الناس رجال قد آتاهم الله تأثيراً روحياً في غيرهم، يجعل لهم سلطاناً على النفوس، واجتذاباً للقلوب، فيكون لكلامهم مواضع في النفس تبقى بها آثار القول، وكأنما يخطون في النفوس خطوطاً إذ يتكلمون، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى مالكاً هذه الهبة الروحية..

لقد وهب الله الإمامَ مالكاً من قوة الروح وقوة النفوذ، ما جعل هيبته تدخل في نفس كل من يلقاه حتى الخلفاء والحكام..

وكانت حياته كلها تزيد وتنميها، وتظهرها وتجليها: فحياة عقلية متسعة الأُفق، وعلم غزير، وحافظة واعية، وضبط للأمور، ونفاذ بصيرة، وسمت حسَن، وقلة في القول، وعدم إسراف فيه، فإنه لا يذهب المهابة أكثر من لغط القول، وكثرة الكلام التي تدفع إلى السقط، وكل سقطة في القول تذهب بشطر من المهابة وتقرب من الابتذال..

ومع هذا بعد عن الملق والرياء، وتقوى وورع، وإخلاص في العمل، وصدق في القول، ونزاهة وعفة في كل مظاهر الحياة..

ثم مع كل هذا عناية بالمظهر، فقد أعطاه الله بسطة في الجسم، ومظهر جسيماً ممتازاً..

وهكذا كانت صفات مالك الجسمية والعقلية، وأخلاقه وأحواله، من شأنها أن تلقي المهابة منه في نفس من يعرفه ويلقاه، فكان ذلك مما نمى ما وهبه الله من قوة الروح، وقوة النفوذ..





الشاب الأنيق

كان الإمام مالك رحمه الله يُعنى بلباسه أتمَّ عناية، يرى بذلك إعظامَ العلم، ورفعةَ العالِم، ويقول: إنَّ من مروءة العالِم أن يختار الثوبَ الحسَن يرتديه ويظهر به، وأنه لا ينبغي أن تراه العيون إلا بكامل اللباس حتى العمامة الجيدة..

وقد كان يلبس أجود اللباس وأغلاه وأجمله، مما يليق به من الثياب العَدَنية الجياد، والثياب الخراسانية والمصرية المرتفعة..

قال ابن وَهْب: رأيت على مالك رَيْطَةَ (ثوب رقيق) عدنية مصبوغة بمشّق خفيف (المشق: المغرة، وهي طبق أحمر)، وقال لنا: هو صبغٌ أُحبُّه ولكن أهلي أكثروا زعفرانها، فتركْتُه..

وكان أكثرَ ما يُؤْثر لنفسه من الألوان البياضُ الناصع، يقول أبو عاصم: ما رأيتُ أشدَّ بياض ثوب منه!

ويقول ابن وهب أيضاً: ما أدركتُ أحداً يلبس هذه الثياب الرقاق وإنما كانوا يلبسون الضفاف الأربعيَّة..

وقال بشر بن الحارث: دخلتُ على مالك فرأيتُ عليه طيلساناً يساوي خمسمائة، قد وقع جناحاه على عينيه، أشبه شيء بالملوك..

وقال خالد بن خداش: رأيتُ على مالك طَيْلساناً طرازياً، وقلنسوة وثياباً مرويَّة جياداً..

وقال الوليد بن مسلم: كان مالك لا يلبس الخزَّ، ولا يرى لُبسه، ويلبس البياض، ورأيته والأوزاعي يلبسان السِّيجان (الطيلسان الأخضر)، ولا يريان بلبسها بأساً..

وكان مالك إذا اعتمَّ جعل منها تحت ذقنهن ويُسْدِل طرفيها بين كتفيه، وكان إذا أصبح لبس ثيابه وتعمَّم، ولا يراه أحدٌ من أهله ولا أصدقائه إلا كذلك..

وقال ابن أبي أويس: ما رأيتُ في ثوب مالك حِبراً قط..

وقال مالك في لباس الصوف الغليظ وغيره: لا خير في لبسه إلا في سفر كما لبسه النبي ﷺ لأنه شُهْرةٌ (تظاهر بالزهد)، وإنه لقبيح بالرجل أن يُعرَف دينه بلباسه..



وقال رحمه الله: ما أدركتُ فقهاء بلدنا إلا وهم يلبسون الثياب الحسان..

وكان يقول: أُحبُّ للقارئ -أي الفقيه- أن يكون أبيض الثياب..

ويقول: ما أُحبُّ لأحد أنعم اللهُ عليه إلا ويُرى أثر نعمته عليه، وخاصةً أهل العلم ينبغي لهم أن يُظهروا مروآتهم في ثيابهم إجلالاً للعلم..

وكان -رحمه الله- يكره خَلَق الثياب (أي البالي منها) يعيبه ويراه مُثلة..

وقال الضحاك: كان مالك جميل الوجه نقي الثوب، رقيقه، يكره أخلاق الثياب (أي باليها)..

وقد قال عمر رضي الله عنه: إني لأحبُّ أن أنظر إلى القارئ أبيض الثياب..



الخاتم

وكان مالك يحرص على لبس خاتم من فضة مفصص بفص أسود، نقشه سطران فيها: حسبُنا الله ونعم الوكيل، بكتاب جليل..

وكان يحبسه في يساره، وربما خرج وهو في يمينه..

وسأله مطرِّف عن اختياره لما نقش فيه، فقال: سمعتُ الله يقول: (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) (آل عمران: من الآية 173)..

قال مطرِّف: فحوَّلتُ خاتمي، وصيَّرته كذلك..

نقول: إن هذه الملابس الجميلة والغالية لا تضر الإنسان إذا كان متواضعاً في دينه وأخلاقه وعلمه، فما فائدة إنسان يلبس ثياباً عادية ويتكبر على الناس، وخاصة إن كان من أهل العلم يتكبر بعمله..

وكذلك لا تتنافى مع الزهد، لأن الزهد قضية قلب لا مظهر، فالزاهد ليس من ترك الدنيا، وإنما الزاهد الحق من كانت الدنيا في يده، ولم تدخل قلبه..

فانتبه إلى هذه المعاني، فلا تنافي بين الزهد وبين الملبس الجميل والبيت الواسع والمظهر الراقي كما كان حال الإمام مالك..

كان الإمام مالك يلبس الثياب الغالية الجميلة، وكان متواضعاً أشد التواضع في أخلاقه ودينه وعلمه.. والزهد عنده لا يتنافى مع المظهر الجميل، فالزهد قضية قلب لا قضية مظهر..



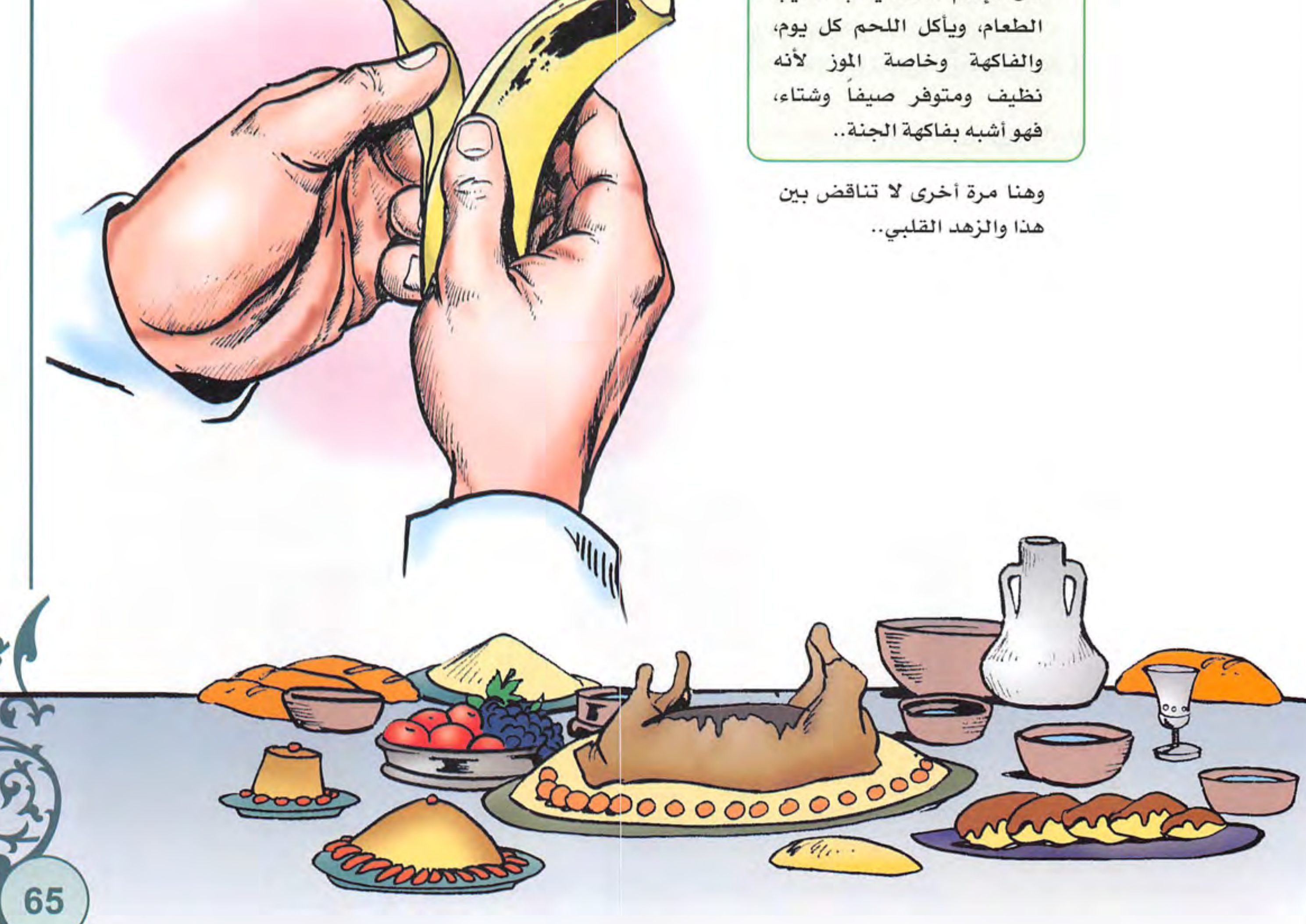
أطايب الطعام

أما طعامه فكان يحب الطعام الجيد، وليس ذلك حباً لإشباع شهوة البطن، وإنما كان من شأنه هذا الأدب وهذه الرفعة في اللباس والطعام، ويرى أنه لا يتنافى مع الزهد، وكان يطعم أهله اللحم كل يوم، ويحب الفواكه والموز بشكل خاص، وسُئل عن ذلك فقال: الموز عندما يُزال قشره لم يمسه ذباب، ولم تمسه يد، ولا تطلبه في شتاء أو صيف إلا وجدته، فليس شيء أشبه بثمر الجنة منه..

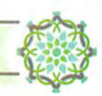
وكان من عادته أن يدعو تلاميذه كل أسبوع في بيته.

كان الإمام مالك يحب أطايب الطعام، ويأكل اللحم كل يوم، والفاكهة وخاصة الموز لأنه نظيف ومتوفر صيفاً وشتاء، فهو أشبه بفاكهة الجنة..

وهنا مرة أخرى لا تناقض بين هذا والزهد القلبي..







جنة الدنيا

كان الإمام مالك -رحمه الله- ينزل أولاً بالعقيق، ثم نزل بالمدينة، وقيل له: لم تنزلُ العقيق، فإنه يشقُّ عليك إلى المسجد؟

فقال: بلغني أن النبي ﷺ كان يحبُّه ويأتيه، وأن بعض الأنصار أراد النُّقلة منه إلى قرب المسجد، فقال له النبي ﷺ: أما تحسبون خطاكم..

ولم يكن لمالك دار يملكها حياته، وإنما كان يسكن داراً بِكرَاء..

قال له المهدي يوماً: أَلَكَ دار؟

قال: لا..

ويقال: إن الدار التي كان يسكنها بالمدينة هي دار عبد الله بن مسعود..

وكان يكتب على باب الدار: ما شاء الله.. فقيل له في ذلك، فقال: قال الله تعالى: (وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ)(الكهف: من الآية39)..

وكما كان الإمام مالك يُعنَى بلباسه جدَّةً ونظافةً وأناقةً، كذلك كان يهتم بأثاث داره ورياشها، على أحسن ما تكون في عصره، فقد بسطها بأنواع المفارش، وبثَّ فيها من النَّمارق المطروحة يمنة ويسرة، وكان يهيئ للقرشيين والأنصار ممن يقصدون إليه للزيارة خير موضع من الفُرش الوثيرة، والوسائد المبثوثة، وكان له مجلس بصدر بيته..

عُني الإمام مالك بمسكنه فكان أنيقاً نظيفاً، مليئاً بالأثاث الناعم الفاخر. والمسكن الجيد لا يتنافى مع الزهد إن حرص الإنسان ألا يتعلق القلب بأمر الدنيا، ولم يسرف بشكل مبالغ فيه..



فلسفة الزهد

نرى في ذلك اختلافاً بين الأئمة، فمنهم من يميل إلى الملابس الزهيدة الثمن، ونرى كالإمام مالك يلبس ملابس فخمة جداً، ونجد بعضهم لا يجد ما يأكل، والإمام مالك يأكل اللحم كل يوم والفاكهة والموز.

هذا الاختلاف بين الأئمة يدل على سماحة هذا الدين، وعظمة هذا الدين، فكل إنسان له طبيعة، فما دامت تحدنا حدود الحلال والحرام، تقيدنا بشريعة رب العالمين، تبقى دائرة هذا الحلال واسعة، فمنهم من يتشدد على نفسه، ومنهم من يخفف، لكن كلهم يجتمعون على الحرص على العلم وعلى تقوى الله رب العالمين.

وكان بعضهم ينتقد الإمام مالكاً في هذا، فكيف وهو إمام جليل عظيم يلبس هذه الملابس الفخمة؟ فيقول: التواضع في التقى والدين لا في اللباس.

تبقى دائرة الحلال واسعة ما دامت تحدنا حدود الحلال والحرام وتقيد بشريعة الله تعالى.



الفصل الثاني

- منهج الإمام في تلقي الحديث
- الشاب المفتي
- وقار المجلس
- التواضع رفعة

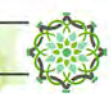
الباب الثاني



الفصل الثاني

مالك الفقيه





منهج الإمام مالك في تلقي الحديث

كانت المدينة المنورة مهد العلم حقاً، فكان بها في عصر مالك من التابعين عدد يجد فيهم مالك الناشئ المعين الذي لا ينضب، والمنهل العذب المستساغ الذي لا كدرة فيه ولا اعتكار، وكان مالك دؤوباً على طلب العلم، قد صرف نفسه إليه في جد ونشاط وصبر، لا تمنعه شدة الحر والجو اللافح من أن يخرج من منزله، ويترقب أوقات خروج العلماء من منازلهم إلى المسجد، ولا تمنعه حدة بعضهم من أن يأخذ عنهم، وقد انقطع بكل وقته إلى العلماء، ويقولون: إن الإمام مالكاً قد روى عن تسعمائة شيخ، تعلّم عنهم العلم والحديث، وكنا قد تحدثنا عن أشهر من روى عنهم الإمام مالك..

فعندما يفتي الإمام مالك نعلم أنه لا يفتي من فراغ ولا عن جهل، وإنما يفتي عن أناس لهم شأنهم وعلمهم، تتلمذوا على الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ويفتي عن علماء ثقات حفاظ متمكنين، أما الزهّاد والعُبّاد إذا لم يكونوا من أهل العلم فلا يعتبرهم يصلحون للفتيا ولا للحديث..

شرطُ مالك في راوي الحديث

وكان مالك يتبع الرواة عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وينتقي الثقات المتفقهين منهم، وقد أوتي فراسة قوية في فهم الرجال وإدراك قوة عقلهم وفقههم..

يقول عن نفسه في ذلك: أدركتُ في هذه البلدة (المدينة المنورة) أقواماً لو استسقوا بهم المطر (أي سأل الناسُ اللهَ أن ينزل المطر بسبب صلاح هؤلاء الأقوام) لسقوا (من شدة عبادتهم وفضلهم وتقواهم) قد سمعوا العلم والحديث كثيراً، ما حدَّثتُ عن أحدهم شيئاً، لأنهم كانوا قد ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد، وهذا الشأن (الفتوى والحديث) يحتاج إلى رجل معه تقوى وورع، ومعه أيضاً صيانة وإتقان وعلم وفهم، فيعلم ما يخرج من رأسه وما يصل إليه، وأما رجل بلا إتقان ولا معرفة فلا يُنتفَع به ولا هو حجة ولا يؤخذ عنه.

فهو لا ينظر إلى صلاح الإنسان فقط، بل إلى قدرته على الحفظ ودقته في نقل الحديث..

وقد أُثر عنه أنه قال: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون منه، لقد أدركتُ سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين (أعمدة المسجد النبوي الشريف، فما أخذتُ منهم شيئاً، وإن أحدهم لو اؤتمن على بيت مال لكان أميناً (فهو إذاً لا يطعن في أمانتهم ولا في تقواهم ولا في عبادتهم)، بل يقول: إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن (أي ليسوا من المتقنين للحفظ وغير دقيقين فيمَ ينقلون وعمن ينقلون)..

هذا هو منهج الإمام مالك، وهو منهج عظيم قد عرفه الناس عنه، ومن هنا تأتي قيمة فتواه، فهو لا يروي إلا عن علماء ثقات، حفاظ، وكان إذا شك في شيء تركه، يقول الإمام الشافعي (وهو أحد تلاميذ الإمام مالك): كان الإمام مالك إذا شك في شيء من الحديث تركه.

منهج الإمام مالك في تلقي الحديث منهج عظيم، فلا يكفي عنده أن يكون الراوي صالحاً؛ بل لا بدَّ أن يكون أيضاً من العلماء الثقات الحفاظ المتمكنين..



الشاب المفتي

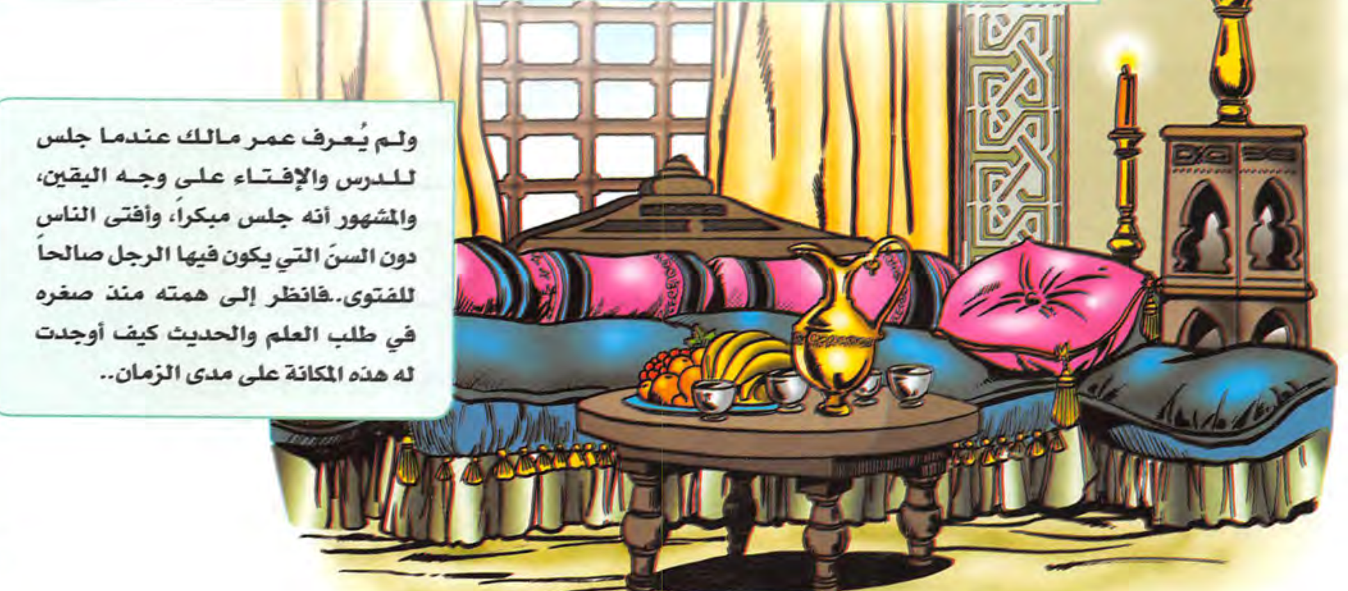
بعد أن تزوَّد مالك من زاد المدينة العلمي، واستوثق لنفسه، واطمأن إلى أنه يجب أن يعلم بعد أن تعلَّم، وأن ينقل للناس أحاديث رسول الله ﷺ كما رواها من الثقات، وأن يفتي ويخرج، ويرشد المستفتين.. اتخذ له مجلساً في المسجد النبوي الشريف للدرس والإفتاء..

ولا شك أن الذي يجلس في مجلس هؤلاء التابعين وتابعيهم الذين كانوا يقصدون من مشارق الأرض ومغاربها، لا بد أن يكون على حظ كبير من العلم، وفي حال من الإجلال والاحترام والتوقير تسمح له بأن يكون مقصد طلاب الفقه والمستفتين وموضع ثقتهم، ويكون لكلامه مكان من الاعتبار..

وكذلك كان مالك عندما قصد إلى الدرس والإفتاء، وهو نفسه كان يحاول أن يستوثق من رأي شيوخه فيه، وإقرارهم بأنه لذلك أهل، ولقد كانت تجري على لسانه تلك الكلمة الرائعة: «لا خير فيمن يرى نفسه في حال لا يراه الناس لها أهلاً»..

ولقد قال رحمه الله في هذا المقام وفي بيان حاله عندما نزعت نفسه إلى الدرس والإفتاء: «ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، والجهة من المسجد، فإن رأوه لذلك أهلاً جلس، وما جلستُ حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك»..

جلس مالك للتعليم بعد أن نضج واستوت رجولته في مسجد رسول الله ﷺ يفتي، ويروي طلاب الحديث عنه حديث رسول الله ﷺ، وكان مجلسه في المسجد النبوي الشريف هو المكان الذي كان يجلس فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه للشورى والحكم والقضاء، وكأن مالكاً رحمه الله باختياره ذلك المجلس يتأثر عمر رضي الله عنه في جلوسه كما تأثر في فتاويه وأقضيته التي رواها ابن المسيب وغيره من التابعين، وكأن تلك الحال الحسية توحي إليه دائماً بالأمر المعنوي، ولذلك المجلس أثر آخر، فهو مكان رسول الله ﷺ الذي كان يجلس فيه في المسجد..

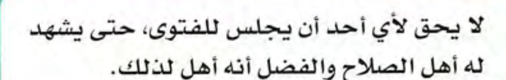


ولم يُعرف عمر مالك عندما جلس للدرس والإفتاء على وجه اليقين، والمشهور أنه جلس مبكراً، وأفتى الناس دون السنّ التي يكون فيها الرجل صالحاً للفتوى..فانظر إلى همته منذ صغره في طلب العلم والحديث كيف أوجدت له هذه المكانة على مدى الزمان..









لا يحق لأي أحد أن يجلس للفتوى، حتى يشهد له أهل الصلاح والفضل أنه أهل لذلك.

ومن هنا نفهم كيف أن الفتوى من الإمام لها منزلة عظيمة في نفوس المسلمين، حتى يمكنها أن تؤثر وتهز أركان الدولة.. كما سنرى لاحقاً إن شاء الله تعالى، لأنه عندما يصل إنسان إلى هذه المرتبة فإن شأنه أن يُعامَل من الأمة ومن الحكام بهذه المنزلة العظيمة.

طريقة تعامله مع الفتوى ومع الحديث

كان مالك عالماً في الفقه وعالماً في الحديث، ولكن كان له شأن عجيب؛ حيث يفرِّق بين الفتوى وبين الحديث، ويتعامل مع الحديث تعاملاً خاصاً يختلف عن التعامل مع الفقه..

فكان مالك مع أنه النبيل ذو السمت الحسن في عامة أحواله في درسه، سواء أكان للإفتاء في المسائل، أم للتحديث عن رسول الله ﷺ، إلا أنه يعطي نفسه عند التحديث عن النبي ﷺ سمتاً أحسن، ومظهراً أروع، فكان إذا حدَّث توضأ وتهيأ، ولبس أحسن ثيابه، ولم يكن يجلس على المنصة إلا إذا حدَّث حديث رسول الله ﷺ..

ويحكي تلميذه مطَرِّف فيقول: كان مالك إذا أتاه الناس خرجت الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: أتريدون الحديث أم المسائل؟ (الفقه)..

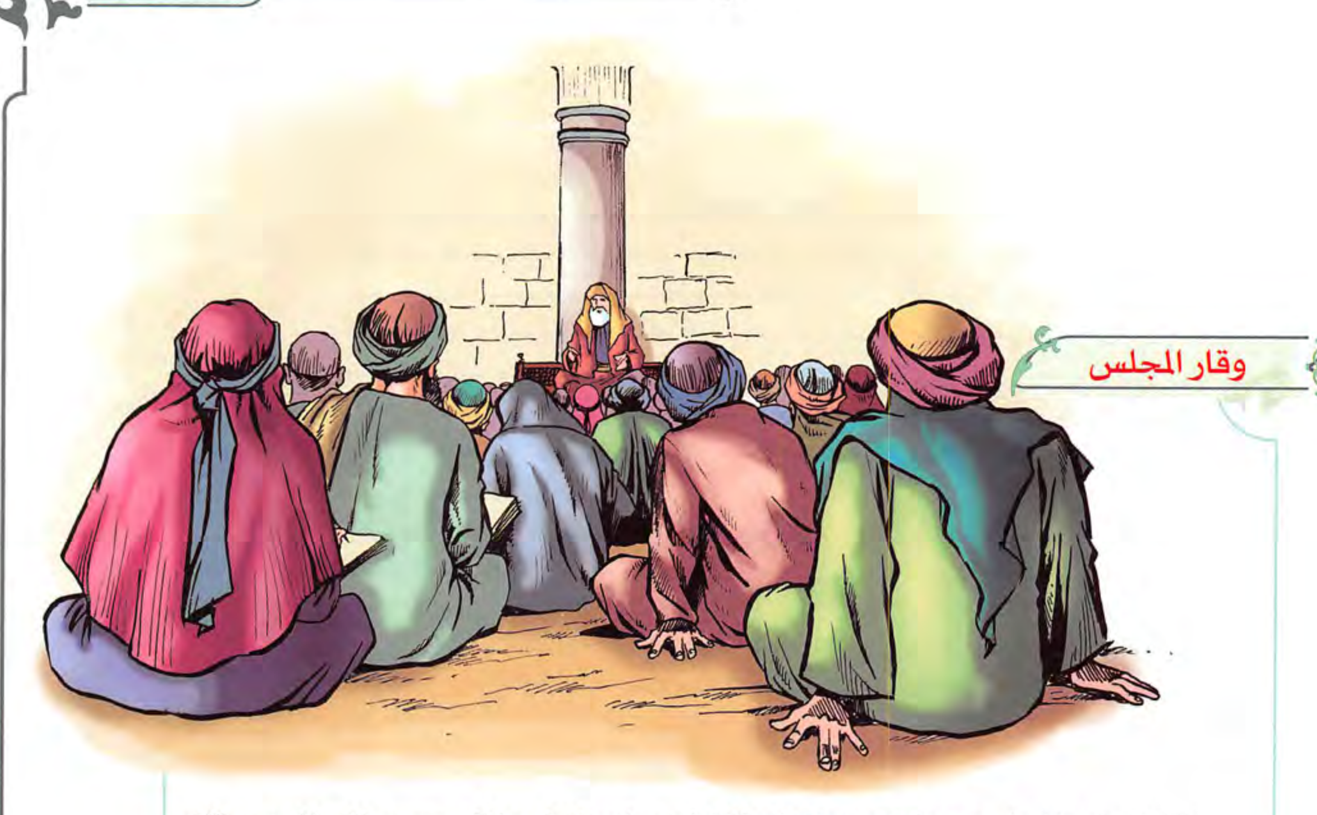
فإذا قالوا المسائل خرج إليهم فأفتاهم..

وإن قالوا: نريد الحديث، قال لهم: اجلسوا، ودخل مغتسله، فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً، وتعمم، وتلقى له المنصة، فيخرج إليهم قد لبس وتطيب وعليه الخشوع، ويوضع عود فلا يزال يُبخَر حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ..

وكان يحرِّم على الجالسين أن يرفع أحد صوته، ويقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ (الحجرات 2).

فهو يتعامل مع الحديث الشريف على أنه كلام رسول الله ﷺ، فيجب معه الوقار والأدب وإظهار الاحترام..

عندما يريد الإمام مالك أن يروي الحديث يغتسل ويتطيب ويلبس الجديد من ثيابه ويتعمم وكأنه ذاهب إلى عيد، إجلالاً لكلام رسول الله ﷺ، أما الفقه فهو عنده كلام البشر..



وقار المجلس

التزم الإمام مالك في درسه الوقار والسكينة، والابتعاد عن لغو القول وما لا يحسن بمثله، وكان يرى ذلك لازماً لطالب العلم..

يروى أنه نصح بعض أولاد أخيه فقال له: «تعلّم لذلك العلم الذي علمته، السكينة والحلم والوقار»..

وكان يقول: «حقٌّ على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعاً لآثار من مضى، وينبغي لأهل العلم أن يُخلوا أنفسهم من المزاح، وبخاصة إذا ذكروا العلم»..

هكذا كان مجلس مالك، مجلسٌ تحيط به المهابة والسكينة والوقار، وهكذا كان إجلاله للحديث النبوي الشريف..

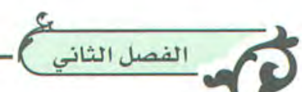
يصف من شهد هذا المجلس فيقول: كان مجلسه مجلس وقار وعلم، وكان رجلاً مهيباً، ليس في مجلسه من المراء ولا اللغط، ولا رفع صوت، وإذا سُئل عن شيء فأجاب سائله، لم يقل له: من أين هذا؟ (ما دليلك)..

فهم يعرفون علم الإمام مالك، ومرجعيته وتمكنه في الحديث، فلا يناقشونه بل يكتبون فتواه بلا جدال.

ومجلس الإمام مالك يختلف تماماً عن مجلس الإمام أبي حنيفة، الذي كان يطول فيه الحوار والنقاش والجدال إلى أن يصلوا إلى نتيجة..

أما مجلس الإمام مالك فما كان يتكلم فيه سوى الإمام مالك، ولا حوار أو نقاش، بل سؤال مختصر وجواب مختصر..

مجلس الإمام مالك مجلس علم ووقار، لا أحد يرفع صوته فيه، ولا يجادلونه في فتواه لعلمه وتمكنه.



تبسُّم لا ضحك

وكان الإمام مالك يقول: «من آداب العالم ألا يضحك إلا تبسُّماً»..

وقد أخذ نفسه بذلك الأدب أخذاً شديداً، حتى إنه مكث يحدِّث ويدرِّس نحو خمسين سنة، فما عُدّت له ضحكة في أثناء درسه، ولم يأخذ عليه أحد لغواً في قول، أو مزحة، أو تندراً بنادرة، بل كان في درسه الجد كله والسكون والهدوء، وما كان ذلك فيه لجفوة في نفسه، أو خشونة في طبعه، بل كان يأخذ نفسه بذلك احتراماً للدرس والحديث، وتأدباً في علم الدين..

ولأجل ذلك السمت الحسن، ولخشية الله، وإخلاصه في طلب العلم وتعليمه، وتقواه وورعه، ولبعده عن اللغو والتأثيم، ولما خصه الله به من قوة الروح وعزة النفس، كان ذا هيبة شديدة، إذا تكلَّم لا يراجع، وإذا أفتى لا يسأل من أين هذا..

قال بعض معاصريه: دخلتُ المدينة سنة أربع وأربعين ومائة، ومالك أسود الرأس واللحية، والناس حوله سكوت لا يتكلم أحد هيبة له..

حدَّث الإمام مالك نحو خمسين سنة، لم يؤخذ عليه لغو، ولا عُدَّت له ضحكة، بل يكتفي بالابتسامة إجلالاً منه لمكانة الحديث والعلم، وليس لخشونة في طبعه..



التواضع رفعة

قال الله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً) (الفرقان:63)..

والمشي الهَوْن: هو المشي بسكينة وتواضع..

وقال تعالى: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)(الحجر: من الآية88)..

وقال رسول الله ﷺ: "إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد" (مسلم وأبو داود)..

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ما نقصَتْ صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله" (مسلم والترمذي)..

وما أحسن قول الشاعر في التواضع:

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاحَ لِنَاظِرٍ ... عَلَى صَفَحَاتِ المَاءِ وهُوَ رَفِيعُ

وَلا تَكُ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ ... إلى طَبَقَاتِ الجَوِّ وهُوَ وَضِيعُ

كان يغلب على الإمام مالك التواضع والتبسط إذا كان بين تلاميذه كأنه واحد منهم، أما الهيبة ففي دروس العلم.

وقول الآخر:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ قَدْرًا ورِفْعَةً فَلِنْ وتَوَاضَعْ واتْرُكِ الكِبَرَ والعُجْبَا

وتواضع العلماء شَرَفٌ لهم، وهو دليل الرفعة، وعظم الشأن، وسعة العلم، وقديماً قال ابن السمَّاك:

تواضعك في شرفك أعظم من شرفك، وإذا رأيت إنساناً يدلُّ بعلمه ويتيه على الناس، فاعلم أنه نصف عالِم، وإلا فالعلم يحني النفوس، كما يحني الغصنَ ثمرتُه، وليس معنى التواضع انحناء الرأس، ولبس الخشن من الثياب، إنما التواضع تواضع النفس من غير تكلُّف، ولقد كان الإمام مالك محدِّث عصره وفقيهه، وكان إلى ذلك متواضعاً، قال رحمه الله: التواضع ترك الرياء والسمعة..

وقال: التواضع في الدين، ليس في اللباس..

قال بشر بن عمر: جئتُ مع مالك من منزله حتى دخل المسجد، فانتهى إلى جماعة، فوُسِّعَ له في صدرها، فأبى وجلس حيث انتهى به المجلس..

وإذا كان مالك في غير مجلس العلم تبسَّط وتواضَعَ حتى قال بعض تلاميذه: «كان مالك إذا جلس معنا كأنه واحد منا، يتبسط معنا في الحديث وهو أشد تواضعاً منا له، فإذا أخذ في الحديث (حديث رسول الله ﷺ) تهيبنا كلامه، كأنه ما عرفنا ولا عرفناه"..



الفصل الثالث

- سَمت خاص
- الدين المتوازن
- إخلاص خاص
- أدب المحدِّث
- منهج في الإفتاء

الباب الثاني



الفصل الثالث

منهج خاص



سَمت خاص



كان الإمام مالك له سَمْتٌ خاص لمكانته العلمية، فكان من شأنه أنه يظهر بمظهر حسن، ويتطيب، ويتجمل بالمظهر اللائق دائماً، وما كان يظهر على الناس بلبسه المبتذل أبداً..

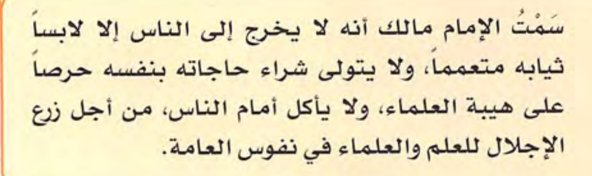
قال في المدارك: «كان مالك إذا أصبح لبس ثيابه وتعمم، ولا يراه أحد من أهله ولا أصدقائه إلا متعمماً، وما رآه أحد قط أكل أو شرب حيث يراه الناس»..

وكان لا يذهب إلى السوق فيشتري حاجاته، ويرى أنه لا يَجْمُل بالعالِم أن يذهب إلى السوق لشراء حاجاته وحاجات أهل بيته، ويقول: ينبغي للعالِم ألا يتولى شراء حاجاته من السوق بنفسه، وإن كان يقع عليه نقص في ماله، فإن العامة لا يعرفون قدره.

وهي وجهة نظر خاصة بالإمام مالك لجلالة قدره، فلا ننسى أنه كبير العلماء في زمانه، وكبير علماء مدينة العلم المنورة، ولعله يريد بذلك أيضاً المحافظة على مكانة العلم والعلماء في نفوس عامة الناس..

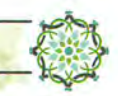
بينما كان علماء الأندلس من طبيعتهم أنهم يذهبون إلى الأسواق، ولا يلبسون العمائم، وكانوا يشترون بأنفسهم، والباعة يخفضون لهم الأسعار تكريماً لهم.

ليس بالضرورة أن نلتزم صورة واحدة من العلماء، فنحن نحاول أن نرسم عدة صور؛ هذا فعلٌ وذاك فعلٌ، وكل واحد منا له طباعه الخاصة، وما دام الكل يتوافق مع قواعد الحلال والحرام فلا ضَيْر.



سَمْتُ الإمام مالك أنه لا يخرج إلى الناس إلا لابساً ثيابه متعمماً، ولا يتولى شراء حاجاته بنفسه حرصاً على هيبة العلماء، ولا يأكل أمام الناس، من أجل زرع الإجلال للعلم والعلماء في نفوس العامة.





الدين المتوازن

ولا ننسى أن الإمام مالك رحمه الله رغم هذه المكانة وهذه الوجاهة وهذه الملابس العظيمة كان له فهمه الخاص الجميل للعبادة، وطرق كسب الأجر، فالإنسان قد يكون في منزلة دينية عالية وله وضعه الدنيوي المرتاح، وكثير من الناس يرى تناقضاً في ذلك..

ومما يوضح ذلك أنه جاءته رسالة من أحد الزهّاد يدعوه فيها إلى الانفراد والتعبد، فردّ عليه الإمام مالك رداً في منتهى الجمال، قال له: إن الله قسَّم الأعمال كما قسّم الأرزاق، فرُبَّ رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد، وآخر فُتح له في العلم، ونشر العلم من أفضل الأعمال، وقد رضيتُ بما فُتح لي فيه..

ثم قال: وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه (ليس أجري في نشر العلم أقل من أجرك في عبادتك وزهدك)، ثم قال: وأرجو أن يكون كلامنا على خير وبرّ.

فكل إنسان مُيسر لما خُلِقَ له، والفطن الذكي هو الذي يعرف ما فتح الله له، ويستغله لخدمة دينه، ولا يستصغر الآخرين.

إن هذا الدين فيه توازن، فيه عظمة، كل إنسان يستغل قدراته ومواهبه التي وهبها الله له لخدمة دينه.

العبادة تَسَعُ الحياة كلَها

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين، والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك، من العبادة..

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك، هي من العبادة لله..

وأكثر من ذلك أن الدين كله داخل في العبادة، فإذا عرفنا أن الدين قد جاء يرسم للإنسان منهج حياته، الظاهرة والباطنة، ويحدد سلوكه وعلاقاته، وفقاً لما يهدي إليه هذا المنهج الإلهي؛ عرفنا أن عبادة الله تسع الحياة كلها، وتنتظم أمورها قاطبة: من أدب الأكل والشرب، وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب..

وبهذا البيان يتضح لنا حقيقة هامة لا زال يجهلها الكثيرون من المسلمين، فبعض الناس لا يفهم من كلمة (العبادة) إذا ذكرت إلا الصلاة والصيام والصدقة والحج والعمرة، ونحو ذلك من الأدعية والأذكار، ولا يحسب أن لها علاقة بالأخلاق والآداب، أو النظم والقوانين، أو العادات والتقاليد..

إن عبادة الله ليست محصورة في الصلاة والصيام والحج وما يتعلق بها من التلاوة والذكر والدعاء والاستغفار، كما يتبادر إلى فهم كثير من المسلمين إذا دعوا إلى عبادة الله، وكما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر فقد وفوا الإلهية حقها، وقاموا بواجب العبودية لله كاملاً..





إن هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية في بناء الإسلام، على منزلتها وأهميتها، إنما هي جزء من العبادة لله، وليست هي كل العبادة التي يريدها الله من عباده..
والحق أن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة، إنها تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً..

الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة

إن الإسلام قد فسح مجال العبادة ووسّع دائرتها، بحيث شملت أعمالاً كثيرة لم يكن يخطر ببال الناس أن يجعلها الدين عبادة وقربة إلى الله، إن كل عمل اجتماعي نافع يعده الإسلام عبادة من أفضل العبادات ما دام قصد فاعله الخير، لا تصيّد الثناء واكتساب السمعة الزائفة عند الناس، كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون، أو يخفف به كربة مكروب، أو يضمد به جراح منكوب، أو يسد به رمق محروم، أو يشد به أزر مظلوم، أو يقيل به عثرة مغلوب، أو يقضي به دين غارم مثقل، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذي عيال، أو يهدي حائراً، أو يعلم جاهلاً، أو يؤوي غريباً، أو يدفع شرّاً عن مخلوق، أو أذى عن طريق، أو يسوق نفعاً إلى ذي كبد رطبة، فهو عبادة وقربة إلى الله تعالى إذا صحت فيه النية..
أعمال كثيرة من هذا النوع جعلها الإسلام من عبادة الرحمن، وشعب الإيمان، وموجبات المثوبة عند الله..
فليست الصلاة أو الصيام أو الذكر والدعاء فقط هي التي تكتب لك عبادة في يومك وتستوجب بها الأجر عند ربك، كلا إنك تستطيع في اليوم الواحد أن تضيف إلى ميزان عبادتك وحسناتك أشياء كثيرة، لها ثقلها وقيمتها في تقدير الحق تبارك وتعالى، وإن بدت عندكَ هينة خفيفة في الميزان..
وبهذا يعيش المسلم في مجتمعه ينبوعاً يفيض بالخير والرحمة، ويتدفق بالنفع والبركة، يفعل الخير ويدعو إليه، ويبذل المعروف ويدل عليه، فهو مفتاح للخير، مغلاق للشر، كما حثه النبي ﷺ..

عمل الإنسان في معاشه عبادة

وأعجب من هذا أن النبي ﷺ يجعل الأعمال الدنيوية التي يقوم بها الإنسان لمعيشته، والسعي على نفسه وأهله، من أبواب العبادة والقربات إلى الله، وإن لم يتعدّ نفعها دائرته الشخصية والأسرية، فالزارع في حقله، والعامل في مصنعه، والتاجر في متجره، والموظف في مكتبه، وكل ذي حرفة في حرفته، يستطيع أن يجعل من عمله المعاشي صلاة وجهاداً في سبيل الله، بشرط: أن يكون العمل مشروعاً في نظر الإسلام، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وأن تصحبه النية الصالحة من إعفاف نفسه، وإغناء إسرته، وعمارة الأرض، وأن يؤدي العمل بإتقان وإحسان، وأن يلتزم فيه حدود الله، فلا يظلم، ولا يخون، ولا يغش، ولا يجور على حق غيره، وألا يشغله عمله الدنيوي عن واجباته الدينية..
وفي ظلّ هذه التعاليم يندفع المسلم بغير وازع خارجي إلى كل ميادين الحياة منتجاً متقناً متفوقاً، وهو يوقن أنه في صلاة وجهاد..



حتى أعمال الغريزة وقضاء الشهوة

على أن الأروع مما تقدم كله أن تشمل العبادة الحاجات الضرورية التي يؤديها المسلم استجابة لدافع الغريزة البشرية، فالأكل والشرب ومباشرة الزوج لزوجته، وما كان من هذا القبيل يدخله الإسلام في دائرة العبادة الفسيحة بشرط واحد هو (النية)..

فالنية هي المادة السحرية العجيبة التي تضاف إلى المباحات والعادات فتصنع منها طاعات وقربات..

صحّح وجهتك تكن كل حياتك عبادة

بحسب المسلم أن ينظر إلى نفسه على أنه خليفة لله في الأرض، مهمته أن ينفذ أمره، ويقيم حدوده، ويعلي كلمته، ويقوم بواجب العبودية له تعالى، بحسبه ذلك لتصطبغ أعماله كلها بصبغة ربانية، وليكون ما يصدر عنه من أقوال وأفعال وحركات وسكنات عبادة لله رب العالمين..

وهذا هو الموافق لما تعطيه الآية الكريمة من معنى كبير: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات:56) ..

فأين هي العبادة التي جعلها الله غاية لخلقهم إذا حصرنا معنى العبادة في تلك الشعائر التي لا تستغرق إلا دقائق معدودة من يوم الإنسان وليلته، أما جلّ الوقت ففي معترك الحياة، قال الأستاذ محمد الغزالي: «إن الإسلام ليس أفعالاً تُعدّ على الأصابع دون زيادة أو نقص، كلا إنه صلاحية الإنسان للمسير في الحياة وهو يؤدي رسالة محددة»..





آثار هذا الشمول في النفس والحياة

إن شمول معنى العبادة في الإسلام له آثار مباركة في النفس والحياة، يحسها الإنسان ويلمسها في غيره، ويرى ظلالها في الحياة من حوله، وأبرز هذه الآثار وأعمقها:

- أنه يصبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية، ويجعله مشدوداً إلى الله في كل ما يؤديه للحياة، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع، وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع، وكل إنتاج صالح، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة على أمثل وجوهها، فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله عز وجل..

كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوي وإتقانه ما دام يقدمه هدية إلى ربه سبحانه ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته..

- أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة، ووحدة الغاية في حياته كلها، فهو يرضي رباً واحداً، في كل ما يأتي ويدع، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله: الديني والدنيوي، لا انقسام ولا صراع، ولا ازدواج في شخصيته ولا في حياته..

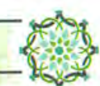
إنه ليس ممن يعبدون الله في المسجد، ويعبدون (الدنيا) أو (المال) في ساحة الحياة..

وليس ممن يعبدون الله في يوم من أيام الأسبوع، ثم يعبدون ما سواه ومن سواه في سائر الأيام..

كلا إنه يعبد الله وحده حيثما كان، وكيفما كان، وفي أي عمل كان، فوجه الله لا يفارقه في عمل ولا حال ولا زمان (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: 115)..

وبهذا ينصرف همه كله إلى الله، ويجتمع قلبه كله على الله، ولا يتوزع شمل حياته وفكره وإرادته ووجدانه بين شتى الاتجاهات، والتيارات، والانقسامات..

إن حياته كلها وحدة لا تتجزأ، منهجه فيها عبادة الله، وغايته رضوان الله، ودليله وحي الله..



إخلاص خاص

يحاول الإمام مالك أن يثبت هذا المعنى بصورة عجيبة، كثير من الناس يحبون أن يُعرفوا بكثرة الصلاة، فأحياناً تظهر في الجبهة علامة تُسمَّى الزبيبة عندما يُكثر الإنسان من السجود على مكان خشن، وبعض الناس يتفاخرون بها للإعلان عن تقواهم وعبادتهم، وكان للإمام مالك منديل خاص، إذا حان وقت الصلاة فرشه وصلى عليه، فسُئل عن ذلك، فقال أجعله لئلا يؤثر الحصى في جبهتي فيظن الناس أني أقوم الليل. وذلك مخافة أن يكون ممن يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا، ومخافة أن يدخل عمله الرياء، وقد ورد ذم الرياء في الكتاب والسنة، قال الله تعالى: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ • الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ • الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ × وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) (الماعون: 4 - 7)..

وقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) (الكهف: 110)..

نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته وأعماله..



سجود الإمام مالك على منديل حتى لا تعلّم الحصى في جبهته فيظن الناس أنه يقوم الليل دليل على صدقه وإخلاصه وفهمه الصحيح لقضية الرياء..

وقال ﷺ: "إنَّ أخوفَ ما أخاف عليكم الشركُ الأصغرُ" قالوا: "وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟" قال: "الرياء، يقول الله عز وجل يوم إذا جاز العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء" .. (أحمد في المسند)..

والرياء مشتق من الرؤية، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم الخير..

ثم إن الرياء جليّ وخفيّ، فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه..

وأخفى منه قليلاً هو ما لا يحمل على العمل بمجرده إلا أنه يخفف العمل الذي أريد به وجه الله تعالى، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف نشط له وسهل عليه..

وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا في التسهيل، لكنه مع ذلك مستبطن في القلب، وأجلى علاماته أن يُسَرَّ باطّلاع الناس على طاعته.. وغير ذلك..

ومتى لم يكن وجود العبادة وعدمها في كل ما يتعلق بالخلق، لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء، وكل ذلك يوشك أن ينقص الأجر..

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون في إخفاء أعمالهم وعبادتهم أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة، فيجازيهم الله في يوم القيامة بإخلاصهم، إذ علموا أن الله تعالى لا يقبل في القيامة إلا الخالص..

ومن الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به، وذلك غلط وموافقة للشيطان وجرٌّ إلى البطالة، وترك للخير، فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل، وجاهدْ خاطر الرياء، وألْزِمْ قلبكَ الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمدَ المخلوقين، وهو مطّلع على قلبك، بل إن قدرتَ أن تزيد في العمل حياءً من ربك وعقوبةً لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنتَ مراءٍ فاعلمْ كذبه وخداعه بما تصادف في قلبك من كراهية الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله تعالى..

قال إبراهيم النخعي رحمه الله: إذا أتاكَ الشيطان وأنتَ في صلاة فقال: إنكَ مُراءٍ. فزدها طولاً..



أدب المحدِّث

وكان لمالك آداب يتأدب بها في تعامله مع المصطفى صلى الله عليه وسلم (عندما يروي أحاديثه)، فكان قد ألزم نفسه أنه لا يروي حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم إلا وهو متطهر ومتطيب، وكان إذا أراد التحديث دخل فاغتسل وتطيب ولبس ملابس جديدة، ومشط لحيته وأصلح من شأنه، ثم جلس في المكان المعتاد من الروضة الشريفة في المسجد النبوي الشريف، أو فيما بعد كان يحدِّث في بيته لما أصابه المرض والشيخوخة..

هكذا كان حرص مالك –رحمه الله- على إجلال وتقدير حديث النبي ﷺ..

وكان يأبى أن يحدث أو أن يكتب الحديث وهو واقف، فلا بد أن يجلس ويستقرّ حتى يكتب وهو جالس.

ولما سُئل: هل سمعتَ من عمرو بن دينار؟

قال: رأيتُه يحدِّث والناس قيام يكتبون (من شدة الازدحام في حلقته) فكرهتُ أن أكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم.

ومرَّ الإمام مالك بالإمام العظيم أبي الزناد، وكان أستاذاً من أساتذته، وأبو الزناد يحدِّث فلم يجلس إليه الإمام مالك، فلما سأله فيما بعد لمَ لَمْ تجلس؟

قال: كان المكان ضيقاً، فلم أُرد أن أكتب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قائم.

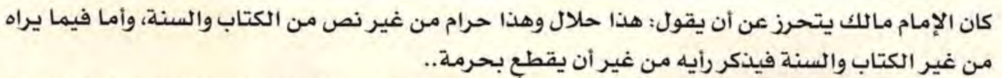
سَمْتُ الإمام مالك أنه لا يخرج إلى الناس إلا لابساً ثيابه متعمماً، ولا يتولى شراء حاجاته بنفسه حرصاً على هيبة العلماء، ولا يأكل أمام الناس، من أجل زرع الإجلال للعلم والعلماء في نفوس العامة.



اعتزاله المسجد

ظلّ الإمام مالك يحدِّث بهذه الطريقة إلى أن أصابه المرض، وكان مرضه (سلس البول)، وكان يستحي أن يتحدث بمرضه (ومع ذلك كان يقوم بواجباته كلها)، جاء في الديباج المذهب لابن فرحون: «قال الواقدي: كان ملك يأتي المسجد، ويشهد الصلوات والجنائز، ويعود المرضى، ويقضي الحقوق، ويجلس في المسجد، فيجتمع إليه أصحابه، ثم ترك الجلوس في المسجد، فكان يصلي وينصرف إلى مجلسه، وترك حضور الجنائز، فكان يأتي أصحابها ويعزيهم، ثم ترك ذلك كله، فلم يكن يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة، ولا يأتي أحداً يعزيه، واحتمل الناس له ذلك حتى مات، وكان ربما قيل له في ذلك فيقول: ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره».

فانظر هنا إلى الأدب، واعلم أن بعض الناس لهم أعذار لا يستطيعون البوح بها، فأحسن الظن، والتمس العذر لإخوانك، وخاصة أهل الصلاح والخير، واطرد عن نفسك وساوس الشيطان، وقل لعلَّ له عذراً لا أعرفه..


اعتزل الإمام مالك المسجد بسبب المرض الذي أصابه، ونحن علينا أن نلتمس العذر لإخواننا ولا نسيء الظن بهم..

منهج في الإفتاء

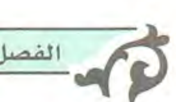
كان الإمام مالك يتحرز عن أن يقول: هذا حلال وهذا حرام من غير نص من الكتاب والسنة، وأما فيما يراه من غير الكتاب والسنة فيذكر رأيه من غير أن يقطع بحرمة..

وقد روي عنه أنه قال: «ما من شيء أشدَّ عليَّ من أن أُسأل عن مسألة من الحلال والحرام؛ فإن هذا هو القطع في حكم الله، ولقد أدركتُ أهل العلم والفقه ببلدنا، وإن أحدهم إذا سُئل عن مسألة فكأن الموت أشرف عليه (أي من شدة الخوف أن يخطئ فيفتي بغير حق أو علم) ورأيتُ أهل زماننا هذا يشتهون الكلام والفتيا (أي يحبون الإجابة على الأسئلة حتى يعرف الناس مكانتهم وعلمهم)، ولو وقفوا على ما يصيرون إليه غداً (أي الحساب يوم القيامة على الفتيا بغير حق) لقللوا من هذا، وإن عمر بن الخطاب وعلياً وخيار الصحابة كانت تتردد عليهم المسائل (وهم خير القرون الذين بعث فيهم النبي ﷺ) وكانوا يجمعون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويسألون، ثم حينئذٍ يفتون (أي يجتمعون ويتناقشون خشية أن يخطئوا)..

وأهل زماننا هذا قد صار همهم الفتيا، فبقدر ذلك يفتح لهم من العلم (أي يعطي الله تعالى العلم للناس على قدر إخلاصهم وخوفهم من الوقوع في الفتيا الحرام أو الخطأ)، ولم يكن أمر الناس، ولا من مضى من سلفنا الذين يُقتدى بهم، ويعوِّل أهل الإسلام عليهم أن يقولوا: هذا حلال وهذا حرام، ولكن يُقال: أنا أكره كذا، وأما حلال وحرام فهذا الافتراء على الله، ﴿قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالاً وحراماً﴾ (يونس 59)؛ لأن الحلال ما أحله الله ورسوله.

فانظر إلى منهجه وحرصه على دين الله.





لا أدري

والتزم الإمام مالك الإفتاء فيما يقع من المسائل دون أن يفرض خشية أن يضل وأن يبعد عن سنة رسول الله ﷺ، وأن يندفع إلى المغالاة في الأمور، وفرض غير المعقول..

والتزم الأناة في الإفتاء، وكان يفكر التفكير الطويل العميق، ولا يسارع في الإفتاء، فإن المسارعة في الإفتاء قد تجر إلى الخطأ، يقول ابن القاسم تلميذه: سمعت مالكاً يقول: إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة ما اتفق لي فيها رأي حتى الآن (هذا الإمام مالك وهو من هو في علمه وعظمته، فليتأمل ذلك شباب تجرؤوا على الفتوى، بل حتى على العلماء)، وكان يقول: ربما وردت عليّ مسألة فأسهر عليها عامة ليلتي، وكان الإمام مالك إذا أفتى فيما يعلم يقول: ﴿إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾(الجاثية 32).

ولذلك كان يكثر من قول لا أدري، ويرفض أن يجيب عن المسائل التي لم تقع، ويقول للسائل: سَلْ عما يكون، ودع ما لا يكون.

ثم سأله رجل من أهل المغرب عن مسألة كلفه بها أهل المغرب، فكان جواب الإمام مالك: لا أدري، ولكن تعود إلينا غداً..

فلما كان اليوم التالي، جاء الرجل وهو جاهز للسفر، وينتظر الإجابة عن المسألة ثم يسافر فوراً، فقال له الإمام مالك: سألتني وما أدري ما هي..

فقال الرجل: يا أبا عبد الله، تركتُ خلفي من يقول: ليس على وجه الأرض أعلم منك.

فقال الإمام مالك: إني لا أُحسن (أي لا أعرف الإجابة، وانظر إلى أدبه وحرصه على الحق وتواضعه، فلم يجب وهو ليس بمتأكد من الإجابة).

هذا منهج كبار العلماء، فليت شبابنا من طلاب العلم اليوم يقتدون بهم..

ويروي عبد الرحمن بن مهدي شيخ علماء البصرة في زمانه، لما كان حاضراً مجلس الإمام مالك: أن رجلاً سأل الإمام مالكاً عن مسألة، بعدما قال: جئتكَ يا إمام مسيرة أربعة أشهر من المغرب لكي أعرف جوابك..

فقال الإمام مالك: أخْبِر الذي أرسلك أنْ لا علم لي بها..

فقال المغربي: ومَنْ يعلمها؟!

قال مالك: الذي علَّمه الله.

ولما سُئل الإمام مالك عن ثمانية وأربعين مسألة، أجاب عن اثنتين وثلاثين، وستة عشر مسألة كان جوابه فيها: لا أدري.

رجل جاء من المغرب يستفتي الإمام مالك، وهو يقول له: لا أدري!!





المسائل الخفيفة

وكان الإمام مالك عندما يُسأل يطلب التأجيل أحياناً عدة أيام قبل الإجابة..
قال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا سُئل عن المسألة، قال للسائل: انصرف حتى أنظر، فينصرف، ويتردد فيها، فقلنا له في ذلك، فبكى، وقال: إني أخاف أن يكون لي من هذه المسائل يوم وأي يوم! (يقصد يوم القيامة).
وكان يقول: مَن أحبَّ أن يجيب عن مسألة، فليعْرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة..
وما كان الإمام مالك يعتبر في الفتاوى خفيفاً أو صعباً، بل يعتبرها كلها أمراً صعباً ما دام يترتب تحليل أو تحريم على قوله. وقد سأله رجل عن قضية بسيطة، فطلب الإمام التأجيل، فاستغرب الرجل، وقال: يا إمام، هذه مسألة خفيفة لا تحتاج إلى تأجيل. فغضب وردَّ ردّاً حازماً وقال: مسألة خفيفة سهلة؟! ليس في العلم خفيف، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ (المزمل 5)، فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يُسأل عنه يوم القيامة.

هكذا كان تَريُّث الإمام مالك قبل إصدار الفتوى، وعدم تردده في قول: لا أدري إن كان لا يعلم، وخوفه من المحاسبة عليها يوم القيامة، وتدقيقه حتى في المسائل الخفيفة، ويشكّل كل ذلك منهجاً خاصاً للإمام مالك.

خلاصة منهج الإمام مالك

هكذا كان منهج الإمام مالك، وهو منهج خاص، لكنه منهج أصيل يدل على إخلاص عميق، وفهم دقيق وحرص عالٍ وخشية وخوف صادقين، كما يدل على إجلال الإمام مالك للعلم والحق والتدقيق في قضايا الحلال والحرام..
فهو يتعامل مع حكم الله تعالى، والخطأ عنده فيه جسيم والحساب عسير، وأدّى ذلك كله إلى احترام شديد للحديث النبوي الشريف، فهو يتعامل معه وكأنه يسمع النبي ﷺ يتحدث..
وهو لا يريد حظاً لنفسه ولا مكانة ولا شهرة بين الناس، ولا حرج عنده أن يقول الناس: الإمام مالك لم يعرف الجواب على هذه المسألة، فهدفه الحق، وليس الشهرة والمنزلة بين الناس..
وصار هذا التواضع أمام العلم منهجاً تلخصه كلمة: (لا أدري)..
هكذا بكل بساطة (لا أدري)..
هكذا بلا مقدمات ولا اعتذارات (لا أدري)..
بلا تواضع مزيف ولا رياء خفي، بل كلمة مباشرة تشير إلى عدم العلم بدون محاولة إخفاء جهل (لا أدري)..
وبدون إعطاء نصف إجابة، أو ربع إجابة، أو نقل عن آخرين قد يكونوا أصابوا أو أخطأوا (لا أدري)..
منهج للعلماء وطلاب العلم، ليتنا نقتدي به بكل ما يحمله من صدق وإخلاص وشفافية، وكسر لشهوة النفس، ليكن منهجك (لا أدري)..



الفصل الرابع

- منهجية التعليم والمذهبية
- التلميذ الأستاذ
- هيبة العلم
- إمام في الحديث والفقه والأخلاق
- العلم لا يورَّث

الباب الثاني



الفصل الرابع

الأستاذ المربي



منهجية التعليم والمذهبية

إن أسلوب الإمام مالك أسلوب الأثر ونقل النص وتطبيق النص من القرآن والسنة، وحرصٌ كامل على الإجابة الدقيقة، والامتناع الكامل عن الإجابة على أي أمر افتراضي لم يقع، بل حتى الاعتذار عن الأمور التي لم تقع في المدينة، حتى لو وقعت في أماكن أخرى، وحرص كامل على نقل الفتوى كما هي، وعدم السماح بالجدل ولا بالنقاش في هذه القضايا..

هذه المنهجية في التعليم شكّلت الإمام، وهي نابعة من مكانة الإمام مالك، هذه المكانة جعلته يصبح أستاذاً لمشايخه كابن شهاب الزهري وغيره..

ومع كل ذلك كان يشعر بأنه قد يخطئ، وأحياناً يضيقُ بأن يُكتَب عنه كل شيء، فكان يقول: إني بشر أخطئ وأرجع، أكلُّ ما أقول يُكتب؟!

لكنهم كانوا يعرفون مكانته ويكتبون عنه كل شيء.

وكان إذا تبين له الخطأ في أي أمر يجمع تلاميذه، ويعلن لهم الرأي الذي قاله سابقاً، والرأي الذي استقرَّ عليه، ويصوِّب ويعدِّل ما أفتى به سابقاً.

أسلوب الإمام مالك أسلوب الأثر، وحرص كامل على الفتوى الدقيقة، مع الرجوع عن الخطأ إن تبين له فيما بعد.
وإعلان رجوعه على الملأ، وحرصه ألا تُكتَب كل آرائه خشية خطئها أو تغييرها..

رأيه في المذهبية

منهج خلاصته: أن الإنسان لا يتردد في تصويب خطئه..

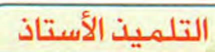
منهج في أن كل إنسان يُؤخَذ منه ويُترك إلا المعصوم ﷺ..

منهج للذين يقلدون المذاهب بدون وعي، فإمامهم الأول قد يخطئ..

هكذا كان هذا الإمام الجليل العظيم يقول عن نفسه ذلك، والرجوع إلى الكتاب والسنة هو الأساس.

منهج خلاصته: أنه لا مانع أن نقتدي بالأئمة الأعلام.. ولا مانع أن نسير على نهجهم.. ولا مانع أن نقتدي بفقههم.. لكن المانع أن نقلد تقليداً أعمى بلا بصيرة، ونرفض الأدلة الصريحة من أجل قول أي إنسان مهما كان.. هكذا يعلمنا الإمام مالك نفسه..

المرجع إلى الكتاب والسنة هو الأساس، وكل إنسان يؤخذ منه ويُترك منه إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم.
ولا مانع من تقليد المذاهب بشرط أن نترك ما في المذهب إذا ثبت أن الدليل الصحيح يخالفه..



التلميذ الأستاذ

من كل هذا ولكل هذا، صارت مكانة الإمام مالك وارتفع شأنه، فإذا أضفتَ إليه علماً غزيراً، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم الكثير، ومنهجاً أصيلاً، وأساتذة يندر أن تجد أمثالهم، عرفتَ لمَ وصل الإمام مالك إلى مرتبة (الإمامة)، بل أكثر من ذلك وصل أن يكون أستاذاً لمن تعلَّم على يديهم فيما مضى من عمره، حيث كان تلميذاً لابن شهاب الزهري، ويحيى بن سعيد الأنصاري، فما مرَّت سنين إلا كان الإمام الزهري يحضر في جلسة الإمام مالك ويتلقى منه العلم.

لا تأنف من العلم

وهذه القصة تدلنا على مسألة في التواضع.. فبعض الناس يأنف أن يتعلم ممن هو أصغر منه سناً أو أقل منه قدراً، أو أناس علمهم سابقاً.. أما أصحاب الهمة فلا يأنفون أن يتعلموا العلم حتى من تلاميذهم..

وتتكرر هذه القصة كذلك، فمن الذين تلقى عن الإمام مالك العلم، بعد أن تلقى عنه الإمام مالك: يحيى بن سعيد الأنصاري، وكان قاضي المدينة وأحد كبار الفقهاء فيها.

ومن الأئمة الكبار الذين تلقوا عن الإمام مالك الإمام الجليل سفيان بن عيينة، فكان له حلقة حول الكعبة، وإذا جاء إلى المدينة كانت له حلقة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا أقيمت حلقة الإمام مالك كان يحضر حلقة الإمام مالك.

صار شيوخ الإمام مالك يحضرون حلقته بعد أن تلقى العلم عنهم، وهذا منهج في التواضع والحرص على العلم.



أخذ الإذن قبل الإفتاء

وكان الإمام مالك يرفض أن يتجرأ أي شاب على الفتيا، إلا بعد أن يتلقى العلم ويصل إلى المرتبة التي تسمح له أن يفتي، وتسمح لهؤلاء أن يتلقوا منه.

منْ ذلك: أنه جاء رجل إلى الإمام مالك وسأله عن مسألة فسارع ابن القاسم تلميذ الإمام مالك فأجابه، فغضب الإمام مالك غضباً شديداً وقال له: جسرتَ على أن تفتي يا عبد الرحمن، جسرتَ على أن تفتي، وظلَّ يكررها..

ثم علَّمه وقال له: يا عبد الرحمن، ما أفتيتُ حتى سألتُ: هل أنا للفتيا موضع؟

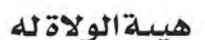
فلما هدأ سُئل: مَنْ سألتَ قبل أن تفتي؟

قال: الزهري وربيعة الرأي (أي لما سمح لي هذان العالمان الكبيران بالفتوى أفتيت)..

هكذا كان منهج الإمام مالك، هذا المنهج وهذه المهابة لم يصلها إلا القليل ممن عاصروه، بل كانت مهابته في النفوس أعظم من مهابة كثير من العلماء بل الحكام في زمانه.

فالمنهج السليم هو الذي صنع المكانة والمنزلة.. وليس العكس..

الفتوى أمانة، ولا يتولاها إلا من يشهد له أهل الفضل بأنه أهل لها، والمنهج السليم هو أساس المكانة العلمية.



هيبة العلم

هيبة الولاة له

لقد بلغت هيبة الإمام مالك حداً تنفس عليه الملوك والخلفاء، فقد كانوا يهابونه من غير قوة ولا جبروت، أكثر مما يهابون السلاطين والخلفاء في ملكهم..

وكان الناس يهابونه بحيث إذا دخل على الخليفة تنحَّى الناس وأوسعوا له حتى يجلس مع الخليفة..

إذ يروى أن المهدي دعاه، وقد ازدحم الناس بمجلسه، ولم يبقَ موضع لجالس، حتى إذا حضر مالك تنحَّى الناس له حتى وصل إلى الخليفة، فتنحَّى له عن بعض مجلسه، فرفع إحدى رجليه، ليفسح لمالك المجلس..

وكان الولاة في المدينة لا يصدرون أي قرار رئيسي إلا بعد الرجوع إلى رأي الإمام مالك..

ومهابته هذه لم تأتِ من جماله رغم وسامته، وما جاءت من ملابسه رغم أناقته، لكن الذي رفع الإمام مالكاً على هذه المكانة العلم والتقوى، واحترامه للعلم، وعدم تبذله للحكام، وعدم حرصه على الدنيا، وصدقه في التعامل مع هذا الدين..

فما تملَّق إنساناً، ولا نافق سلطاناً، وما صغَّر نفسه، ولا صعَّر خدَّه، وما وقف على باب يسعى إلى منصب..

من هنا جاءت مهابته، بالإضافة إلى مهابة العلم والدين والتقوى والورع، ومهابة حديث رسول الله ﷺ الذي امتلأ به جوفه..

الذي يرفع الإنسان ويعطيه الهيبة علمه وتقواه، لا جماله وملابسه، والمنهج السليم يفرض نفسه حتى على الحكام..



قصة تدل على هيبة الحكام له

وهي قصة التقاء الشافعي بمالك، ومعه كتاب توصية من والي مكة، وفيها بيان فراسة الإمام مالك ومهابته عند الأمراء ومَن دونهم..

يقول الإمام الشافعي (وكان الشافعي صغيراً في بداية طلبه للعلم): أردتُ أن أتعلم على يد الإمام مالك، وأن يستوصي بي توصية خاصة، فقررت أن أطلب من والي مكة رسالة توصية إلى والي المدينة ليوصي بي الإمام مالكاً، ورسالة أخرى مباشرة إلى الإمام مالك ليتوصى بي..

فأخذتُ الكتابين، فلما وصلتُ إلى المدينة دخلتُ على الوالي، وأعطيته كتابه، فلما قرأه قال: يا فتى إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً أهون عليَّ من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلستُ أرى الذلَّ حتى أقف ببابه(أي أن منصب الوالي لا قيمة له عند الإمام مالك، فهو يتعامل مع العلم والدين وليس الدنيا والحكم)..

فقلتُ: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يوجّه إليه حتى يحضر (أي يطلب من الإمام مالك أن يأتي هو لمجلس الوالي)، فقال: هيهات، ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا (يعني لو خرجت أنا وجميع الوجهاء والأعيان ماشين على أرجلنا إلى الإمام مالك حتى تغبر أقدامنا، لعل هذا يلين من قلب الإمام مالك تجاه طلباتنا).

يقول الإمام الشافعي: فواعدته العصر، وركبنا جميعاً، فوالله لكان كما قال أصابنا من تراب العقيق، فتقدم رجل، فقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك (الإمام مالك) إني بالباب..

فدخلتْ فأبطأت ثم خرجت، فقالت: إن مولاي يقرئك السلام، ويقول: إن كانت لديك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كنت جئتَ لسماع الحديث فقد عرفتَ يوم المجلس، فانصرفْ

فقال: قولي له: إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة..

فدخلَتْ، ثم خرجت وبيدها كرسي فوضعته عند الباب وانصرفتْ..

يقول الإمام الشافعي: فإذا أنا بمالك قد خرج وعليه الهيبة والوقار وهو شيخ طويل فجلس، فتقدم الوالي بالكتاب، وأعطاه إياه، فقرأه فإذا فيه طلب والي مكة من الإمام مالك أن يعلم الشافعي الفقه والحديث «إن هذا رجل من أمره وحاله فتحدِّثه، وتفعل، وتصنع»..

فرمى بالكتاب من يده، ثم قال: سبحان الله! أوَ صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالوسائل (الواسطة)؟

يقول الشافعي: فإذا الجميع سكوت، وإذا الوالي قد تهيبه أن يكلمه..

فتقدمتُ إليه وقلتُ: أصلحك الله، إني رجل مطلبي، ومن حالتي وقصتي، وبدأتُ أصفُ نفسي وطلبي للعلم وعمن أخذتُ..

فلما سمع كلامي نظر إليّ ساعة، وكان من أصحاب الفراسة، فقال لي: ما اسمك؟

فقلت: محمد..

فقال: يا محمد اتقِ الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشؤون.

لم يكن الإمام مالك يخشى حاكماً ولا والياً، بل كانت الولاة والحكام يهابونه ويحسبون حسابه. وكان يتعامل معه بأسلوب يجعلهم يحترمون مكانة الدين والعلم، ويفرض عليهم احترامه..





هيبة العلماء له

ويروي سعيد بن هند الأندلسي يقول: ما هبتُ أحداً هيبتي عبد الرحمن بن معاوية (أي عبد الرحمن الداخل) صقر قريش، وكان سلطان الأندلس، فدخلتُ على مالك فهبته هيبة شديدة، صغرَتْ معها هيبة ابن معاوية.

وقال الشافعي: ما هبتُ أحداً قط هيبتي من مالك بن أنس، حين نظرتُ إليه..

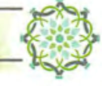
وكان سفيان الثوري رحمه الله في مجلس الإمام مالك فأخذته هيبته وقال في ذلك شعراً:

يأتي الجوابَ فلا يُرَاجَعُ هيبةً ... والسَّائلونَ نَوَاكِسَ الأذْقَانِ

أدَبُ الوَقَارِ وعِزُّ سُلطَانِ التُّقَى ... فَهُوَ المَهِيْبُ وليسَ ذَا سُلْطَانِ

وقال زياد بن يونس: ما رأيتُ قط عالماً، ولا عابداً، ولا شاطراً، ولا والياً، أَهْيَبَ من مالك..

وقال سعيد بن أبي مريم: ما رأيتُ أشدَّ هيبةً من مالك، لقد كانت هيبته أشدَّ من هيبة السلطان..



إمام في الفقه والحديث والأخلاق

شمائل من الصحابة

لا ينبغي أن يسبق العلمُ الأدبَ، بل ينبغي أن يكونا كفَرَسي رهان، أو كلما ازداد علماً ازداد معه أدباً وخُلقاً..

ولا خير في علم امرئ لم يكسبه أدباً، فالعالم أسوة، وقد يكون حجّة من لا حجة له، فإذا رأى الناسُ العالِمَ يشارك الغوغاء في عاداتهم ولهوهم وما تعارفوا عليه من حياتهم، اتخذوه قدوةً وحجة..

قال مالك لفتىً من قريش: يا ابن أخي تعلَّم الأدب قبل أن تتعلَّم العلم..

وإذا رأوه يترفع عن السفلة، ولا يدخل فيما لا يعنيه، ويتجنب أن يرى الناس ما لا يليق بعلمه وقدره، ويجاهد نفسه ليكون سراً وإعلاناً قد طبّق شريعة الله، وتأدّب بأدب رسول الله ﷺ، كان للناس منه موعظةً بحاله قبل قوله..

وهذه صفة العالم وريث النبوة..

ولقد كان مالك عالماً جليلاً يأخذ نفسه بأعلى الآداب، وأفضل الأخلاق، حتى قال ابن وَهْب: الذي تعلّمنا من أدب مالك أكثر مما تعلّمناه من علمه (وقد تعلموا منه علماً كثيراً)..

وهذا يحيى بن يحيى من تلاميذ الإمام مالك، جلس يتلقى العلم من الإمام مالك سنين، فلما انتهى من سماع الأحاديث التي يريدها، ومن الفقه الذي يريده، جلس سنة أخرى، ولما سُئل عن ذلك قال: أقمتُ عند مالك بن أنس بعد كمال سماعي منه سنة أتعلّم هيأته وشمائله، فإنها شمائل الصحابة والتابعين..

شمائل مالك هي شمائل الصحابة والتابعين، فهو قد نقل علمهم وعاش حياته مقتدياً بأخلاقهم..

ويكفي في ذلك ما قاله الإمام الشافعي: «مالك معلمي وأستاذي، ومنه تعلمنا العلم، وما أحدٌ أمنَّ عليَّ من مالك، جعلت مالكاً حجة فيما بيني وبين الله تعالى».

هذا هو مالك بن أنس صاحب الهيبة التي جعلت الحكام يقفون ببابه، ولا يؤذَن لهم إلا بمشقة، وجعلت كبار خلفاء بني عباس كهارون الرشيد يجلسون منه مجلس التلميذ من الأستاذ، ويتحملون منه ما لم يتحملوه من أحد.

أما العالم الذي ينافق ويُداهن فتذهب مهابته عند الكبار والصغار، عند العامة وعند الحكام..

الخلفاء يجلسون من الإمام مالك مجلس التلميذ من الأستاذ، لما أراد الآخرة صغرَتْ الدنيا أمامه..





إمام في الحديث وإمام في الفقه

إن علم الحديث لم يكن قد تميز تميزاً كاملاً عن الفقه، بل كانا مختلطين، الفقيه يروي الأحاديث التي يبني عليها استنباطه فيكون محدثاً بما يرويه، وفقيهاً بما يستنبطه..

بيد أن بعض الفقهاء كان يغلب عليه الإفتاء، وبعضهم كان يغلب عليه الرواية، ولعلك لا تجد عالماً قد اجتمعت فيه الصفتان بقدر كامل، ويكاد يكون متساوياً في الناحيتين كمالك رحمه الله، فهو الحافظ المحدِّث الذي كان من أول مَن نبَّه لضرورة تمييز مراتب الرجال لقبول أحاديثهم، ودرس المرويات دراسة ناقد فاحص..

وهو إلى هذا إمام دار الهجرة في الفقه والإفتاء، وتشدّ الرحال لسماع فقهه واستفتائه في المسائل المختلفة..

يروي عبد الرحمن بن مهدي: أئمة الحديث الذين يُقتدى بهم أربعة: سفيان الثوري في الكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحمّاد بن زيد بالبصرة؛

أما الثوري فإمام في الحديث وليس إماماً في السنة..

والأوزاعي إمام في السنة وليس إماماً في الحديث..

وأما مالك فإمامٌ فيهما..

والإمام مالك بالإضافة إلى تمكنه في الفقه وفي الحديث، كان صاحب اجتهاد، بل كان يعتبر من أئمة الرأي والاجتهاد في بداية أمره، ثم فيما بعد التزم طريق النقل والأثر وقلّل من الاجتهاد والرأي.

الإمام مالك من أئمة الحديث، وإمام في السنة، ومن أئمة الرأي والاجتهاد، فجمع العلوم وتمكن منها..

إمام في الأدب والأخلاق

عبد الله بن وهب، إمام مصر الجليل، تتلمذ على الإمام مالك عشرين سنة، يقول عن نفسه: تلقيتُ العلم في عام، وتسعة عشر سنة صاحبتُ الإمام مالكاً لأتعلم منه الأدب (أي الأخلاق)، ثم يقول: ويا ليتها كلها كانت في الأدب.

تسعة عشر سنة يتلقى فيها عبد الله بن وهب الأخلاق من الإمام مالك، وسنة واحدة يتلقى فيها العلم.
فانظر إلى إمامته في الأدب والأخلاق، وصعوبة تلقيهما بالمقارنة مع تلقي العلم..



الإمام مالك يؤدب ابن وهب

بينما كان عبد الله بن وهب جالساً في حلقة الإمام مالك وهو شاب صغير، فإذا رجل يفتح باب المسجد ويصرخ: فيل، فيل.. أي دخل فيل في قافلة قادمة من الهند إلى المدينة، فكل من كان في الحلقة تركوا كتبهم وقاموا ينظرون إلى الفيل، وإذا بالإمام مالك بقي في الحلقة وحده، ولم يبقَ في الحلقة سوى عبد لله بن وهب، فتعجب الإمام مالك والتفت إليه وقال: لِمَ لَمْ تخرج وتنظر إلى الفيل كغيرك؟!

قال: يا إمام ما جئتُ من مصر إلى هنا لأرى الفيل، بل لأراك..

ومن هنا عرف الإمام مالك مكانة عبد الله بن وهب، وبدأ يعطيه اهتماماً خاصاً..

وظهر هذا التأديب الخاص عندما كان عبد الله بن وهب جالساً في حلقة الإمام مالك، وفي منتصف الدرس قام عبد الله بن وهب وذهب نحو ناحية المسجد وصلى ركعتين، ثم عاد إلى مكانه، فرآه الإمام مالك، وقال: ماذا فعلتَ يا ابن وهب؟

قال: نسيتُ سنة الظهر فقمتُ وصليت ركعتين..

فقال الإمام مالك: والله ما الذي قمتَ إليه بأكثر أجراً مما قمتَ منه.

فانظر وتأمّل كيف يعلمه فقه الأولويات؛ فالدرس عندما يبدأ أعظم أجراً من صلاة النافلة، فالنافلة قد تعوّض، وأما ما فات من العلم فقد لا يتكرر وقد لا يجده عند غيره..

إذاً من فقه الأولويات أن تعرف المنهج العلمي فيمَ تقدّم وفيم تؤخر.. لخصه الإمام مالك في كلمات لأنه يتحدّث لابن وهب (الذي صار عالِم مصر فيما بعد)، فكفته ليعلم فقه الأولويات..

عرف الإمام مالك مكانة ابن وهب، وبدأ يعطيه اهتماماً خاصاً، وكان مما علّمه له فقه الأولويات..







العلم لا يورَّث

كان للإمام مالك أربعة أولاد: يحيى ومحمد وحمّاد وفاطمة..

وكانت فاطمة من شدة علمها وفقهها تحفظ موطأ مالك بإتقان شديد، وكانت تجلس خلف الباب عندما يقرأ تلاميذ الإمام مالك عليه، فأحياناً يخطئ أحد التلاميذ ولا ينتبه الإمام مالك، فتنقر الباب فينتبه ويجعل التلميذ يعيد..

فانظر إلى المكانة العلمية العظيمة لهذه الفتاة الصالحة فاطمة بنت مالك، وانظر وتأمل كم قضى الإمام معها من الوقت ليعلمها..

وفي الوقت نفسه كان أحد أبناء الإمام مالك (لم يُسمَّ من هو) بعيداً كل البعد عن العلم، وكان مشغولاً بالصيد،حتى يروون أنه دخل على الإمام مالك وعنده تلاميذ، وبيده باشق (نوع من الطيور الجارحة) وفي رجليه نعل كيساني من النعال المترفة، وسراويله مرخاة، وأبوه يحدِّث، فلم يجلس بل انشغل بالطير والصيد..

فكان الإمام مالك يتألم ويحاول تشجيعه على العلم، ولكن مع كل المحاولات لم يرغب هذا الولد في العلم، فكان الإمام مالك يقول لتلاميذه: إنما الأدب أدب الله، هذا ابني وهذه ابنتي، بيت واحد ونشأة واحدة، ولكن هذا الابن انشغل بالتفاهات، وهذه البنت انشغلت بالعلم، ثم يقول: مما يهوِّن عليّ أن هذا العلم لا يورَّث، وأن أحداً لم يخلف أباه في مجلسه إلا عبد الرحمن بن قاسم..

فكثير من الأبناء لا يصبحون في مكانة آبائهم في العلم وفي الوجاهة بين الناس.

ولعلّ هذا يشير إلى ضرورة أن يخصص العلماء والدعاة الكبار شيئاً من وقتهم وجهدهم لأولادهم ولتحبيبهم بالعلم منذ الصغر، أما الانتظار حتى يكبروا فقلما يجدي، حيث تكون هواياتهم واهتماماتهم ورغباتهم قد تشكلت فيصعب تغييرها..

ورغم أن العلم لا يورَّث إلا أننا رأينا في التاريخ أسراً علمية، فالعلم لا يورَّث أمر صحيح، ولكن وجود المناخ العلمي الذي يتشكل في جلسات علم، وعلماء في المنزل، ومكتبة عامرة، وإجابات من العالِم لأهله وأولاده، أو تصحيح لمواقف علمية حتى على جلسة غداء، كل هذا يشكِّل مناخاً علمياً ييسر طلب العلم للأبناء ويساهم في زرع حب العلم في قلوبهم..



أولاد الإمام مالك: يحيى ومحمد وحمَّاد وابنته فاطمة كانت فقيهة عالمة تحفظ الموطأ بإتقان. بينما أحد أولاده لم يطلب العلم وانشغل بالصيد، فالعلم ليس بالوراثة..



الباب الثالث

العلاقات مع الدولة

- الفصل الأول: العالم العزيز
- الفصل الثاني: مالك والحكام

الفصل الأول

الباب الثالث



الفصل الأول

العالم العزيز



قَبول هدايا الخلفاء

لم تبين كتب المناقب والأخبار موارد رزق الإمام مالك، ولا موارد رزق أسرته ببيان كامل واضح، لكن جاءت أخبار منثورة يكشف مجموعها عن موارد رزقه.

ولقد ذكر العلماء أن أباه كان يصنع النبال، ولكن لم ينشأ ابنه مالك على هذه الصناعة، بل اتجه إلى رواية الحديث كما صنع أعمامه وأخوه، ومع أن أخاه قد كان من طلاب الحديث ورواته،إلا أنه كان من تجار الحرير، وقالوا: إن مالكاً كان يعينه في تجارته، وإن ذلك لم يمنعه من اشتغاله بالعلم، فقد قال تلميذه ابن القاسم: «إنه كان لمالك أربعمائة دينار يتجر بها، فمنها كان قوام معيشته».

ومهما يكن من أمر تلك الأخبار فإنه من المؤكد أن مالكاً في أثناء طلبه للعلم، كان يعيش في قل من المال، حتى إذا استوى في مكانه من العلم، واتصل أمر علمه بالخلفاء والولاة، وذاع فضله، آتاه الله بسطة من العيش، إذ كان يقبل عطاء الخلفاء ولا يقبله ممن دونهم، وهو يختلف في ذلك عن الإمام أبي حنيفة.

فبينما نجد أن الإمام أبا حنيفة النعمان كان يرفض أي أعطيات، أو هبات أو هدايا من الحكام في زمانه، كان الإمام مالك له دخل كبير يهيئ له أسباب النعمة والحياة الرغيدة، وكان معظم هذا الدخل من أعطيات الخلفاء الذين كانوا يعطونه بسخاء، حتى إن خليفة معروف بحرصه الشديد، وهو أبو جعفر المنصور، كان يعطي الإمام مالكاً ستة آلاف دينار، دع عنك أعطيات المهدي، وأعطيات الرشيد.. وكان مالك يُسأل عن شرعية قبول مثل هذه الهدايا، فيقول: إنه يستحلها لذاتها، أما مصدرها فكل إنسان مسؤول عن مصدر أمواله، ولا يرى حرجاً في أعطيات الخلفاء للعلماء.

قَبلَ الإمام مالك أعطيات الخلفاء ولَم ير حرجاً فيها، بخلاف الإمام أبي حنيفة الذي كان يرفضها ويأباها..

مناهج مختلفة

نذكر هذا حتى نعرف أحياناً أنه الذين يذكرون التاريخ يروون جزءاً منه، ويصورون العلماء أنهم فقط أولئك الذين يدخلون على الخلفاء فيتكلمون الكلام الشديد القوي ويرفضون أي أموال منهم، حتى صار الشباب يظنون أن من لا يفعل ذلك فهو ليس من العلماء، وأن من يقبل هدايا الحكام قد باع دينه لهم..

نعم هذه صورة موجودة ولها مكانته وفضلها، ولكن هناك أيضاً صورة أخرى كالإمام مالك الذي كان يتعامل مع هؤلاء الخلفاء وينصح لهم، ويقبل هداياهم وأعطياتهم، ويتعامل معهم بكل عزة، فما كان أبداً يتهافت عليهم، وما كان يتصاغر أمامهم لا بالقول ولا بالعمل، وكانت طبيعة العلاقة معهم دائماً طبيعة نصح، وكان كإمام عظيم من أئمة السنة يحرص أن يبقى للعلم إجلاله..

فإذاً هناك صور شتى، وليس نموذجاً واحداً، ولا يجوز الطعن بأحد منهم، بل ننظر إلى العلم والفتوى، ونترك النيات لله تعالى..

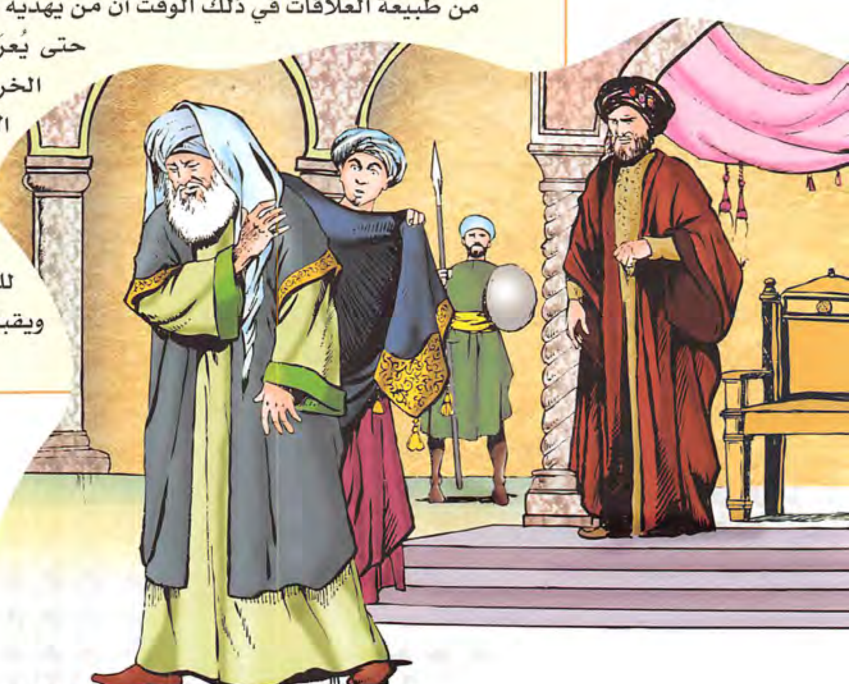
ما كانت أعطياتُ الخلفاء لتُذلّ الإمام مالكاً، بل كان يتعامل معهم بكل عزة ووقار، وللعلماء في التعامل مع هدايا وأعطيات الخلفاء والحكام مناهج مختلفة، والمهم هو صفاء الدين والعلم، ولا ندخل في النيات..

إجلال العلم

أمرَ المنصور مرةً للإمام مالك بخمسة آلاف دينار، وملابس عظيمة، وأمر لولده محمد بألف دينار، وكان من طبيعة العلاقات في ذلك الوقت أن من يهديه الخليفة ملابساً يضعون له مثل العباءة على كتفيه حتى يُعرَف أن الخليفة أنعم عليه، فلما أراد الإمام مالكاً الخروج، جاء الخادم ليضع الكسوة على كتفيه فانحنى الإمام مالك وأسقطها أمام الخليفة وعلى مرأى من الناس، ففهم الخليفة المقصود، فقال المنصور للخادم: ألحقها برحل أبي عبد الله..

ورفض الإمام مالك ذلك لأن فيها نوعاً من الإذلال للعالم، فالخليفة يجب أن يفعلها وهو يعز العالم، ويقبلها العالم وهو يعزّ العلم.

إن قَبل الإمام مالك الأعطيات فإنما يقبلها وهو يعزّ العلم، وبذلك يفرض احترام العلم والعلماء حتى على الحكام..





هدايا العلماء

ومن مصادر أموال الإمام مالك أيضاً: الهدايا التي كانت تأتيه من كبار العلماء، وكان الليث بن سعد إمام مصر ثرياً جداً، قد جمع الغنى من أطرافه: غنى العلم، وغنى النفس، وغنى المال.
فكان يرسل الهدايا الكبيرة والدنانير الكثيرة للإمام مالك، وكان مالك يقبلها بصدر رحب لأنها من أخيه العالم الذي يعرف للعلم قدره..
فحياة الإمام مالك كانت حياة ثراء، وكانت له أموال يتاجر بها، وكان يحب أن تظهر هذه النعمة عليه.

من مصادر أموال الإمام مالك هدايا العلماء الكبار، بالإضافة إلى أموال يتاجر بها.



العلم يؤتى ولا يأتي

عاصر الإمام مالك ثلاثَ عشرة خليفة، حيث كان من المعمرين، خمسة من الخلفاء العباسيين، وقبلهم ثمانية من الخلفاء الأمويين..
لذلك كانت له علاقات كبيرة وواسعة مع هؤلاء الخلفاء، وكان أصل هذه العلاقة اعتزازه بنفسه، واحترامه لذاته، وتقديره للعلم الذي يحمله..
وكان يقف منهم موقف الأستاذ الناصح، الواعظ، الزاجر أحياناً..
كان يفعل هذا مع الخلفاء، وأي خلفاء! خلفاء وصلوا أن حكموا الدنيا، من أمثال: المنصور، الرشيد، المهدي... وهؤلاء من أعظم الخلفاء العباسيين شأناً، وأشدهم بأساً، وأثبتهم حكماً، وأكثرهم علماً، حيث كانوا حكاماً تربوا على العلم، وكانوا من أهل الحرب والسلام، وكانوا يحرصون على تعليم أولادهم العلم، حتى يديروا شؤون الدولة بالعلم، وأكثر من خليفة طلب من الإمام مالك أن يكون معلماً لأولاده، وكان يرفض ذلك ويستعصي عليهم، ليس بخلاً بالحديث، وإنما كان يرى أن العلم يُزار ولا يزور، ويُؤتى ولا يأتي..
كان لا يتهافت على الحكام ولا يطلب منهم شيئاً، ولا يتضاءل أمامهم ويقلل من شأن نفسه، فكان يعرف قدر نفسه، وقدر علمه وقدر كرامته من العلم، فنال احترام العامة واحترام الخلفاء.

وقف الإمام مالك من الخلفاء موقف الأستاذ الناصح، ولم يتضاءل أمامهم، عرف قدر علمه وكرامته، فنال احترامهم وتقديرهم، ورفض أن يأتيهم، بل هم يأتونه تقديراً واحتراماً للعلم.



أولاد الخلفاء

يُروى أن المهدي بعث للإمام مالك ثلاثة آلاف دينار ومعها رسالة: إن جاءتك هذه الأموال أريدك أن تأتيني..

فلما وصلت الأموال ومعها هذه الرسالة؛ رفض أن يأخذ الأموال، ورفض أن يذهب إلى بغداد، وكان لا يخرج من المدينة..

فما هي إلا عدة شهور حتى بعث إليه المهدي ستة آلاف دينار دون شرط، فقال: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً مما ترك..

وكان هذا سبباً لاحترام الخلفاء له، فكانوا يرسلون أولادهم من بغداد إلى المدينة ليتلقوا العلم على يديه..

فهذا المهدي يبعث بولديه: موسى وهارون، وكلاهما صار خليفة فيما بعد، ليدرسوا على يد الإمام مالك..

وهارون الرشيد بعد أن صار خليفة بعث بولدين من أولاده ليتلقيا العلم على يد الإمام مالك..

فكانت علاقته مع الخلفاء بهذه الرفعة، وبهذا الجلال، وكان يقسم فيقول: ما دخلتُ على أحد من هؤلاء الخلفاء إلا أذهب الله هيبته من قلبي حتى أقول له الحق.

أرسل الخلفاء أولادهم إلى المدينة ليتلقوا العلم على يد الإمام مالك، وكان الإمام عزيزاً أمامهم.



الدخول على السلاطين

إذا بلغ العالِمُ مبلغ مالك فله مبررٌ في الدخول على السلاطين، فإنه المتمكن من نفسه، ولم يُعهد عنه أنه سكت عن منكر أو ترك الأمر بالمعروف، أو ساوم على دينه، أو أشار بغير ما يُرضي الله، بل كان حافظاً لمقام العلم، شريفاً بشرف ما يحمل، فإن كان للأمراء سلطانُ الزمن، فللعالِم الإمام سلطانُ العلم، ومنه يستمد كل سلطان، ولما قيل للإمام مالك: إنك تدخل على السلاطين وهم يظلمون ويجورون..

فقال: -رحمك الله- وأين المتكلم بالحق؟ فقد كان من رأي مالك أن يدخل على السلاطين والأمراء العالِمُ الذي يصدع بالحق، وليس عليه بذلك بأس، وكان مالك يقول: «حقٌّ على كل مسلم جعل اللهُ في صدره شيئاً من العلم والفقه أن يدخل إلى كل ذي سلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر، ويعظه، حتى يتبين دخول العالِم من غيره، لأن العالِم إنما يدخل على السلطان لذلك، فإن كان فهو الفضل الذي ما بعده فضل».

دخول العالم على السلطان ليأمره بالخير وينهاه عن الشر بخلق وأدب، وليس في نفسه حرص على الدنيا..

مالك والقضاء

دفع مالكاً إخلاصه ونزاهته إلى ألا يفتي في مسائل تتصل بالقضاء وأحكامهم فقال تلميذه ابن وهب: «سمعت مالكاً يقول فيما يُسأل عنه من أمر القضاء: هذا من متاع السلطان».

فهو ما كان يتعرض لأحكام القضاء بنقد، وهذا موقف يختلف فيه عن أبي حنيفة رحمهما الله وكلاهما كان في مذهبه مخلصاً ــ فمالك لم يتعرض لأحكام القضاة علناً؛ لأن التعرض لها بالنقد على الملأ من تلاميذه وأصحابه يجرئ الناس على عصيانها، فتذهب هيبتها وجلالتها، ومخالفته لها يؤدي إلى إضعاف هيبة الحكم والقانون، وما دام القضاء مبنياً على أحكام شرعية فلا حرج حتى لو كان رأيه مخالفاً لها، ومن هنا كان عدم تدخله في القضاء، وتعليقه عليه بأنه من متاع السلطان، ومالك -رحمه الله- يجمع إلى موقفه هذا أنه كان يوالي النصح للقضاة، ويرشدهم فيما بينه وبينهم إلى الحق الصريح الذي لا مجال لإنكاره، فهو يهديهم من غير ما تنقيص ولا تهوين للأحكام، فانظر إلى الحكمة والتوازن.

مواقفه مع الخلفاء

كان الإمام مالك إذا دخل على أبي جعفر المنصور لا يجلس في أي مكان، وإنما ينبه أنه دخل فيقول: أين أجلس؟

فيقول المنصور: إليَّ ها هنا يا أبا عبد الله، فيدنيه حتى يلصق ركبتيه بركبتيه، ويقول: حقيق أنت بكل خير، حقيق بكل إكرام، فانظر إلى العالم عندما احترم نفسه، واحترم علمه، كيف فرض هيبته واحترامه حتى على أعظم الخلفاء والحكام في زمانه، وصار ذكره خالداً ومنهجه قدوة على مدى الزمان..



عندما يمتلئ المكان

ومثل هذا كان يحدث في مجلس هارون الرشيد والمهدي، قدم المهدي المدينة، فجاءه الناس يسلمون عليه، وأخذوا مجالسهم، ثم جاء الإمام مالك فوجد المجلس غاصاً بالناس، وكان يرى أنه ليس من مكانة العلم الذي معه أن يجلس في مؤخرة الناس، وليس من الأدب أن يتخطى رقاب الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، أين يجلس شيخك؟

فقال المهدي: عندي يا أبا عبد الله، فيفتح له الناس حتى يصل إليه، ورفع المهدي ركبته اليمنى وأجلسه بجواره، فانظر إلى الأدب والخلق والهيبة والاحترام، هكذا كان مالك مع الخلفاء لا يجلس إلا بجوارهم، ولكنه في المسجد يصلي حيث انتهى به المجلس، وعند سماع العلم يجلس حيث انتهى به المجلس أيضاً..

كان مالك يحترم العلم الذي معه، فاحترمه العامة والخاصة، حتى كان الخلفاء يجلسونه قربهم تقديراً له.

رفض التقاليد الملكية الخاطئة

وكان الإمام يأبى أن يتعامل مع الخلفاء بالتقاليد الملكية التي يتعاملون بها، حيث كان من شأن الأعيان والشرفاء وكبار بني هاشم أنهم إذا انصرفوا من عند الخليفة قبلوا يده أو كمه، فكان الإمام مالك لا يفعل ذلك، بل يسلم وينصرف.

وفي أحد المجالس عطس المنصور، فكانوا من شدة احترامهم للخليفة لا يشمتونه (أي لا يقولون: يرحمك الله) وكان الإمام مالك جالساً، فلما عطس المنصور، قال له: يرحمك الله، ورد عليه المنصور رداً حسناً، فلما انصرف خرج معه واحد من بطانة الخليفة ومن أعيانه، فقال له: لا ينبغي لك أن تشمت الخليفة أمام الناس، فسكت الإمام مالك، وفي مجلس آخر عطس المنصور، فالتفت الإمام مالك إلى الحاجب، ثم التفت إلى الخليفة وقال: أي حكم تريد يا أمير المؤمنين، حكم الله أم حكم الشيطان؟

فقال: لا، بل حكم الله..

فقال الإمام مالك: يرحمك الله.



كان الإمام مالك لا يترك عملاً أو حكماً خوفاً من خليفة، ولا يتعامل مع الخلفاء بالتقاليد الملكية إذا كانت تقلل من شأن العالم وتعامله كمعاملة الآخرين.

الفصل الثاني

- المحنة في عهد المنصور
- مع هارون الرشيد
- وعظه للخلفاء ووصاياه لهم

الباب الثالث



الفصل الثاني

مالك والحكام

المحنة في عهد المنصور

مع بُعد الإمام مالك عن الفتن، وامتناعه عن تأييدها، نزلت به محنة شديدة في عهد أبي جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين، وقد اتفق المؤرخون على نزول هذه المحنة بهذا العالم الجليل، ولكنهم اختلفوا في سبب هذه المحنة..

والسبب المعقول هو أنه لما حدثت ثورة محمد ذي النفس الزكية (من أهل البيت)، سُئل الإمام مالك عن مسألة فقهية: إذا استُكره إنسان على الطلاق، هل يقع الطلاق؟

فأجاب الإمام مالك: ليس على مُستكرِه طلاق (أي أن طلاق المجبَر على التطليق لا يقع لأنه مكرَه، وقد رُفع عن الأمة ما استكرهوا عليه)..

طبعاً المسألة من الناحية الفقهية ليس فيها شيء، لكنها عندما تُثار وتُنشر في هذه الفترة الحرجة، فقد أدت أن فهم بعض الناس منها أن الذي يبايع الخليفة مُستَكرَهاً أيضاً ليس عليه بيعة،فعندها تحرَّك بعض الناس إلى والي المدينة جعفر بن سليمان بن عبد الله بن عباس يقولون: إن مالكاً لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء (أي أن القسم واليمين الذي يعطى للخليفة من قِبَل إنسان خائف على نفسه من أذى الخليفة فهو يمين وقسم وبيعة من مكره، ولما كان طلاق المكره لا يقع فكذلك بيعة المكره للخليفة لا تقع وليس لها قيمة)..

فغضب جعفر، وأمر أن يؤتى بالإمام مالك، وسأله عن فتواه، فقال الحديث: «رُفع عن أمتي الخطأ عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه»..

فسأله عن الخلافة، فلم يُجب بل كرر وقال: ليس على مستكره طلاق، فعرف موقفه من هذه القضية وهو أن البيعة يجب ألا تؤخذ بالتهديد، وأن المستكرَه لا تقع عليه الأحكام، وفي هذا زلزال لوضع الحكام الذين كانوا يجبرون الناس على بيعتهم..

وسأله رجل سؤالاً آخر: هل يجوز قتال الخارجين على الخلفاء؟

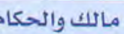
فأجابه جواباً في منتهى الذكاء قال: يجوز قتال الخارجين على الخلفاء إذا خرجوا على أمثال عمر بن عبد العزيز..

قال: فإن لم يكونوا مثله؟

قال: دعهم، ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما.

كان الإمام مالك إذا سُئل عن شيء أجاب دون أن يخشى أحداً، وكانت فتاواه الفقهية لها آثار سياسية واسعة، مما أخاف الحكام، وأدى إلى ابتلاء الإمام ليرجع عن آرائه.







ثبات الإمام مالك أجبر الخليفة على التراجع لالتفاف الناس حول العالم.

ضرب الإمام وإيذاؤه

وبناءً على هذا أمرَ جعفر بن سليمان والي المدينة أن يؤذى الإمام مالك، ليرجع عن آرائه الخطيرة على الحكم، فأُخذ وضُرب بالسياط، وجروه من يده حتى خُلعت كتفه، ليرجع عن فتواه فلم يرجع..
واشتعلت المدينة غضباً أن يُضرَب هذا العالِم الجليل، والإمام الكبير على فتوى فقهية أجاب عليها..
وبدأ الغليان في المدينة، وكادت المدينة كلها تثور..
ووصلت الأخبار إلى أبي جعفر المنصور، فشعر أنه لا بدَّ أن يتصرف، فأمر بعزل الوالي وإهانته، وأن يؤتى به إلى دار الخلافة محمولاً على الخشب، وأعلن هذا أمام الناس، وأمر بإكرام الإمام مالك، وأن يؤتى به مكرماً إلى دار الخلافة فاعتذر الإمام مالك وقال: لا أخرج من المدينة.

الخليفة يسترضي الإمام

ولم يخرج الإمام مالك في كل حياته من مدينة النبي صلى الله عليه وسلم (إلا إلى الحج أو العمرة)، فعندها عزم أبو جعفر المنصور أن يأتيه، واستغل فترة الحج، ومن الحج ذهب إلى المدينة، وزار الإمام مالكاً وأكرمه إكراماً عظيماً، وظلَّ يسترضيه إلى أن رضي وعفا عما حدث له..

الإمام مسؤول عن الرقابة على ولاة الحجاز

كانت المدينة ستشتعل لولا أن أبا جعفر المنصور بذكائه السياسي استدرك الأمر، وعلم أن إهانة العلماء ستأتي بمردود عكسي عليه، فعرف كيف يعامل هؤلاء الكبار، وأصدر تعميماً على كل الحجاز، وأرسل رسالةً إلى الإمام مالك يقول فيها: إن رأيت ريبة من عامل المدينة، أو عامل مكة، أو أحد عمال الحجاز في ذاتك، أو في ذات غيرك، أو سوء السيرة في الرعية، فاكتُب إليَّ في ذلك أُنزل بهم ما يستحقون، وأكتب إلى عمالي أن يسمعوا إليك ويطيعوك في كل ما تعهد إليهم، فانههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف تؤجر على ذلك، وأنت خليقٌ أن تُطاع ويُسمع منك.

اعتذر أبو جعفر المنصور من الإمام مالك، واسترضاه، وأمرَ عماله بطاعته، وطلب من الإمام مراقبتهم.

كان الإمـام مالك يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا يخاف في الله لومة لائم، بل كان يوجه حتى للخلفاء..



هذه المكانة والهيبة التي كانت للإمام مالك جعلت الخليفة يأمر الولاة جميعاً أن يطيعوه، وجعلته مشرفاً على عماله، وكان الإمام مالك يفعل أكثر من ذلك، رفع المنصور يوماً صوته في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم دون أن يشعر، فقال له الإمام مالك: «يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي» (الحجرات 2).. فاستحيا المنصور وخفض صوته.



مع المهدي

هكذا كانت معالم شخصية الإمام مالك، كان عزيزاً وجيهاً، يعرف قدر العلم، فأجبر هؤلاء الخلفاء على احترام العلم..

وكذلك سار المهدي على نهج أبيه المنصور في احترام الإمام مالك، بل أكثر من ذلك، زاره في بيته، ولم يكن شأن الخلفاء أن يزوروا العلماء في بيوتهم، فلما استأذن الخليفة حبسه الإمام مالك عند الباب ساعة، فلما دخل كان هذا الاعتذار اللطيف من الإمام مالك قال: يا أمير المؤمنين، إن العيال سمعوا بمجيئك فأحبوا أن يصلحوا منزلهم.

فانظر إلى الأدب واللطف وحسن الاعتذار وحسن الإكرام، وتأمل في التعامل بين العالم والحاكم، فليس فيه غلظة ولا شدة، بل إكرام واحترام متبادل..

وفي مجلس المهدي لما زار المدينة، طلب الإمام مالك ماء فجيء بإناء من زجاج له حلقة من فضة، وكانت هذه آنية الخلفاء والملوك، فرفض أن يشرب به، وجاؤوا بآنية من فخّار فشرب به، وانتبه الخليفة أنه لا يجوز الشرب بآنية الفضة، فأمر بالحلقة فنُزعت من الكأس..

هكذا كان الإمام مالك يحرص على أن يطبق العلم ولا يجامل فيه حتى مع الخلفاء والكبار.

وانظر وتأمل كيف نبّه إلى المنكر من خلال الممارسة وليس بالقول الشديد..

لم يجامل الإمام مالك في العلم حتى مع الخلفاء والكبار، وكان بينه وبينهم احترام متبادل..



مع هارون الرشيد

كان الرشيد من أكثر الخلفاء العباسيين حجاً، وكلما حج زار المدينة، فالتقى بالإمام مالك عدة مرات، في إحدى هذه المرات طلب الرشيد من الإمام مالك أن يأتي إليه ويحدثه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفض، وقال العلم يُزار ولا يزور، فقبل الخليفة ذلك وجاء إلى بيت مالك، وعندما دخل البيت، دخل الإمام مالك فاغتسل وتطيب ولبس ثياباً جديدة كعادته عندما يحدّث بحديث النبي صلى الله عليه وسلم، ثم التفت إلى الخليفة وقال: هات (عمَّ تسأل)؟

قال: تقرأ عليّ (أي اقرأ عليّ من أحاديث الرسول ﷺ تختارها لي بشكل خاص)..

قال مالك: ما قرأت على أحد منذ زمان (أي لا أخص أحداً بالقراءة من الأحاديث)..

قال الخليفة: إذن أخرج الناس عني حتى أقرأ الحديث عليك (أي دعني أقرأ عليك بشكل خاص) -حتى إذا أخطأ الخليفة لا يحرج أمام الناس-..

فقال الإمام مالك: إن العلم إذا مُنع عن العامة لأجل الخاصة لم ينتفع به الخاصة..

قال الخليفة: فأمُر بعض أصحابك يقرؤه..

فأمر الإمام مالك المغيرة بالقراءة والرشيد يسمع، وقبل أن يأمره بالقراءة التفت إلى الخليفة فقال: يا أمير المؤمنين من تواضع لله رفعه، ومن إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم، فقام الرشيد وجلس على الأرض بين يدي الإمام مالك.

وهذا فيه معنى جليل، فهذا الخليفة رغم أنه يحكم الأرض، ويقول للسحابة: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك، لما جاء يطلب العلم تواضع، فهذا من شأن الحكام العقلاء الذين يعرفون قدر الدين ومكانته. فانظر إلى تقدير الحكام للعلماء، واحترامهم للعلم..



حضور الخليفة مجلس الإمام مالك، وجلوسه بين يديه على الأرض تواضعاً للعلم وإجلالاً للعالِم.

فتوى جريئة

ومن الطرائف التي حدثت بين الإمام مالك وهارون الرشيد: أن الرشيد في أحد الأيام حلف ثم حنث بيمينه (لم يوف)، فاستشار ماذا عليه، فأجمعوا أن عليه عتق رقبة، فسأل الإمام مالكاً في هذه اليمين، فقال: عليك صيام ثلاثة أيام، فتعجب الرشيد، وتعجب العلماء، فكفارة اليمين: عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام..

فقال الرشيد: أأنا مُعْدَم؟ قال تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام﴾ (المائدة 89)، فردَّ مالك رداً في منتهى القوة فقال: يا أمير المؤمنين كل ما في يدك ليس لك، فعليك صيام ثلاثة أيام (فهذه الأموال التي في يدك ليست ملكك الشخصي، هذه أموال الأمة فلا يجوز لك إنفاق الأموال العامة على أمورك الشخصية ولو كانت أمور الدين).

فانظر وتأمل في هذه الفتوى وصيانتها لأموال الأمة من تلاعب أهل الشأن بها، أو استعمالها لأمورهم الخاصة، وهناك معنى آخر: هذه فتوى في منتهى القوة وفي منتهى الجرأة، عتق رقبة لخليفة يملك آلاف الرقاب أمر عادي، وأمر سهل، والأصل في الكفارات الإحساس بالعقوبة، الإحساس بالجزاء، فلو أعتق رقبة لم يتأثر، فأراد الإمام مالك أن يشعره بعظمة الحلف بالله رب العالمين..

بالإضافة لأن يعلمه مبدأ آخر، هو أن هذه الأموال التي في يده ليست له وإنما هي لله ثم للمسلمين.

الأصل في الكفارات الإحساس بالعقوبة والجزاء، والأموال التي في يد الخليفة ليست ملكه، إنما هي أموال الأمة، فلا يجوز للخليفة إنفاقها على احتياجاته وأموره الشخصية..





هكذا كان يرى الإمام مالك، في الوقت الذي يقبل به أعطيات الخليفة، كان يعتبر هذه الأعطيات من الدولة لتساند العلماء وتفرغهم لطلب العلم، وليست أعطيات شخصية يتفضل بها الخليفة على العالم ويحاول أن يذله بها أو يستغله بها، ومن هنا نفهم فلسفة قبول الإمام مالك لأعطيات وهبات الخلفاء.

(كل ما في يدك ليس لك) حريةٌ أن تكتب بماء الذهب، ويضعها كل حاكم نصب عينيه ليحكم بها بين الناس، ويحرص على أموال الأمة ولا يستغلها لنفسه أو أهله لبطانته، فهي للأمة وليست له..



وعظهُ للخلفاء ووصاياه لهم

كان مالك لا يرى أن حكم الخلفاء الذين عاصروه هو حكم الإسلام، ولكنه لم يرَ جواز الانتقاض عليهم ليأسه من الإصلاح عن طريق الانتقاض، ولأن الفتن التي بلغه خبرها والتي شاهدها لم تنقل الأمر من فساد إلى صلاح، بل كانت تحوله من فساد إلى أفسد..

ومع هذا الرأي لم يقطع صلته بالخلفاء والأمراء، بل كان يرى من الواجب عليه إرشادهم وإصلاحهم، لأنه رجل ينظر إلى وقائع الأمور، ولا يقف عند الصور المثالية وحدها، وقد وجد أن وعظ هؤلاء يذهب ببعض ما يقعون فيه، ويقلل من شرهم، وربما حملهم على الصلاح.. وصار منهم أمثال عمر بن عبد العزيز..

لذلك كان يدخل على الخلفاء والأمراء ويعظهم ويرشدهم ويدعوهم إلى الخير، وكان يحث العلماء على إرشاد الخلفاء والأمراء، وقول الحق لهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً..

وكانت له مع الخلفاء مواعظ حسنة مأثورة، يلقيها عليهم عندما يجيئون إلى الحجاز في موسم الحج..

ومن ذلك قوله لهارون الرشيد: «ولقد بلغني أن عمر بن الخطاب كان في فضله وقدمه ينفخ لهم عام الرمادة النار تحت القدر، حتى يخرج الدخان من لحيته، وقد رضي الناس منكم بدون هذا»..

وقال مرة لبعض الولاة: «افتقد أمور الرعية، فإنك مسؤول عنهم، فإن عمر بن الخطاب قال: «والذي نفسي بيده لو هلك جمل بشاطئ الفرات ضياعاً، لظننت أن الله يسألني عنه يوم القيامة»..

ولقد دخل مالك على المهدي، فقال المهدي: أوصني..

فقال مالك: أوصيك بتقوى الله وحده، والعطف على أهل بلد رسول الله ﷺ وجيرانه، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «المدينة مهاجري، وبها قبري، وبها مبعثي، وأهلها جيراني، وحقيق على أمتي حفظي في جيراني، فمن حفظهم كنتُ له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة»..

وعلى أثر هذه الوصية أخرج المهدي عطاء كثيراً، وطاف بنفسه على دور المدينة..



النصيحة المكتوبة

ولم يقتصر مالك في نصائحه على المخاطبة، بل ينصحهم أيضاً بالمكاتبة برسائل يرسلها إليهم، وننقل من ذلك رسالته إلى بعض الخلفاء، وقد جاء فيها:

«اعلم أن الله تعالى قد خصك من موعظتي إياك بما نصحتك به قديماً، وأتيت لك فيه ما أرجو أن يكون الله تعالى جعله لك سعادة، وأمراً جعل سبيلك به إلى الجنة، فلنكن -رحمنا الله وإياك- فيما كتبته إليك، مع القيام بأمر الله وما استرعاك الله من رعيته، فإنك المسؤول عنهم صغيرهم وكبيرهم، وقد قال النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».



وروي في بعض الحديث أنه يؤتى بالوالي، ويده مغلولة إلى عنقه، فلا يفك عنه إلا العدل، وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: والله إن هلكت سخلة (ولد الشاة) بشط الفرات ضياعاً لكنت أرى الله تعالى سائلاً عنها عمر. وحج عمر عشر سنين وبلغني أنه ما كان ينفق في حجه إلا اثني عشر ديناراً، وكان ينزل في ظل الشجرة، ويحمل في عنقه الدرة، ويدور في الأسواق يسأل عن أحوال من حضره، وغاب عنه، ولقد بلغني أنه وقت أُصيب، حَضَر أصحابُ النبي ﷺ فأثنوا عليه، فقال: المغرور من غررتموه، لو أن ما على الأرض ذهب لافتديت به من أهوال المطلع..

فعمرُ رحمه الله تعالى كان مسدداً موفقاً، مع أنه قد شهد له النبي ﷺ بالجنة، ثم مع هذا خائف لما تقلد من أمور المسلمين، فكيف بمن قد علمت، فعليك بما يقربك إلى الله وينجيك منه غداً، واحذر يوماً لا ينجيك فيه إلا عملك، وليكن لك أسوة بمن قد مضى من سلفك، وعليك بتقوى الله، فقدمه حيث هممت، وتطلع فيما كتبت به إليك في أوقاتك كلها، وخذ نفسك بتعاهدها، والأخذ به، والتأدب عليه، واسأل الله التوفيق والرشاد إن شاء الله تعالى.

لم يكن الإمام مالك يرى الخروج على الخلفاء، بل يرى نصحهم وإرشادهم، وكانت له مع الخلفاء مواقف ومواعظ حسنة مأثورة.. يأمرهم فيها بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويذكرهم الحساب يوم القيامة.



التزكية الكاذبة

وكان أخشى ما يخشاه مالك على الولاة والخلفاء، المدح الكاذب الذي يجيء على ألسنة من يعيشون حولهم، فإن ذلك المدح يزين لهم أعمالهم، فيجعل السيء حسناً في نظرهم، والقبيح جميلاً، فيرضون عنها، فلا تتسع نفوسهم لإرشاد مرشد، ولا هداية هاد، ولا وعظ واعظ..

ولا شيء يوبق الملوك في السيئات يجترحونها أكثر من التزكية الكاذبة، وتبرير لكل عمل يعملونه من غير نقد ناقد ولا فحص فاحص، فتمرأ نفوسهم الاستحسان، ويصمون آذانهم عن كلمة الإرشاد والتنبيه..

فكان مالك يغضب ممن يثني على الولاة في حضرتهم، ويحذر الولاة من هذا الصنف من الناس..

ومن ذلك ما يروى من أن الوالي كان مرة عند مالك، فأثنى عليه بعض الحاضرين، فغضب مالك، وقال: إياك أن يغرك هؤلاء بثنائهم عليك، فإن من أثنى عليك وقال فيك من الخير ما ليس فيك، أوشك أن يقول فيك من الشر ما ليس فيك، فاتق الله في التزكية منك لنفسك، أو ترضى بها من أحد بقولة يقولها لك في وجهك، فإنك أنتَ أعرف بنفسك منهم، فإنه بلغني أن رجلاً مدح عند النبي ﷺ، فقال: قطعتم ظهره أو عنته، لو سمعها ما أفلح..

وقال ﷺ: «احثوا التراب في وجوه المداحين»..

وقد حذّر مالك الولاة والخلفاء من المدح الكاذب، فالإنسان أعرف بنفسه من غيره، وهؤلاء المداحين يبتغون الحظوة والمكانة عند الخلفاء من وراء مدحهم، فعليهم أن لا يغتروا بكلامهم..

موعظة رقيقة للخليفة

وفي موعظة رقيقة لأحدهم يقول:

أما بعد، كتبتُ لك كتاباً؛ ذكّر نفسك غمرات الموت وكربه، وما هو نازلٌ به منك، وما أنت موقوف عليه بعد الموت من العرض على الله، ثم الحساب، ثم الخلود بعد الحساب إمّا إلى الجنة ،وإمّا إلى النار، وأعدّ له (أي جهّز من الأعمال) ما يسهّل عنك به عَنَت (شدة) أهوال تلك المشاهد وكربها.

إنك لو رأيت أهل سخط الله (غضبه) وما صاروا إليه من أهوال العذاب وشدة نقمة الله تعالى، وسمعتَ زفيرهم في النار وشهيقهم مع كلوح وجوههم وطول غمتهم وتقلبهم في أدراكها على وجوههم لا يسمعون ولا يبصرون، يدعون بالثبور، وأعظم من ذلك حسرة عليهم إعراض الله تعالى عنهم بوجهه وانقطاع رجائهم من إجابته إياهم، حيث قال : ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾ (المؤمنون108)

لو علمتَ كل هذا لم يتعاظمك شيء في الدنيا (لا يصبح شيء منها عظيماً أو غالياً) أردتَ به النجاة من ذلك، ولا أمن لك من هوله، ولو قدمت في طلب النجاة جميع مال أهل الدنيا كان ذلك صغيراً.

وتذكّر لو رأيت أهل طاعة الله وما صاروا إليه من كرم الله تعالى ومنزلتهم مع قربهم من الله تعالى، ونضرة وجوههم ونور ألوانهم، وسرورهم بالنظر إليه سبحانه والمكانة منه والجاه عنده مع قربهم منه،

هـذه موعظة عظيمة من الإمام مالك لأحد الحكام يذكره فيها بالموت والحساب، والجنة والنار، ومحاسبة النفس بدقة..

لتقلل في عينك عظيم ما طلبت به الدنيا (أي لأصبحت أمور الدنيا التي تتمناها رخيصة)، فاحذر على نفسك، وبادر إلى نفسك قبل أن يسبق إليها ما تخاف الحسرة فيه عند نزول الموت، خاصم نفسك لله تعالى على مهل (أي حاسب نفسك بالتفصيل ودون استعجال)، وأنتَ تقدر بإذن الله تعالى على جلب المنفعة إليها وصرف السيئة عنها قبل أن يتولى الله حسابها، ثم لا تقدر على صرف المكروه عنها.

اجعل لله تعالى من نفسك نصيباً في الليل والنهار، فإن عمرك ينقضي مع ساعات الليل والنهار، وأنت قائم على الأرض وهو سار بك (أي عمرك يسير وأنت واقف على الأرض)، وكلما مضت ساعة من أجلك، والحفظة لا يغفلون عن الدِّقِّ والجلِّ منها، حتى تمتلئ صحيفتك (كتاب أعمالك) التي كتب الله عليك..

فعليك بخلاص نفسك إن كنتَ لها محباً، ثم احذر ما حذرك منه الله تعالى منه، فإنه يقول: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾(آل عمران30-28)..

ولا تحقر الذنب الصغير مع ما قد علمت من قول الله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزلة 7،8)..

وقال تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (ق 18).

حافظ على فرائض الله، واجتنب سخط الله، واحذر دعوة المظلوم، ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ (البقرة 281)، والسلام.

معاني الرسالة

أي رسالة هذه؟!

رسالة فيها تذكير بالموت، والحساب، والعذاب، والبعث، رسالة فيها تحبيب للجنة، وتخويف من النار، رسالة فيها تذكير للإنسان عندما يقف عارياً من كل قوة، خالياً من كل سلطان، وحيداً لا ينفعه مال، ولا يحميه أحد أمام الله العزيز الجبار، فالفوز يومئذ بالعمل الصالح؛ بتقوى الله في النفس وفي المال، بالعدل بين الناس، بالابتعاد عن الظلم، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كم من حاكم، كم من خليفة، كم من ملك يحتاج من يذكره بالله عز وجل؟!!

وفيها التذكير العظيم بقيمة الوقت، والمحاسبة على الصغير والكبير من الأعمال وبخاصة الفرائض وإقامة العدل..

لو كان العلماء على هذه الصورة، والحكام يتلقون مثل هذه الرسائل بالقبول والرضا، والتأثر الحقيقي الجاد، لنجت الأمة وارتفع شأنها.





الباب الرابع

علم الإمام

- الفصل الأول: آراء الإمام
- الفصل الثاني: تلاميذ الإمام

الفصل الأول


رأيه مع مخالفيه


آراؤه في العقيدة

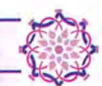

آراؤه السياسية

الباب الرابع



الفصل الأول

آراء الإمام



رأيه مع مخالفيه

- الالتزام بما عليه أهل المدينة

أرسل الإمام مالك إلى الليث بن سعد إمام مصر، رسالة يمثل فيها اعتراضاً مهذباً، حيث بلغه أن صديقه الإمام الليث بن سعد يفتي الناس بما يخالف ما يفعله أهل المدينة، وهذا يخالف فقه الإمام مالك، فأرسل رسالة يقول فيها:

من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد، سلام عليكم، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: عصمنا الله وإياك بطاعته في السر والعلانية، وعافانا وإياكم من كل مكروه..

واعلم -رحمك الله- أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة، مخالفة لما عليه الناس عندنا، وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في أمانتك وفضلك ومنزلتك في أهل بلدك، وحاجة من قِبَلك إليك، واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ (التوبة 100)، وقال تعالى: ﴿فبشِّر عباد، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾ (الزمر 17،18)، فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأُحل الحلال، وحُرِّم الحرام، إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل، يأمرهم فيطيعونه، ويَسُنُّ لهم فيتبعونه، حتى توفاه الله تعالى واختار له ما عنده صلوات الله وسلامه عليه ورحمته وبركاته.

ثم قام من بعده أتبع الناس له من أمته، ممن ولي الأمر من بعده بما نزل بهم، فما علموا أنفذوه، وما لم يكن عندهم فيه علم سألوا عنهن ثم أخذوا بأقوى ما وجدوا في ذلك، في اجتهادهم، وحداثة عهدهم، وإن خالفهم مخالف، أو قال امرؤ: غيره أقوى منه وأولى، ترك قوله وعمل بغيره..

ثم كان التابعون من بعدهم يسلكون تلك السبل، ويتبعون تلك السنن، فإذا كان الأمر بالمدينة ظاهراً معمولاً به، لم أرَ لأحد خلافه، للذي في أيديهم من تلك الوراثة التي لا يجوز انتحالها ولا ادعاؤها، ولو ذهب أهل الأمصار يقولون: هذا العمل ببلدنا، وهذا الذي مضى عليه من مضى منا لم يكونوا فيه من ذلك على ثقة، ولم يكن لهم من ذلك، جاز لهم..

فانظر رحمك الله فيما كتبت إليك لنفسك، واعلم أني أرجو ألا يكون قد دعاني إلى ما كتبت به إلا النصيحة لله وحده، والنظر لك، والضن بك، فأنزل كتابي منزلته، فإنك إن تعلمت تعلم أني لم آلك نصحاً..

وفقنا الله وإياك لطاعته، وطاعة رسوله في كل أمر، وعلى كل حال، والسلام عليكم ورحمة الله..

الإمام مالك يوجه إلى الإمام الليث بن سعد ألا يفتي بما يخالف ما عليه أهل المدينة، فهم أقرن الناس للسنة..



رد الإمام الليث بن سعد

وجاء الرد من الليث بن سعد إلى الإمام مالك، لكن جاء برد طويل، وقطعة من الأدب الرفيع، بالإضافة إلى نقاش فقهي أخلاقي نفيس، ولطول السرد سنقتطف منه بعض ما فيه:

سلام عليكم فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد:

عافانا الله وإياك، وأصلح لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك، تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، أدام الله ذلك عليكم وأتمه بالعون على شكره سبحانه، والزيادة من إحسانه..

وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك، وإقامتك إياها، وختمك عليها بخاتمك، وقد أتتنا رسالتك، فجزاك الله عما قدمت منها خيراً، فإنها كتب انتهت إلينا عنك (وصلت إلينا منك)، فأحببت أن أبلغ حقيقك بنظرك فيها..

وذكرتَ أنه قد أنشطكَ (أي شجعك للكتابة إليَّ) ما كتبتُ إليك فيه، من تقويم ما آتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة (أي بدأتني بالنصيحة)، ورجوتَ أن يكون لها عندي موضع (أي تتوقع مني قبول النصيحة)، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلاً (أي لحسن ظنك بي)..

وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم، وأني يحق عليَّ الخوف على نفسي، لاعتماد مَن قِبَلي عليَّ (أي اعتماد أهل مصر على الليث في الفتوى)، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي بها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى، ووقع مني بالموقع الذي تحب (انظر الأدب في قبول النصيحة)، وما أجد أحداً يُنسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا، ولا أشدَّ تفضيلاً لعلماء المدينة الذين مضوا، ولا آخذ فيما اتفقوا عليه بفتياهم مني (أي لن تجد أبعد مني عن شذوذ الفتوى وأكثر مني قبولاً لفتوى علماء المدينة)، والحمد لله رب العالمين لا شريك له..أما ما ذكرتَ من مُقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ونزول القرآن بها عليه بين ظهراني أصحابه، وما علمهم الله منه وأن الناس صاروا تبعاً لهم فيه فكما ذكرتَ (أي أن كلامك صحيح).

وأما ما ذكرت من قوله تعالى: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ (التوبة 100)، فإن كثيراً من أولئك السابقين خرجوا (من المدينة) جهاداً في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجندوا الأجناد (أي قادوا الجيوش)، واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه (سكنوا بلاداً جديدة وأقاموا فيها الكتاب والسنة)، ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة، وتقدَّمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف في كتاب الله وسنة نبيه، ولم يتركوا أمراً فسره القرآن أو عمل به النبي صلى الله عليه وسلم، أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهم إياه، فإذا جاء أمر (أي جاءت مسألة جديدة) عمل فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمصر والشام والعراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولم يزالوا عليه حتى قُبضوا، لم يأمروهم بغيره، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمراً لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم (أي أن الصحابة الكرام رضي الله عنهم سكنوا مختلف البلاد ولم يعملوا بما يخالف القرآن والسنة هناك)، ثم يقول: وقد عرفتَ أيضاً من أسباب إنكاري أن أبا ذر كان بمصر، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص..





تابع رد الليث

وبحمص في الشام سبعون من أهل بدر وفيهم جنود المسلمين كلهم..

وفي العراق ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعمران بن الحصين، ونزلها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة، ومعه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفعلوا كذا وكذا...

ثم يقول: لما ولي عمر بن عبد العزيز، وكان كما علمتَ في إحياء السنن، والجد في إقامة الدين، والإصابة في الرأي، والعلم بما مضى من أمر الناس، كتب إليه زُريق بن الحكم يقول: إنك كنت تقضي في المدينة بشهادة الشاهد الواحد، بالإضافة إلى يمين صاحب الحق (أي لما كان عمر بن عبد العزيز والياً للمدينة كان يكتفي بشهادة رجل واحد في القضايا بالإضافة إلى قسم يقسمه صاحب الحق، ولا يشترط شاهدين في القضية)، لكني أراك في الشام قد غيَّرتَ؟.

فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: إنا كنا نقضي بذلك في المدينة، فوجدنا أهل الشام على غير ذلك، فلا نقضي إلا بشهادة رجلين عدلين، أو رجل وامرأتين... (انظر إلى تغير الفتوى حسب توفر الدليل).

يقول الليث: وقد تركتُ أشياء كثيرة أشباه هذا (أي أن الإمام الليث يشير للإمام مالك بأن ما يفتي به مما يخالف عمل أهل المدينة شبيه بما غيره عمر بن عبد العزيز بعد انتقاله من المدينة إلى الشام)، وأنا أحب توفيق الله إياك، وأحب طول بقائك (أي أتمنى لك طول العمر) لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة، ولما أخاف من الضيعة إذا أذهب الله أمثالك، فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه. (انظر إلى حب العلماء لبعضهم وحرصهم على استفادة الناس منهم رغم اختلافهم، وانظر وتأمل في أدبهم مع بعضهم)..

ثم قال: ولا تترك الكتابة إلينا بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك، أو لأحد يوصَل بك فإني أسرُّ بذلك (هنا يشير بأدب إلى استعداده لأي مساعدة مادية، حيث إن الإمام الليث كان من العلماء الأغنياء، فهو يعرض مساعدة الإمام مالك أو ولده بكل أدب)..

كتبتُ إليك ونحن صالحون (سليمو الجسد) معافون والحمد لله، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولينا، وتمام ما أنعم به علينا.

والسلام عليكم ورحمة الله.

ردَّ الليث على الإمام مالك رداً في منتهى الأدب، وبيَّن له وجهة نظره في مخالفة فتواه لعمل أهل المدينة..

أيُّ فرق هذا بين ذلك الزمن الفاضل، وبين تلك الأمة الفاضلة، وبين ما نعيش فيه من شحناء وبغضاء وسوء ظن!

فالأصل في التعامل هو الأدب وحسن الظن وعرض الدليل والبرهان بكل خلق حسن..



مع حمّاد بن أبي حنيفة

مجالسة الإمام مالك لحمّاد بن أبي حنيفة وسؤال كل منهما الآخر عن بعض المسائل دليل على أدب الاختلاف وإخلاء تلاميذ الإمام مالك للمجلس دليل على أدبهم، وأدب الإمام مالك وعدم إحراج المخالفين.



وكان الإمام مالك له أسلوب خاص وأدب خاص في التعامل مع الناس في مجالس الحديث، كان له تلاميذ يلازمونه ولا يتركونه، وكانوا أصحاب أدب ووقار وعلم، وكانوا إذا شعروا أن الإمام مالكاً يريد أن يتحدث مع أحد الجلوس حديثاً خاصاً، يقومون دون أن يُطلب منهم، وينسحبون بهدوء، ويُخلون المجلس حتى يُهيئوا لشيخهم الحديث بارتياح..

يروي هذا حمّاد بن أبي حنيفة يقول: أتيتُ مالكاً فوجدته جالساً في صدر بيته، وأصحابه بجنبي الباب، كل واحد منهم له مجلس، فقمت على باب البيت، فقال لي الإمام مالك: من أنت؟

قلتُ: أنا حمّاد بن أبي حنيفة، جئتُ أسأل عن مسألة..

قال: أُدْنُ، يقول: فاقتربتُ منه حتى أجلسني بين يدي فراشه، فلما رأى ذلك أصحاب الإمام مالك قاموا جميعاً فخرجوا من المجلس، فلما خرجوا قبل أن أسأل سألني هو: ما كان أبوك يقول في كذا؟ فأجبته، فاستغرب (أي تعجب حيث كانت فتوى الإمام أبي حنيفة غريبة) وقال: ما كانت حجته؟ فأجبته، وظلَّ يسألني عن مذهب أبي حنيفة وحجته.. (هكذا بكل أدب وبدون استهزاء أو استكبار، رغم استغرابه لفتاوى أبي حنيفة، فما دام لديه حجة وبرهان فلا استهزاء بل مخالفة مبنية على الدليل والبرهان، واحترام كل طرف للآخر)، وظلَّ يسال عن غرائب أبي حنيفة إلى أن اكتفى، ثم قال: سل، فسألته فأجابني. (انظر وتأمل في عالِمين لكل منهما منهج مغاير للآخر، يستفيدان من بعضهما ويتعلمان من الطرف الآخر)..

يقول: فلما خرجتُ عاد أصحابه إلى مجالسهم. (وتأمل هنا كيف أراد ألا يحرجه أمام الناس)..



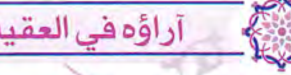


معرفته بآراء معاصريه

ونعلم من هذه القصة أيضاً أن الإمام مالكاً رغم أنه لم يخرج من المدينة إلا أنه كان على اطلاع بآراء أئمة عصره، وعلماء عصره، وكان يعرف حججهم وأدلتهم، يعرف فقه هؤلاء الأئمة، ويحرص على التثبت والتيقن من علمه بسؤاله المباشر لمن يعرف آراء مخالفيه وأدلتهم مع كامل الأدب والاحترام..
وكذلك جالس محمد بن الحسن صاحب الإمام أبي حنيفة ثلاث سنين وكان يتعلم منه، وكان الإمام مالك أيضاً يعرف منه فتاوى الإمام أبي حنيفة، وحججه.

اطلاع الإمام مالك على آراء أئمة عصره وحججهم رغم أنه لم يخرج من المدينة، كان من خلال احتكاكه بتلاميذهم وسؤاله المباشر عن آرائهم وحججهم مع كامل الأدب والاحترام مع مخالفيه.





آراؤه في العقيدة

كان الإمام مالك علماً من أعلام الحديث، وعلماً من أعلام الفقه، فنال الإمامة فيهما، ولكنه كان مع ذلك في عصر اضطربت فيه المنازع الفكرية؛ من آراء منحرفة في السياسة، ومن آراء منحرفة في العقيدة، كأولئك الذين يقولون: إن الإنسان مجبر في أفعاله غير مختار، ومن آخرين يزعمون أن مرتكب الكبيرة كافر، وبجوارهم من يفرط فيقول: إنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة

منهج الإمام في الاختلاف العقائدي

فكان لا بد أن يرشد إمام دار الهجرة الناس إلى ما يتبعونه في هذه المتاهات الفكرية المنحرفة عن الصراط المستقيم الذي هو صراط الله تعالى، إذ قال: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِه)(الأنعام: من الآية153)..
ولقد سلك في هذه الأمور ما سلكه في الفقه والحديث، فقد قرر أنه يجب اتباع السنة واتباع منهج السلف الصالح، وكان يتمثل دائماً بقول الشاعر:

وخير الأمور ما كان سنة   وشر الأمور المحدثات البدائع





وكان يروي قول عمر بن عبد العزيز، ويحفظه، ويذكره في كثير من المناسبات في فضل السنة، وهو: «سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اتباع لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد بعدها تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهدي، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع سبيل غير المؤمنين، وولّاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً»..

كان مالك يحدِّث بهذا الكلام المأثور، وإذا حدَّث به ارتج سروراً وتصديقاً له..

وهكذا كان الإمام مالك في دراسته للعقيدة، كما كان نهجه في دراسته للفقه، فكان يدعو الناس إلى أخذ العقيدة من كتاب الله وسنة رسوله، لا من حكم العقل المجرد (وإن لم يكن في الشرع، لا في أصوله ولا في فروعه شيء يخالف العقل السليم، ولكن إذا اضطربت العقول واختلف الناس فالمرجع الكتاب والسنة بلا تأويلات عقلية لا دليل عليها)، وكان التزامه بهذا المنهج دقيقاً جداً.

نهجَ الإمام مالك في دراسته للعقيدة ما نَهَجه في دراسته للفقه، من أنه يجب اتباع السنة واتباع منهج السلف الصالح..

دقته في زيادة الإيمان ونقصه

كان مالك يرى أن الإيمان ليس اعتقاداً أو قولاً فقط، ولكنه اعتقاد وقول وعمل (هو الرأي المعتمد لدى جمهور أهل السنة والجماعة)، فكان يقول: الإيمان قول واعتقاد وعمل. ويروي أن الطاعات من الإيمان، فالقيام بالصلاة من الإيمان، ويستشهد على ذلك بأن الصلاة كانت إلى بيت المقدس ثم صارت إلى بيت الله الحرام، فخشي بعض المؤمنين أن تكون صلاتهم الماضية إلى ضياع، فقال تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ)(البقرة: من الآية 143).

فدلّ ذلك بلفظه البيّن على أن الصلاة إيمان وهي فعل، فالإيمان قول وفعل..

وكان مالك يرى أن الإيمان يزيد، ويراه ينقص، لأن ما يزيد ينقص، ولكنه وجد أن آيات القرآن ذكرت الزيادة فقط، فكفَّ عن القول بنقصانه، فقد جاء في المدارك: أن غير واحد سمع مالكاً يقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وبعضه أفضل من بعض..

قال أبو القاسم: كان مالك يقول: الإيمان يزيد، وتوقف عن النقصان، وقال: ذكر الله زيادته في غير موضع، فدع الكلام في نقصانه وكفَّ عنه..

وجاء في الانتقاء: سُئل مالك بن أنس عن الإيمان فقال: قول وعمل، قيل: أيزيد وينقص؟



قال: قد ذكر الله سبحانه في غير آيٍ من القرآن أن الإيمان يزيد..

قيل له: أينقص؟

قال: دع الكلام في نقصانه وكفَّ عنه..

قيل: فبعضه أفضل من بعض؟

قال: نعم..

ونرى من هذا أنه كان يسير في دراسته لحقيقة الإيمان، وزيادته ونقصانه، الرجل النقلي الذي يقف عند المنقول، ولا يسير وراء العقل في متاهات يضل سالكها، فليس العلم عنده لشهوة العقل، ولكن لواجب الدين والعمل..

اتبع مالك المنقول من الأحاديث الصحيحة في دراسته للعقيدة، دون أن يسير وراء الفروض العقلية، والمسارات التي يضل سالكها بدون علم راسخ، ورأى أن الإيمان يزيد، وتوقف عن النقصان..

رأيه في قضية التسيير والتخيير

وقد كان مالك يؤمن بالقدر خيره وشره، ويؤمن بأن الإنسان حرٌّ مختار، وهو مسؤول عما يفعل إن خيراً وإن شراً فشرّ، ويكتفي بذلك من غير أن يتعرض لكون أفعال الإنسان مخلوقة له بقدرة أودعها الله، أو غير مقدورة له (وغير ذلك من الأمور الفلسفية التي دارت حولها نقاشات جدلية عميقة بين الفرق المختلفة في زمانه)، وقد قال في ذلك: ما رأيت أحداً من أهل القدر (أي الذين يقولون بالقدر الفلسفي) إلا كان أهل سفاهة وطيش وضعة (أي دناءة)، ويستشهد بكلام عمر بن عبد العزيز، وهو قوله: «لو أراد الله ألا يُعصى ما خلق إبليس وهو رأس الخطايا». ويعلق على هذا بقوله: ما أبين هذه الآية على أهل القدر وأشدها عليهم: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها، ولكن حقَّ القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ (السجدة13).

رأيه في مرتكب الكبيرة

كانت مسألة مرتكب الكبيرة من المسائل التي خاض فيها المسلمون في عصر مالك خوضاً شديداً، وكان رأي مالك في مرتكب الكبيرة أنه يعذَّب بمقدار معصيته، وإن شاء الله غفر له؛ لقوله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء48). (فالكبيرة دون الشرك).

وقال مالك في هذا المقام: «إن العبد إذا ارتكب الكبائر كلها بعد أن لا يشرك بالله شيئاً، ثم نجا من هذه الأحوال، رجوت أن يكون في أعلى الفردوس، إن كبيرة بين العبد وربه هو منها على رجاء (أي له أمل في المغفرة من الله تعالى)، وكل هوى (أي عقيدة ضالة أو منحرفة) ليس هو على رجاء، إنما يهوي به في نار جهنم»، فالإمام مالك يرى أن الفرق الضالة والعقائد المنحرفة قد لا تغتفر، ولذلك فهي أشد خطراً على الإنسان من الكبائر التي قد تغتفر..

> كان مالك يؤمن بالقدر خيره وشرّه، ويرى أن الإنسان حرّ مختار، ومسؤول عما يفعل، وأن مرتكب الكبيرة يُعذَّب بمقدار معصيته، وإن شاء الله غفر له..

رأيُه في خلق القرآن

وقد أثيرت في عصر مالك مسألة خلق القرآن، أثارها الجعد بن درهم، وقد أخذها عن رجل كان يريد إفساد العقيدة الإسلامية ، فادّعى طائفة من المسلمين أن القرآن مخلوق، وقال غيرهم: إنه غير مخلوق، وفرقة ثالثة علموا أن هذه فتنة تثار بين المسلمين فأمسكوا عن الخوض فيها، وكان مالك رحمه الله من هؤلاء، فما كان يرى أنه يجوز السير في الجدل وراء ما يثيره الذين نصبوا أنفسهم لفتنة المسلمين عن دينهم، فمنهجه ألا نجيب في كل قضية تثار، وندخل في الجدل مع كل قضية تناقش، بل نكتفي برد حاسم، ونلتفت إلى ما ينفعنا في ديننا ودنيانا..





رأيه في رؤية الله تعالى في الجنة

وقد أثار المعتزلة مسألة رؤية الله تعالى يوم القيامة، ودرسوها دراسة عقلية منكرين لها، بناءاً على قوله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) مؤولين النصوص التي تثبتها مثل قوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة﴾ (القيامة23-22)..

ولكن مالكاً المتبع لا المبتدع يقرر رؤية الله سبحانه وتعالى، متمسكاً بظواهر النصوص غير متأول لها، ولكن من غير أن يتعرض لكيفية الرؤية؛ وكونها كرؤيتنا في الدنيا، بل إنها على نحو آخر يليق بذات الله العلية، التي لا يشبه فيها أحداً من خلقه: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ (الشورى11).

وهكذا نرى الإمام مالكاً يسير في فهمه للعقائد على طريق السنة، وعلى منهاجه، ولا يسير في مثارات الذين يريدون إفساد العقيدة الإسلامية على أهلها، أو إيجاد الفرقة بينهم في فهمها، ووراء ذلك انحلال فكري ونفسي.

أمسك الإمام مالك عن الخوض في مسألة خلق القرآن، كما قرَّر رؤيةَ الله تعالى في الجنة، من غير أن يتعرض لكيفية هذه الرؤية..

آراؤه السياسية

كان في عصر مالك الذين خاضوا في السياسة من فرق مختلفة، فطائفة تقول: الخلافة محصورة في عليّ كرّم الله وجهه وبنيه من فاطمة رضي الله عنها.. وأخرى تقول: الإمامة في أولاده من الحسين.. وثالثة تقول: الخلافة ليست في قبيلة من قبائل العرب، ولا بطن من بطونها، ولا بيت من بيوتها..

وغيرها من المشارب السياسية.. وخلاصة رأي مالك في السياسة أنه كان يقر عمل الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، وكان يرى أنه لا تجوز الإقامة في بلد لا يقام فيه العدل، ويُسبُّ فيه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول في ذلك: «ليس لمن سب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفيء حق»، ويقول: «لا ينبغي الإقامة في أرض يكون العمل فيها بغير الحق، والسب للسلف».

الخلافة في قريش

كان الإمام مالك رحمه الله تعالى قليل الكلام فيما لا يتصل بالفقه والحديث، وذلك لقلة عنايته بغيرهما، ولأنه كان يبتعد بعلمه عن أن يكون موضعاً لمشاحة أو خلاف، إذ أن علمه علم دين، ولا يصح أن يكون الدين هدفاً للجدل والمراء، وغرضاً من أغراض الخصومات والمنازعات..

ولذلك لم يؤثر عنه تفصيل في مسألة الخلافة، ومن المؤكد أنه لا يرى أن تقتصر الخلافة على البيت الهاشمي أو العلوي وحده، لان الشيوخ الثلاثة: أبا بكر وعمر وعثمان، لم يكونوا من واحد منهما، بل كانوا قرشيين فقط، وقد روى مالك حديث السقيفة (وفيه خلاف المهاجرين والأنصار عند وفاة النبي ﷺ ثم اتفاقهم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه)، وقد انتهى الأمر فيها إلى أن تكون الخلافة في قريش، وليس في البيت العلوي بالضرورة، ويظهر من هذا أنه هو كان يرى ذلك.



نظام الاستخلاف

جماهير المسلمين على أن الخليفة يُختار من بين ذوي الأهلية للخلافة، ولا مانع من أن يعهد الخليفة لمن بعده إن كان اختياره لا دخل للهوى فيه..

وكان الإمام مالك يرى أن ما سلكه الصحابة في اختيار الخلفاء الراشدين هو الطريقة المثلى، ولذلك أقرَّ نظام الاستخلاف بشرط المبايعة الحرة التي لا إكراه فيها ــ كما استخلف أبو بكر عمر رضي الله عنهما.

ويقر نظام الشورى بين عدد يعينهم الخليفة السابق، وكان يقر نظام الشورى ابتداء كما فعل الصحابة مع أبي بكر وعلي رضي الله عنهما.





اشتراط بيعة مكة والمدينة

يقول الإمام مالك في ذلك: إن مبايعة أهل الحرمين مكة والمدينة كافية لانعقاد البيعة الكاملة التي يستأهل الخليفة أن يكون بها إماماً لعامة المسلمين، لأنهم حملة السنة النبوية، فهم أهل الحل والعقد، فقد جاء في المدارك: قال ابن نافع: كان مالك يرى أن أهل الحرمين إذا بايعوا لزمت البيعة أهل الإسلام.. فهو لا يرى بيعة الأقاليم كافية إلا إذا دخلت فيهما مكة والمدينة، وإذا بايع أهل مكة والمدينة وحدهم لزمت البيعة الجميع، ووجبت عليهم الطاعة.. (هذا بالطبع مناسب للواقع في ذلك الزمان)
وذلك كله سير على منهاج الصحابة من غير انحراف.

حكم المتغلب

وإن مالكاً رحمه الله كان يعتبر الذي يتغلب ثم يبايعه الناس راضين ـــ وهو عدل في ذاته ـــ تُعدُّ ولايته شرعية لا غبار عليها، ويرى في ذلك صلاحاً للمسلمين.
فهو لا يقرّ ببيعة المتغلِّب على الحكم (بالقوة) إذا لم يبايعه المسلمون، فالاختيار للمسلمين، وإذا أقروا المتغلب درءاً للمفاسد وحقناً للدماء فلا مانع من ذلك حتى لو كان في المسلمين من هو خير منه، وقد وقع ذلك في بيعة المسلمين لمعاوية رضي الله عنه

المصلحة والعدل

إن نظرة مالك السياسية نظرة تجمع إلى المثل الأعلى للحكم، النظر إلى الواقع الذي تستقيم عليه أمور الناس، فهو في آرائه السياسية ينظر دائماً إلى المصلحة والعدالة، وما يفضي إليهما، فما يفضي إلى الفساد لا يجوز إقراره، وما يفضي إلى المصلحة والعدالة يجوز قبوله، وليس من العدالة إكراه الناس على ما لا يريدون، كما أنه ليس من المصلحة سفك الدماء والإخلال بالأمن والنظام..
وهكذا نجد مالكاً لا يتجه إلى الصور المثالية لطريقة الاختيار، بل يتجه إلى الوقائع؛ وما عليه حال الأمة، فيرى أن المصالح الواقعة يجب أن تكون مقدرة في اعتبار الذين يحثون على الطاعة أو الخلاف، وهو ينتهي من هذا إلى أن السكون والسكوت على حاكم مفضول خير من الخروج والانتقاض عليه، وأن الابتعاد من الفتن خير من الخوض والدخول فيها، والإرشاد والنصيحة من غير خروج على الحاكم قد يحمل الحاكم على السير على الجادة الصحيحة وحكم الله تعالى، فيكون الصلاح من غير عبث وفساد.



منهج الصبر

وإذا كان الحاكم ظالماً يرى الصبر عليه ويرشده، فليس صبره صبر المستكين الذي لا يستنكر الظلم، بل صبر الذي يبغي صلاح الناس..

وقد وجد من خلال مشاهدته لحوادث زمانه ومن سبقه أن الفساد يكون في الخروج، وأن حمل الظالم على العدل بالموعظة الحسنة وتذكيره أوامر الدين واجب، ويقوم بذلك الصالح المرشد، ولو تعرض لنقمة الحاكم الظالم، فإن قُتل في سبيل الموعظة الحسنة فهو شهيد، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك: «خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله» ،ولو أن المسلمين أخذوا بنظر الإمام مالك، فقام علماؤهم بواجب النصح والإرشاد، ولم يكن المنافقون المتملقون، ما استمر الاستبداد، ولا بغى ظالم.

كان مالك يقرَ عمل الخلفاء الراشدين، ويرى الخلافة في قريش، كما يقرَ نظام الاستخلاف بشرط المبايعة الحرَة، ويشترط مبايعة أهل الحرمين مكة والمدينة لانعقاد البيعة، كما يرى أن السكوت على حاكم مفضول خير من الخروج عليه، وأن الابتعاد عن الفتن خير من الخوض فيها، مع النصح والإرشاد للحاكم..



الفصل الثاني

الباب الرابع



الفصل الثاني

تلاميذ الإمام



النجم الساطع

وصلت شهرة الإمام مالك إلى كل آفاق الأرض، وأخذ الناس من كل أرجاء الدنيا يأتون ليتعلموا على يديه، وخاصة في موسم الحج، فكان يحدث له في موسم الحج بالذات ازدحام شديد جداً، وفي رواية تشرح ذلك يصف فيها الحسن بن الرُّبيِّع أحد معاصري الإمام مالك الوفود التي كانت تأتيه، فيقول: كنتُ على باب الإمام مالك، فنادى مناديه: ليدخل أهل الحجاز، فيدخلون ولا يدخل غيرهم، ثم ينادي في أهل الشام، ثم في أهل العراق، يقول: فكنتُ آخر من دخل، وفينا حمَّاد بن أبي حنيفة..

وفي هذا توجيه إلى أنه كان يعطي الفتوى مراعياً لأحوال المستفتين، فحاجة كل بلد تختلف عن الآخر..

ورغم كل شهرته ورفعة درجته في العلم ما كان يجيب على كل مسألة، بل يقول: من أحب أن يجيب على كل مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار ثم يجيب، وقد أدركناهم (علماءنا الكبار) إذا سُئل أحدهم فكأن الموت أشرف عليه (من شدة خوفه أن يخطئ في دين الله رب العالمين)..

وكان مالك كما ذكرنا لا يتردد في قول: (لا أدري) حين لا يتيقن من الرد المناسب..

وصلت شهرة الإمام مالك إلى كل آفاق الأرض، وازدحم الناس على بابه لتلقي العلم..

مستوى جلساته

كان للإمام مالك مستويان من الجلسات؛ مستوى العلم الرفيع والقضايا الفقهية الخاصة، وهذه الجلسة فقط لتلاميذ الإمام مالك المنتظمين المداومين على حلقاته، وفي هذه الجلسة كان يذكر لهم التفاصيل والمرجعية والدليل، ويسمح لهم بالسؤال..

أما إذا كانت جلسة العامة، فلا يسمح لهم بالنقاش ولا يدخل معهم بالتفاصيل، لأنه يراها مسائل تدق على إدراكهم، وتستعصي على أفهامهم، فكان يكتفي برواية الحديث أو بالإفتاء..

وفي هذا فقه عميق لتحديث الناس حسب قدراتهم العقلية وعدم الدخول معهم فيما لا يطيقون..

كان للإمام مالك جلسة للعامة لا يسمح فيها بالنقاش، وجلسة للتلاميذ المداومين يذكر فيها الأدلة والتفاصيل، فانظر إلى وعيه لحاجات الناس وتوزيعه للأدوار بما يناسب حاجة المستمعين..

حَمَلَة العلم

لكل إمام من الأئمة تلاميذ يسمونهم الأصحاب، وهؤلاء التلاميذ صاروا أئمة فيما بعد..

فالإمام أبو حنيفة كان من تلاميذه: أبو يوسف، ومحمد، وزفر، وغيرهم.

والإمام الشافعي كذلك له أصحاب، والإمام أحمد بن حنبل له أصحاب..

والفرق الرئيسي بين هؤلاء الأعلام الذين نتحدث عنهم، وبين الأئمة العظام الذين عاصروهم من أمثال الليث بن سعد، أو الأوزاعي، أو الثوري، أو ابن عيينة، (وهم لا يقلون شأناً عن الأئمة الأعلام) لكن أئمة المذاهب وجدوا تلاميذ يحملون آراءهم ويتبنونها وينشرونها، أما الآخرون فلم يجدوا مثل هؤلاء التلاميذ، هذا هو الفرق.

لكل إمام تلاميذ يحملون آراءه وينشرونها، وهؤلاء هم الذين يجعلون المذهب يستمر وينتشر، وبدونهم فإن علم العالِم يبقى حبيس الكتب ولا يبنى عليه مذهب.

تلاميذ الإمام مالك

كان لتلاميذ الإمام مالك شأن عظيم عنده وعند الأمة ممن بعده، فتلاميذه تفرقوا في البلاد الإسلامية، وبعضهم بقي في المدينة مع الإمام مالك، وكان لبعضهم دور كبير في نشر المذهب، واستمر بعضهم في نشر المذهب إلى أن تبناه بعض الخلفاء: كهشام بن عبد الرحمن في الأندلس، وكذلك في تونس، وغيرهم..





نبذة عامة عن تلاميذه

- محمد بن إبراهيم بن دينار: كان فقيه المدينة لما كبر الإمام مالك، وتوفي سنة 182هـ.
- عبد العزيز بن أبي حازم: توفي سنة 185هـ.
- وعثمان بن عيسى، وغيرهم...
- ومن تلاميذ الإمام مالك الذين ذهبوا شرقاً: عبد الله بن مسلمة، توفي بالبصرة.
- وأبو زكريا يحيى بن يحيى النيسابوري، توفي بنيسابور.
- وكانت مصر المركز الرئيسي للمذهب المالكي وتلاميذ المذهب المالكي، وفيها أعظم تلاميذ الإمام مالك: عبد الرحمن بن القاسم، وعبد الله بن وهب، وأشهب بن عبد العزيز، وعبد الله بن عبد الحَكم، وكلهم من أهل مصر، وتوفوا في مصر، وسنتحدث عنهم بشيء من التفصيل لاحقاً.
- ومن تلاميذه في تونس: علي بن زياد التونسي، وعبد الله بن غانم الأفريقي.
- ومن تلاميذه في الأندلس: أبو محمد يحيى بن يحيى، الذي نقل الموطأ إلى الأندلس.
- ومن تلاميذ الإمام مالك من ظلَّ متجولاً مثل: مطَرِّف بن عبد الله الذي رحل إلى العراق، ثم عاد إلى الحجاز وتوفي بالمدينة.
- وأسد بن الفرات، الذي ولد بحرَّان في الشام، وتعلَّم في تونس، ثم انتقل إلى الإمام مالك في الحجاز وسمع منه، ثم ذهب إلى العراق، فتعلَّم على يد محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، ثم ذهب إلى مصر وسمع من ابن القاسم تلميذ الإمام مالك، ثم ذهب إلى تونس.
- هؤلاء هم أشهر تلاميذ الإمام مالك الذين كان لهم الفضل في حفظ المذهب ونشره.

تفرَّق تلاميذ الإمام مالك في معظم البلاد الإسلامية، وكان لهم الفضل الكبير في نشر المذهب وحفظه.

1 - عبد الرحمن بن القاسم

أعظم تلاميذ الإمام مالك وأشهرهم والمقدَّم فيهم، من أهل مصر، توفي فيها سنة 191هـ، ومكانة عبد الرحمن بن القاسم في المذهب المالكي مثل مكانة محمد بن الحسن في المذهب الحنفي، إذ أن كليهما يعد راوي مذهب صاحبه وناقله، وله مع ذلك اجتهاد حرّ، وسنرى أن أعظم كتب المذهب المالكي: (المدونة) كتبها سحنون وراجعها ابن القاسم، ويعتبرونه هو صاحب المدونة.

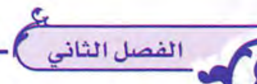
هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة، كان التقاؤه بمالك بعد ابن وهب، وقد طالت صحبته لمالك، ولازمه مدة طويلة نحواً من عشرين سنة، وتفقه بفقهه..

وقد تلقى مع ذلك عن كبار العلماء من أمثال الليث بن سعد في مصر، ومسلم بن خالد الزنجي، وعبد العزيز بن الماجشون في المدينة، وسفيان بن عيينة، ونافع بن أبي نعيم، وغيرهم.

وكان ابن القاسم الحجة الأولى في المذهب المالكي، وروى عنه الكثيرون، وإليه كان يرجع في مسائل مالك وفتاويه، حتى أن ابن وهب وهو من تلاميذ الإمام مالك أيضاً يقول لأحد تلاميذه: إذا أردت هذا الشأن (فقه الإمام مالك) فعليك بابن القاسم، فإنه انفرد به وشُغلنا بغيره.

عبد الرحمن بن القاسم أشهر تلاميذ الإمام مالك، صحبه عشرين سنة، ويعتبرونه صاحب كتاب «المدونة»، وهو الحجة الأولى في المذهب المالكي بعد الإمام مالك.





اختلاف ابن القاسم مع الإمام مالك

وكان ابن القاسم يختلف أحياناً مع الإمام مالك ليس فقط في قضايا الفقه، بل حتى في التعامل، فالإمام مالك كان يقبل هدايا الملوك وأعطياتهم وهباتهم، وأغلب أموال الإمام مالك من هذه الهبات، أما ابن القاسم فكان رأيه يختلف تماماً، وكان رأيه رأي أبي حنيفة في ذلك، ويقول: ليس في قرب الولاة ولا الدنو منهم خير..

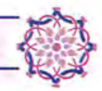
وكان جواداً عابداً زاهداً، وكان يعتبر كثرة الإخوان رقّاً، لأنه لا يجعل الشخص حرّاً في تقديره للأمور، فإن كان قاضياً خشي عليه الظلم، وإن كان عالماً خشي عليه ضياع وقته، ولذا أُثر عنه أنه كان يقول: إياك ورقَّ الأحرار..

فقيل له: كيف يكون؟

قال: كثرة الإخوان (أي الأصحاب)، ويقول: لعل هذا يجعلك تنتصر لبعضهم دون بعض ولا يكون هذا الحق (أي أن حل مشاكل الأصدقاء قد تؤدي بالإنسان إلى المجاملة الكاذبة وهي كالرقّ والعبودية).

توفي بعد ثلاث وستين سنة من العمل المبارك في مصر عام 191هـ.

كان ابن القاسم معروفاً بالزهد والعبادة، ولا يحب كثرة الأصحاب، وقد اختلف مع أستاذه في بعض المسائل، توفي سنة 191هـ، ويعتبر أعظم تلاميذ الإمام مالك..



2 - عبد الله بن وهب

وهو التلميذ الثاني من تلاميذ الإمام مالك، وهو بربري أصلاً ونسباً، وقرشي ولاءً، جاء من مصر إلى المدينة صغيراً لأجل طلب العلم، وصحب الإمام مالكاً عشرين سنة، وكان له دور عظيم في حياة الإمام مالك وما بعد في نشر فكره ومذهبه وعلمه، وهو من أقرب أصحابه إليه..

وكان الإمام مالك يهتم به اهتماماً خاصاً ويحبه حباً عظيماً، وكان في الإمام مالك شدة على تلاميذه، يقولون: ما نجا أحد من تلاميذ الإمام مالك من زجره إلا ابن وهب، وكان يلقبه بالفقيه، ويسمح له بالكتابة عنه.

عبد الله بن وهب الثاني من تلاميذ الإمام مالك، وكان مالك يحبه حباً شديداً ويلقبه بالفقيه، صحبه عشرين سنة، واهتم به الإمام مالك اهتماماً خاصاً، فصار ابن وهب من أعظم علماء المذهب.

إكثاره من رواية الحديث

وكان ابن وهب يكثر إكثاراً شديداً من حديث النبي ﷺ حتى اختلطت عليه الأمور أحياناً، فكان يقول: لولا أن الله أنقذني بمالك والليث لضللتُ..

قيل له: كيف ذلك؟

قال: أكثرتُ من الحديث فحيرني (كنت أحياناً أنسى فأضع هذا الحديث لذاك السند) فكنتُ أعرض ذلك على الإمام مالك والليث فيقولان: خذ هذا، دع هذا..

وأحياناً لم يكن يدقق فيمن يروي عنهم، فيقول عنه أحد كبار المالكية في مصر في الجيل الثاني: ابن وهب أعلم أصحاب الإمام مالك بالسنن والآثار إلا أنه روى عن الضعفاء.

ولكن ذلك لا يقلل من شأن علمه، بل يدل على كثرة علمه، والذي في معظمه صحيح وجليل، وأما القليل الذي أصابه الخلل فقد دقق فيه العلماء وبينوه..

ومما يدل على عظمة هذا الإمام ما نقل من كلام الإمام مالك عنه لما أراد ابن وهب الرحيل فقال عنه الإمام مالك: (عبد الله بن وهب إمام)، ويا لها من شهادة كافية.

ولذلك كان أهل المدينة بعد وفاة الإمام مالك إذا اختلفوا في فتوى من فتاوى الإمام مالك ينتظرون أن يأتيهم ابن وهب ويقول لهم ما رأي الإمام مالك فيها.

واشتهر ابن وهب بالحديث بالذات، حيث كان ينقل الأحاديث من مالك ومن غيره، وكانت أحاديثه من الكثرة بمكان..

يقول ابن زرعة: نظرت في نحو ثلاثين ألفاً من حديث النبي ﷺ من أحاديث ابن وهب، ولا أعلم أني رأيتُ له حديثاً لا أصل له.

هكذا كان ابن وهب رحمه الله، علم عظيم وحديث كثير ليس فيه ما لا أصل له، وفتوى محفوظة عن الإمام مالك مباشرة..





كان ابن وهب يكثر جداً من حديث النبي ﷺ ، وهو أعلم أصحاب مالك بالسنن والآثار، وهو أكثرهم حفظاً لفتاوى الإمام مالك، وهو المرجع فيها عند الناس..

حياة ابن وهب

وقد قسّم ابن وهب حياته ثلاثة أقسام: فكان من شأنه أنه يقضي ثلث وقته في العلم..
وثلث وقته في الجهاد ويتلقى العلم ممن يصحبهم في الجهاد..
وثلث ثالث للعبادة، حيث يذهب للحج ويتلقى العلم ممن يلقاهم في الحج..
هكذا وزّع علمه ووزّع وقته رحمه الله، وحتى في الجهاد والعبادة يتلقى العلم في علم في جهاد وعبادة..
وكان له رأي خاص في تولي منصب القضاء، حيث يروي يونس بن عبد الأعلى: أن الخليفة كتب إلى ابن وهب وطلب منه أن يتولى قضاء مصر، فعندها اعتزل الناس، ورآه رشدين بن سعد وهو يتوضأ في صحن داره، فقال له: ألا تخرج فتقضي بينهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؟ فرفع رأسه وقال: إلى هنا انتهى عقلك؟ أما علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء،وأن القضاة يحشرون مع السلاطين؟

قسّم ابن وهب حياته ثلاثة أقسام: للعلم، والجهاد، والحج. وحتى في أثناء الجهاد والحج كان يحرص على اللقاء بالعلماء والتعلم منهم.

آثـــاره

وكان لابن وهب شأن عظيم في المذهب المالكي، فقد كان أحد مَن نشروا المذهب في مصر وبلاد المغرب، وغليه كانت الرحلة في معرفة فقه مالك، بعد موت مالك، وفي حياته عند من يشق عليهم السفر إليه نفسه..
وله كتب كثيرة جليلة المقدار، عظيمة المنفعة، كانت لها آثار كبيرة في تثبيت المذهب، فيذكر من يؤرخ له فيقولون: له كتب في سماعه من مالك صغيرة وكبيرة تصل إلى ثلاثين كتاباً، من بين هذه الكتب: الموطأ الكبير، والمغازي، وغيره، حتى كان الإمام ابن وهب يُسمَّى ببحر العلوم..
وذكرنا أن ابن وهب أصلاً من البربر الذين سكنوا مصر، فما منعه ذلك أن يكون هذا أن يكون من كبار المذهب المالكي..
توفي عن عمر ناهز 72 سنة في عام 197هـ.

سُمِّي ابن وهب ببحر العلوم، وكان له مؤلفات كثيرة وعظيمة كانت لها آثار كبيرة في تثبيت المذهب..
توفي سنة 197هـ.





3 - أشهب بن عبد العزيز القيسي

الصاحب الثالث للإمام مالك، أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم الفقيه المصري..
من أهل مصر أيضاً (وانظر إلى أن التلاميذ الثلاثة الكبار كلهم من أهل مصر، عاشوا فيها وماتوا فيها).
وُلد أشهب في مصر سنة 150هـ، (في السنة نفسها التي ولد فيها الإمام الشافعي) وتوفي فيها عام 204 هـ في الفسطاط، (وهي أيضاً نفس السنة التي مات فيها الشافعي).
وهو قيسي عامري من بني جُعدة.
كان حريصاً على العلم، وحريصاً على الأخذ من عدة علماء.
فأخذ العلم عن الليث بن سعد، ويحيى الغافقي المصري، وابن اللهيعة بمصر، وأخذ عن ابن عيينة، والفُضيل بن عياض.
وانتقل ورحل في طلب العلم، لكن ملازمته وصحبته الكبيرة كانت للإمام مالك، إلى أن كان واحداً من أكبر أصحابه، وكان أحد رواة فقهه..
وله مدونة تُسمَى (مدونة أشهب)، أو (كتب أشهب)، وكان نظيراً لابن القاسم، ولكنه كان أصغر منه..
وقيل لسحنون تلميذهما: أيهما أفقه؟
فقال: كانا كفرسي رهان، ربما وفق هذا وخذل هذا، وربما خذل هذا ووفق هذا..
ولقد التقى به الشافعي وقال فيه: ما رأيت أفقه من أشهب. وقد انتهت إليه رياسة الفقه في مصر..
وألّف أشهب كتاباً سمِّي المدونة (غير مدوَّنة سحنون)، وقد قال فيه القاضي عياض: كتاب جليل كبير كثير العلم..
قال ابن الحارث: لما كملت الأسديّة أخذها أشهب، وأقامها لنفسه، واحتج لبعضها، فجاء كتاباً شريفاً، ولما بلغ ابن القاسم ذلك ذكر أنه وجد كتاباً تاماً فبنى عليه، فأرسل إليه أشهب: أنتَ إنما غرفتَ من عين واحدة، وأنا من عيون كثيرة..
فأجابه ابن القاسم: عيونك كدرة، وعيني أنا صافية..



قصة طريفة

اختلف أشهب وابن القاسم تلميذا الإمام مالك في مسألة، فقال أشهب: سمعتُ من مالك كذا..
وقال ابن القاسم: سمعت من مالك غير ذلك..
فحلف أشهب وقال: أقسم أن قولك خطأ، فقال ابن القاسم: وأنا أقسم أن قولك خطأ..
فسألا زميلهما الثالث ابن وهب، وكان أقدم منهما صحبة للإمام مالك، وهو أكثر مَن دوَّن فقه الإمام مالك، فأخبرهما ابن وهب أن مالكاً قال القولين جميعاً، فكلاهما كان على صواب، لكنه أخطأ في تخطيء زميله، ولزمهما اليمين.
وهذه القصة تدل على عظمة الثلاثة ودقة حفظ ابن وهب لفتاوى الإمام مالك..

أشهب تلميذ الإمام مالك ولد سنة 150هـ، وتوفي سنة 204هـ، صحب الإمام مالك، وأخذ عن غيره من العلماء، وهو من أكبر أصحاب الإمام مالك.

4 - عبد الله بن عبد الحكم

أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن الليث، مولى عُميرة -امرأة من موالي عثمان بن عفان-.
سمع مالكاً، والليث، وبكر بن مُضر، وعبد الرزاق، والقعنبي، وابن لهيعة، وابن عيينة..
قال الكندي: كان فقيهاً، وقال ابن زرعة الرازي: هو صدوق ثقة..
وقال محمد بن مسلم: كتبتُ عنه، وهو شيخ بمصر..
وقال أحمد بن عبد الله الكوفي: عاقلٌ، حليمٌ، ثقة، كتبت عنه..
وقال الشيرازي الشافعي: وإليه أفضت الرئاسة بمصر بعد أشهب، وكان أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، وروى عن ابن وهب، وابن القاسم، وأشهب كثيراً، وصنَّف كتاباً اختصر فيه أسْمِعَته، ثم اختصر منه كتاباً صغيراً..
قال ابن عبد البر: وكان عبد الله صديقاً للشافعي، وعليه نزل حين جاء من بغداد، فأكرم مثواه، وبلغ الغاية في برِّه، وعنده مات..
وقد روى عبد الله بن عبد الحكم عن الشافعي، وكتب كتبه بنفسه، وابنيه، وضم ابنه محمد إليه..
وهذا لا شك نمطٌ من التسامح المذهبي لا يقدر عليه إلا العاقلون المخلصون العلماء..

عبد الله بن الحكم من تلاميذ الإمام مالك، وهو أعلم أصحابه بمختلف قوله، وكان صديقاً للشافعي، وإليه أفضت الرئاسة بمصر بعد أشهب..



5 - أسد بن الفرات

وهو من تلاميذ الإمام مالك، صاحب مواهب متعددة، فهو فقيه، فارس، غازٍ، وقائد له مكانة عظيمة في التاريخ الإسلامي..

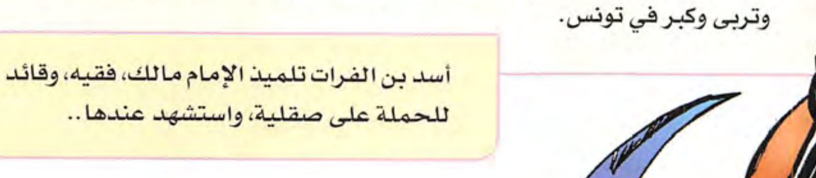
أصله من خراسان، وولد بحرَّان من ديار بكر سنة 145هـ..

وانتقل به أبوه إلى تونس وهي من عواصم العالم الإسلامي، ومنها انتقلت الجيوش الإسلامية الفاتحة إلى المغرب وإلى الأندلس، ومنها انطلق الجيش الإسلامي إلى صقلية لفتحها..

وأسد بن الفرات تلميذ الإمام مالك هو قائد الجيش الذي توجه لفتح صقلية..

وتحركت الحملة، وبدأ الضغط على صقلية عند أسوار سرقوسة العظيمة من مدن صقلية، واستطاع الجيش أن يفتحها لكن بعد أن استشهد قائد هذه الحملة أسد بن الفرات في عام 213 هـ، وظلَّت دولة إسلامية أقيمت فيها حضارة إسلامية لأكثر من ثلاثمائة سنة.

وأسد بن الفرات (مع أنه وُلد في حرَّان) يعتبر من أهل المغرب، لأنه نشأ وتربى وكبر في تونس.



أسد بن الفرات تلميذ الإمام مالك، فقيه، وقائد للحملة على صقلية، واستشهد عندها..





أسد بن الفرات

دعونا نرجع في الزمان إلى ما قبل ذلك، حيث كان قاضياً للقيروان في تونس، وكان يقتصر في أحكامه على مذهب الإمام أبي حنيفة، بسبب انتشار مذهبه في شمال إفريقية والمغرب في تلك الفترة، فكيف تحول هذا الفقيه الحنفي إلى أن يكون واحداً من أعظم تلاميذ الإمام مالك؟

بعد أن درس أسد بن الفرات الفقه الحنفي في تونس، رحل في طلب العلم ووصل إلى الإمام مالك في المدينة فبُهر به وبعلمه وهيبته وجلاله ومكانته، فلازمه وسمع منه الموطأ مباشرة، وكان من شأنه أن يسأل الأسئلة الكثيرة على طريقة الحنفية، ويسأل الأسئلة التي لم تقع، والإمام مالك لا يحب هذه الطريقة أبداً، ولا يحب أن يفتي إلا في القضايا التي وقعت، وفي إحدى الجلسات سأله عن مسألة لم تقع فأجاب، وسأله عن أخرى فأجاب، وسأله عن ثالثة فأجاب، ثم أراد أن يسترسل، فقال له الإمام مالك: حسبُك يا مغربيّ، إذا أردت الرأي فعليك بالعراق، وظلَّ أسد يتلقى العلم عند الإمام مالك، ثم أراد أن يستكمل في القضايا التي ليس فيها جواب في الفقه المالكي، فعزم على الذهاب إلى العراق، وهناك التزم بتلقي العلم على يد محمد بن الحسن (من أعظم تلاميذ الإمام أبي حنيفة)، والتقى بأبي يوسف (كبير المذهب الحنفي بعد أبي حنيفة) وتلقى منه العلم، وقرأ كتب محمد بن الحسن التي تمثل أهم ما كتب في الفقه الحنفي.

ثم أخذ يجمع بين الفقهين (المالكي والحنفي)، فلما ترك العراق وذهب إلى مصر (بعد وفاة الإمام مالك) حمل أسد بن الفرات قضايا الفقه الحنفي من كتب محمد بن الحسن، وقضايا الفقه المالكي مما سمعه وتلقاه من الإمام مالك، فيعتبر من علماء المذهبين، وإن كان أقرب للمذهب المالكي..

تلقى أسد بن الفرات الفقه المالكي من الإمام مالك، والفقه الحنفي من محمد بن الحسن وأبي يوسف، فكان من علماء المذهبين..

6 - عبد الملك بن الماجشون



كان مولى لبني تيم، وكان أبوه عبد العزيز بن الماجشون قريناً لمالك، وهو الذي قيل أنه كتب موطأ قبل مالك، لم يرَ فيه هذا أنه سلك السبيل الأقوم.

كان فقيهاً فصيحاً دارت عليه الفتيا في زمانه إلى موته، وعلى أبيه عبد العزيز قبله، فهو فقيه..

وكان ضرير البصر، وقيل إنه عمي في آخر حياته..

روى عن مالك، وعن أبيه، وقد أثنى عليه سحنون (العالم المالكي الكبير)، وقال: هممت أن أرحل إليه، وأعرض عليه الكتب، فما أجاز منها أجزت، وما رد رددت، وقد أثنى عليه ابن حبيب مؤلف الواضحة، وأخذ عنه كثيراً، وكان يرفعه في الفهم على أكثر أصحاب مالك..

عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون، كان فقيهاً فصيحاً، وعليه دارت الفتيا (حسب المذهب المالكي) في زمانه إلى موته..

تلاميذ آخرون

إن محاولة إحصاء من تلقوا العلم على مالك وترجمتهم أمر عسير، ولذلك نكتفي بذكر الذين عرفوا بأن لهم صلة بالكتب التي اعتبرت أصلاً لذلك المذهب، وهم مَنْ ذكرنا..

وإذا كانت عنايتنا إلى ذكر كلمات موجزة عن تلاميذه الذين عرفوا بأنهم قد تركوا أصولاً للكتب المالكية المعروفة الآن، فإن علينا أن نذكر من تلاميذ هؤلاء، وتلاميذهم الذين دونوا تلك المجموعات، ونكتفي في هذا المقام بذكر ثلاثة توخياً للإيجاز؛ وهم:

سحنون

وهو أبو سعيد سحنون، واسمه عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي العربي، من المغرب..

أصله شامي من حمص، قدم أبوه سعيد في جند حمص، ولُقِّب بسحنون اسم طائر حديد الذهن لحدَّته في المسائل كما قيل، وقد كان في سن تسمح له بالتلقي على مالك قبل موته، ولكن لم يكن عنده مال يكفي للرحلة وقتئذ، ولذلك اكتفى بالسماع من تلميذه ابن القاسم، وكانت جوابات مالك ترد إليه في مصر..

قال سحنون: كنتُ عند ابن القاسم وجوابات مالك ترد عليه، فقيل له: ما منعك من السماع منه؟

قال: قلة الدراهم، وقال مرة أخرى: لحى الله الفقر ،فلولاه لأدركتُ مالكاً..

وكما سمع من ابن القاسم سمع من ابن وهب، وأشهب، وعبد الله بن عبد الحكم، وغيرهم..

وبعد أن تزود من العلم بمصر وغيرها عاد إلى المغرب، وقد انتهت إليه فيه رياسة العلم، وصار على قوله المعوَّل، وصنف المدوَّنة، وكان له من الأصحاب والتلاميذ ما لم يكن لأحد من أصحاب مالك..

وكان ثقةً ورعاً صادقاً، صارماً في الحق، زاهداً في الدنيا، قال أبو بكر المالكي: وكان مع هذا رقيق القلب، غزير الدمعة، ظاهر الخشوع، متواضعاً، قليل التصنّع، شديداً على أهل البدع..

وسئل أشهب: مَن قدم إليكم من المغرب؟

قال: سحنون.

قيل: فأسد بن الفرات؟

قال: سحنون –والله- أفقه منه بتسع وتسعين مرة..

وقد تولى القضاء، بعد أن أُغلظ عليه وكان يتمنّع سنة 234هـ، وعمره نحو 74 سنة، واستمرّ في ولايته إلى أن مات سنة 240 هـ، أي نحو ست سنوات..

وكان لا يأخذ لنفسه رزقاً ولا صلة من السلطان في قضائه كله..





سحنون سمع من تلاميذ الإمام مالك، ولم يتمكن من السماع من مالك بسبب الفقر وقلة المال، وقد انتهت إليه رياسة العلم في المغرب، وصنَّف كتاب المدوَّنة، ووُلي القضاء نحو ست سنوات، توفي سنة 240هـ.



عبد الملك بن حبيب

هو عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون بن عباس بن مرداس السُّلَمي الأندلسي، أبو مروان..

تعلَّم في الأندلس ورحل منها إلى الشرق سنة 208 هـ، وأخذ عن كثيرين من أصحاب مالك، منهم ابن الماجشون، وعبد الله بن عبد الحكم، وغيرهم..

ثم عاد إلى الأندلس سنة 216 هـ، وقد جمع علماً كثيراً، فذاع خبره، وقربه أمير الأندلس، وجعله مع يحيى بن يحيى ناقل الموطأ في مشاورته..

وكان فقيهاً ولم يكن محدِّثاً، وهو مؤلف كتاب الواضحة الذي اعتبر أصلاً ثانياً للفقه المالكي عند بعض الناس بجوار المدونة، توفي سنة 291 هـ..

عبد الملك بن حبيب أخذ عن أصحاب الإمام مالك، وقد جمع علماً كثيراً، وهو مؤلِّف كتاب الواضحة..

أبو الوليد العتبي

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن عبد العزيز، وهو أندلسي قرطبي..

سمع من سحنون وغيره، وكان حافظاً للمسائل جامعاً لها، عالماً بالنوازل، وكان ابن لبابة يقول: لم يكن أحد ها هنا يتكلم مع العتبي في الفقه، ولا كان أحدٌ بعده يفهم فهمه إلا من تعلَّم عنده..

وقال ابن عبد البر: كان عظيم القدر عند العامة معظَّماً في زمانه..

وقد ألَّف كتاباً اسمه المستخرجة أو العتبية استخرجها من الواضحة، كانت محل ثقة الأندلسيين والأفريقيين وقتاً، حتى لقد قال ابن حزم فيها: لهي عند أهل العلم بإفريقيا القدر العالي، والطيران الحثيث.

(ولقد طعن في نقل المستخرجة للفقه المالكي كثيرون عاصروا مؤلفها، فقد قال محمد بن عبد الحكم: رأيتُ جلها كذباً، ومسائل لا أصول لها، وقال ابن لبابة: كثرت فيها الروايات المطروحة، والمسائل الشاذة، وقال غيره: في المستخرجة خطأ كثير..)

توفي العتبي سنة 254هـ..



محمد بن أحمد العتبي، أندلسي قرطبي، سمع من سحنون وغيره، ألف كتاب العتبية، وتوفي سنة 254هـ..



الباب الخامس

المذهب المالكي

- الفصل الأول: أعظم كتب المذهب
- الفصل الثاني: أصول المذهب
- الفصل الثالث: رحيل الإمام

الفصل الأول



- الموطأ أعظم كتبه
- الأسدية
- المدونة

الباب الخامس



الفصل الأول

أعظم كتب المذهب



1 - الموطأ أعظم كتبه

أعظم مؤلفات الإمام مالك، ومن أعظم المؤلفات في الإسلام إلى اليوم هو الموطأ، هذا الكتاب الجليل الذي يقول عنه الشيخ أبو زهرة: يُعدَ الموطأ أول مؤلف ثابت النسبة من غير شك، ذاع وانتشر في الإسلام، وتناقلته الأجيال جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا، وهو ثابت النسبة للإمام مالك رحمه الله، ويُعد الأول في التأليف في الفقه والحديث معاً.

ولم يُعْتَنَ -كما قال القاضي- بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطأ، فإن الموافق والمخالف اجتمع على تقديره وتفضيله وروايته وتقدُّم حديثه وتصحيحه..

هذا الكتاب الجليل العظيم، كيف كانت بدايته؟

كنا قد ذكرنا أنه حدث خلاف بين الإمام مالك ووالي المدينة، أدَّى إلى ضرب الإمام مالك، ثم جاء إليه الخليفة أبو جعفر المنصور واسترضاه، ودار بينهما حديث طويل، كان جزء منه عن الفقه وقضاياه..

فقال الخليفة أبو جعفر المنصور للإمام مالك: يا أبا عبد الله ضع هذا العلم ودوِّنه، ودوَن منه كتباً، وتجنَّب فيه شدائد عبد الله بن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد أوسط الأمور، وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة رضي الله عنهم، لنحمل الناس على علمك وكتبك، ونبثها في الأمصار، ونعهد إليهم ألا يخالفوها، ولا يقضوا بسواها.

الموطأ من أعظم المؤلفات في الإسلام، وكان اقتراح الخليفة المنصور على الإمام مالك أن يضع علمه ويدوِّنه في كتب هو الذي شجع الإمام على كتابة الموطأ..

موافقة مالك

إنها فرصة للإمام مالك للشهرة ولنشر علمه، لكن انظروا إلى الرد الجميل من رجل ليست الشهرة هدفاً له..

قال أبو جعفر للإمام مالك: اجعل العلمَ يا أبا عبد الله علماً واحداً..

قال مالك: فقلت له: يا أمير المؤمنين، إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد، فأفتى كلٌ في مصره بما رأى، وإن لأهل البلد (مكة) قولاً، ولأهل المدينة قولاً، ولأهل العراق قولاً قد تعدوا فيه طورهم..

فردَ المنصور: أما أهل العراق فلستُ أقبل منهم صرفاً ولا عدلاً، إنما العلم عند أهل المدينة، فضع للناس العلم.

فقال له مالك: إن أهل العراق لا يرضون علمنا..

فقال أبو جعفر: يُضرب عليه عامتهم بالسيف، وتقطع عليه ظهورهم بالسياط..

ففكر الإمام مالك، ثم وجد أنه من المهم أن يركِّز علمه في كتب، ويجمع في كتابه الحديث والسنة وأقوال أهل المدينة.

رفض الإمام مالك في البداية أن يدوِّن العلم ثم وجد أنه من المهم أن يركِّز علمه في كتب.. فكان الموطأ.





تدوين الموطأ ومعناه

أعظم وأشهر مؤلفات الإمام مالك الموطأ، ظل في كتابته 11 سنة، ويسر خلاله العلم والحديث النبوي للناس..

وُجدت الدواعي لتدوين الموطأ، وجاء طلب الخليفة متفقاً مع تلك الدواعي التي ارتآها مالك، وأجاب نداءها من تلقاء نفسه..

ويظهر أن مالكاً أخذ وقتاً طويلاً في تدوينه وتمحيصه، حتى استطاع أن ينشره على الناس، فإن طلب أبي جعفر المنصور تدوينه كان سنة 148هـ تقريباً، ونشره على الناس كان سنة 159هـ، أي أن الفترة بين الطلب والنشر كانت نحو إحدى عشرة سنة، قضاها مالك في جمعه وتمحيصه..

ولقد قالوا: إنه استمرّ يمحص فيه إلى أن مات، فكان كلما راجعه حذف منه بعض ما كان قد أقرّ..

وهو مجلد واحد..

انظر الهمة، وتأمل الدقة، كتاب واحد في إحدى عشرة سنة، لتعلم قيمة الموطأ..

والموطّأ في اللغة: المذلّل، الممهَّد، قالوا: «رجل موطأ الأكناف» أصله: أن جوانب داره وطيئة يسهل الوصول إليها، ومجازُها أن أحداً لا يجد صعوبة في الوصول إليه لسهولة أخلاقه ولين جانبه..

وعلى مثل هذا سمَى مالك كتابه (الموطأ)، أي المذلل مورده، لا يمتنع على الناس فهمه، فكأنه يقول: مهدتُ العلم للناس، وجعلته كالطريق المعبّد الذي يسيرون عليه بلا تعب.





منهجه في كتابة الموطأ

كان مسلك مالك رحمه الله في الكتاب يتفق مع الغرض الذي قصده من جمعه، والباعث الذي بعثه إليه، ولم يكن الغرض أن يدوّن طائفة من الأحاديث صحت عنده، كما هو الشأن في صحاح السنة التي دونت من بعده؛ بل كان الغرض من الكتاب جمع الفقه المدني، والأساس الذي قام عليه، فهو كتاب حديث وسنة وفقه، ولذا نجده يكثر من الأحاديث في الموضوع الفقهي الذي اجتهد فيه، ثم عمل أهل المدينة المجمع عليه، ثم رأي مَنْ التقى بهم من التابعين وأهل الفقه والرأي المشهور بالمدينة، فإن لم يكن شيء من ذلك في المسألة التي بين يديه اجتهد رأيه على ضوء ما يعلم من الأحاديث والفتاوى والأقضية، ودوّن رأيه في ذلك، وإذا كان كذلك فالكتاب لا يبين فقط المجموعة التي صحت عنده من أحاديث النبي ﷺ، ورأى أن ينشرها بين الناس، ويدونها في كتاب، بل يبين ذلك، ويذكر آراء الصحابة والتابعين الذين اختار آراءهم، والأمور التي رأى تدوينها في ذلك الكتاب..

مسلكه في رواية الأحاديث

كان انتقاء مالك للأحاديث انتقاء المتعرّف لأحوال رواتهم الفاحص لأحوالهم، وإذا كان أبو حنيفة رحمه الله قد اشتهر بفهمه لفقه الحديث وتفسيره تفسيراً فقهياً يستنبط منه العلل التي يبني عليها الأقيسة، فمالك رحمه الله قد اشتهر بنقد الرجال نقد الفاهم الخبير، ووزن الحديث بكتاب الله، والمشهور من السنة، وما يراه مجمعاً عليه من أهل المدينة، ولعلّ مالكاً أول من عني عناية شديدة بدراسة رجال الحديث، وإذا كان أخص ما يُعنى به المحدثون دراسة رجال الحديث وعدلهم وضبطهم وفهمهم، فمالك قد فتح بمسلكه لهم عين الطريق فسلكوه..

وقد أُثرت عنه كلمات في شروط الرجال الذين يستحقون أن يروي عنهم، ومن كان يرفض روايته، تعد بياناً لشروط الرواة المقبولة روايتهم، ومن ذلك كان قوله:

لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم:

لا يؤخذ من سفيه (أحمق)، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعة، ولا من كذّاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يُتّهم (لا يكذب) على حديث رسول الله ﷺ ، ولا يؤخذ من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل ويحدّث به (أي لا يؤخذ من غير المتقن لنقل الحديث والعلم وإن كان صالحاً).

وكان مالك كثير التفتيش فيما يروي بعد روايته، حتى إنه ليسقط كثيراً مما رواه لعيب اكتشفه في الراوي أو لشذوذ في الحديث، أو نحو ذلك، ولقد قيل إن الموطأ كان نحو عشرة آلاف حديث، فلم يزل ينظر فيه كل سنة، ويسقط منه حتى بقي هذا الذي روته الأجيال، ولقد قال بعض تلاميذه: كان علم الناس في زيادة، وعلم مالك في نقصان، هذه عناية مالك بالحديث رواية ودراية، ولذلك كانت أحاديثه في الموطأ منتقاة، وعدّ أهل الفن كل ما فيه من الحديث صحيحاً، إلا قليلاً، ولقد وصف ابن عبد البر مالكاً في روايته وصفاً موجزاً محكماً، فقال: إن مالكاً كان أشد الناس تركاً لشذوذ العلم، وأشدهم انتقاداً للرجال، وأقلهم تكلفاً، وأتقنهم حفظاً، ولذلك صار إماماً..



كان غرض الإمام مالك من الكتاب هو جمع الفقه المدني والأساس الذي قام عليه، فهو كتاب حديث وسنة وفقه، وقد عُني مالك بدراسة رجال الحديث عناية شديدة، ولذلك كانت أحاديثه في الموطأ منتقاة، وجميعها صحيحة إلا القليل..

مسلكه في الآراء التي دونها في الموطأ

هذا شأن الموطأ في أحاديثه، أما فقهه، فقد كان بعضه تخريجاً للأحاديث، وبعضه بياناً للأمر الذي كان مجمعاً عليه بالمدينة، وبعضه بياناً لما كان عليه التابعون الذين التقى بهم، وبعضه رأياً اختاره من مجموع آرائهم، وبعضه رأياً رآه قد قاسه على ما علم، فهو شبيه بما علمه من كتاب الله وسنة ورسوله ﷺ، وما اجتمع عليه أهل المدينة، وما نقله عن أهل العلم من الصحابة والتابعين..

ولقد وصف فقهه في الموطأ فقال: أما أكثر ما في الكتاب فهو رأي، لعمري ما هو برأي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المُقتدى بهم الذين أخذتُ عنهم، وهم الذين كانوا يتقون الله، وكثر عليَّ فقلت رأيي، وكان رأيهم مثل رأيي مثل رأي الصحابة الذين أدركوهم عليه، وأدركتهم أنا على ذلك، فهذا وراثة توارثوها قرناً عن قرن إلى زماننا، فهو رأي جماعة ممن تقدم من الأئمة.

ثم يقول: وما كان فيه الأمر المجتَمع عليه؛ فهو ما اجتمع عليه قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه. وما قلتُ: الأمر عندي فهو ما عمل الناس به عندنا، وجرت به الأحكام وعرفه العام والخاص، وكذلك ما قلت ببلدنا فيه، وما قلت فيه بعض أهل العلم فهو شيء أستحسنه من قول العلماء.

وأما ما لم أسمعه منهم فاجتهدتُ ونظرتُ على مذهب من لقيته، حتى وقع ذلك موقع الحق أو قريباً منه، يقول: حتى لا نخرج عن مذهب أهل المدينة وآرائهم.

وإن لم أسمع ذلك بعينه، فنسبتُ الرأي بعد الاجتهاد مع السنة، وما مضى عيه أهل العلم المقتدى بهم، والمعمول به عندنا من لدن رسول الله ﷺ والأئمة الراشدين، فذلك رأيهم ما خرجتُ إلى غيره.

هذه خلاصة بينة تكشف كشفاً دقيقاً عن مسلك الإمام مالك في الاجتهاد من غير نص، فهو ينظر إلى ما اجتمع عليه أهل العلم، ثم ما عمل الناس به، وما جرت عليه الأحكام وعرفه العام والخاص، فإن لم يجد أمراً اجتمع عليه العلماء، أو صارت عليه الأحكام، أخذ ما يستحسنه من أقوال العلماء، فإن لم يجد أمراً اجتمع عليه العلماء، أو صارت عليه الأحكام، أخذ ما يستحسنه من أقوال العلماء، فإن لم يجد اتجه إلى الاجتهاد على ضوء ما علم بأن يوازن ويقارب، ويلحق الأشباه بأشباهها، والأشياء بأمثالها، وهو فيما يسمح وما يجتهد فيه لا يخرج عن العلم المدني إلى غيره، يأخذ بالنص أو الحمل عليه، ولذلك قال إنه رأي، ليس برأي، أي أنه نظر نظره، ورأي ارتآه، ولكنه ليس بدعاً ولا جديداً، ولا ابتكاراً ولا أمراً غريباً عن العلم المدني..

ففي غير النصوص يتقيد في اجتهاده بعلم أهل المدينة المشهور عندهم، وبعلم الصحابة والتابعين، ثم بالقياس على ما قالوا وما أفتوا به..

منهج الإمام مالك في الموطأ: ما سمعه من الأئمة، وما اجتمع عليه أهل الفقه والعلم، وعمل أهل المدينة، ثم يجتهد..





مكانة الموطأ

كان شأن الموطأ عظيماً إلى درجة أن هارون الرشيد عرض على الإمام مالك أن يعلّق الموطأ في الكعبة تكريماً له وإكباراً، فيقول الإمام مالك: يا أمير المؤمنين، أما تعليق الموطأ في الكعبة فإن أصحاب رسول الله ﷺ اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلدان، وكلٌّ عند نفسه مصيب، يا أمير المؤمنين إن اختلاف العلماء رحمة من الله تعالى على هذه الأمة، كلٌّ يتبع ما صح عنده، وكلٌّ على هدى، وكلٌّ يريد الله (تأمل في أدب وعلم وتواضع الإمام وقد كان يستطيع أن يخلد كتابه في الكعبة الشريفة، ولكنه احترم العلم والعلماء، ولم يحب أن يقدم نفسه عليهم).

ويشهد الإمام الشافعي للموطأ فيقول: ما في الأرض كتابٌ بعد كتاب الله عز وجل أنفع من موطأ مالك، وإذا جاء الأثر من كتاب مالك فهو الثريّا..

وقال أيضاً: ما بعدَ كتاب الله تعالى كتاب أكثر صواباً من موطأ مالك، وقال: ما وُضع في الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك بن أنس (يعني الموطأ)، وقال: لولا مالك وابن عيينة من كان يحفظ أحاديث أهل الحجاز؟ وقال ابن مهدي لا أعلمُ من علم الإسلام بعد القرآن أصحَّ من موطأ مالك..

وقال ابن وَهْب: من كتب موطأ مالك فلا عليه أن يكتب من الحلال والحرام شيئاً..

كان شأن الموطأ عظيماً، حتى أن الرشيد أراد تعليقه في الكعبة، وشهد له الشافعي بأنه أعظم كتاب في العلم.

روايات الموطأ

ذكر القاضي عياض عدة من رووا الموطأ فكانوا نيفاً وستين، وقد ذكر أسماءهم ونقلها عنه السيوطي، وقال عياض بعد ذكرهم: هؤلاء هم الذين حققنا أنهم رووا الموطأ، ونص على ذلك أصحاب الأثر والمتكلمون في الرجال..

وقد ذكر الغافقي أنه قرأ الموطأ من اثنتي عشرة رواية، ورتب سنده على أساسها.

والمطبوع المتداول الآن روايتان للموطأ:

إحداهما: رواية محمد بن حسن الشيباني صاحب أبي حنيفة.

وثانيتهما: رواية يحيى بن يحيى الليثي البربري الأندلسي المتوفى سنة 234هـ، وهو من تلاميذ الإمام مالك، رحل إليه من الأندلس، وسماه عاقل الأندلس، إليه انتهت رياسة الفقه، وبه انتشر مذهب مالك هناك، وتفقه عليه جماعة لا يحصون، عُرض عليه القضاء فزهد فيه، فعَلَتْ منزلته، وكان إليه المرجع في تعيين القضاة، فكان لا يلي قاضٍ إلا بمشورته، ورواية محمد بن الحسن أقل عدداً في بعض أبوابها، وفي مقادير أحاديثها، من رواية يحيى، ويوازن العلماء بينهما من حيث الصحة، فيرجح بعضهم رواية محمد، ويرجح الأكثرون رواية يحيى، والاختلاف بين الروايتين ليس كبيراً، مما يدل على أن الأصل واحد والنسبة صحيحة في جملتها لا مجال للريب فيها.

وليس الموطأ هو الكتاب الوحيد للإمام مالك، فله آثار علمية أخرى، منها: تفسير غريب القرآن ورسالة إلى الإمام ابن وهب تلميذ الإمام مالك في مصر في الرد على القدريَّة، ورسالة في الأقضية، ورسالة في الفتوى، وكتاب السرور، وغيرها.





عدد من رووا الموطأ نيف وستون، ذكر أسماءهم القاضي عياض ونقلها عنه السيوطي، والمطبوع المتداوَل الآن روايتان: رواية محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، ورواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي من تلاميذ الإمام مالك..



الأسدية

2 - تأليف الأسدية

أصل ما جمعه أسد ابن الفرات ما يروى من أنه رحل إلى مالك، وتلقى عليه، ثم رحل إلى محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، وأخذ عنه كتبه، وتعلم فقه العراقيين، ولما عاد إلى مصر كان مالك قد مات، وقد أراد أن يجمع بين الفقه المالكي والفقه العراقي، فأتى بالمسائل التي اشتملت عليها كتب محمد، وأراد أن يعرف آراء مالك فيها، فيجتمع له الفقهان، وإن مسائل الكتب العراقية بعضها واقعي، وكثير منها فرضي، وإن لم يكن بعيد الوقوع..

ولما لم يجد مالكاً يرجع إليه، إذ كان قد توفاه الله، اختار تلاميذه الذين عُرفوا بطول ملازمته، وصدق الرواية عنه، وحسن التخريج على أصوله، فانتهى إلى عبد الرحمن بن القاسم..

منهج في المذهب

عاد أسد إلى مصر، وأراد أن يجيب عن كل المسائل في كتبه بأقوال مالك فيها أو في مثلها، فلجأ إلى تلاميذه، وبابن وهب وهو أكثرهم حديثاً، لكن الآخرين أفقه، فلم يجد ما يريده عنده، إذ كان يقصر إجابته على ما كان مروياً عن مالك، ولم يروَ عن مالك الفتاوى في كل ما اشتملت عليه كتب العراقيين، ولم يفتح باب الفرض والتقدير، فما كانت تسعفه رواية ابن وهب فقط..

ولذلك تركه وذهب إلى أشهب، فكان أشهب يجيبه في الفتيا بقوله هو لا بقول مالك، وما كان يريد إلا معرفة آراء مالك..

ولما لم يجد بغيته عند هذين الصاحبين، اتجه إلى عبد الرحمن بن القاسم وله بمالك صحبة طويلة، فقصد إليه، فأجابه، ووضعوا منهجاً خلاصته:

أن القضية التي فيها سماع من مالك يُكتب رأي الإمام مالك، فإذا جاءت قضية وكان ابن القاسم غير متأكد من رأي الإمام مالك فيها قال: أظن رأي مالك كذا..

وإذا كانت قضية ليس فيها سماع من الإمام مالك لكن لها أمثالها من أحكام مالك كان يحكم فيها قياساً على أحكام مالك..

أما القضايا التي ليس فيها رأي قريب أو شبيه، فكان ابن القاسم يجيب عنها باجتهاده الخاص، وكان أسد بن الفرات يكتب رأي ابن القاسم لأنه أعلم منه في مذهب الإمام مالك، ويذكر كذلك رأي الحنفية..

فجمع أسد بن الفرات فقه المالكية مع فقه الحنفية مع ترجيحات ابن القاسم في كتاب سماه: «الأَسَدَيَّة»، وقبل أن يغادر مصر إلى تونس ترك نسخة من (الأسدية) عند فقهاء المالكية الشباب في مصر، ونقل الفقه المالكي الآن إلى تونس.

الأسديّة: جمع فيها أسد بن الفرات أقوال الإمام مالك، وآراء الحنفية، واجتهاد ابن القاسم.







3 - المدونة

كاتبها

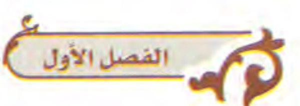
عبد السلام بن سعيد التنوخي، المعروف والمشهور بسحنون..

وسحنون من أهل المغرب العربي، كان فقيراً جداً في زمن الإمام مالك وتمنى أن يسافر ويتلقى العلم من الإمام مالك لكن الفقر منعه..

فبدأ يتنقل في المغرب إلى أن وصل إلى مصر، وفيها أكبر تلاميذ الإمام مالك؛ ابن القاسم، وأشهب، وابن وهب، وعبد الله بن الحكم..

وكان سحنون رغم فقره الشديد قاضياً، عالماً معلِّماً، ثقة، وكان شيخ أهل المغرب في العلم، وله عدد كبير من الأصحاب والتلاميذ، وكان شديداً في طلب الحق.

سحنون كاتب المدونة، عالم معلِّم، وهو من أهل المغرب العربي منعه الفقر من السفر والتلقي من الإمام مالك، لكنه تلقى على أكبر تلاميذه: ابن القاسم، وأشهب، وابن وهب.. وغيرهم..



كتابة «المدونة»

وهو في طريقه إلى مصر، توقف سحنون في تونس، فأخذ عن أسد بن الفرات «الأسدية»..
وكان مما جعل بعض الناس يتكلمون فيها، ما اشتملت عليه من أخال وظن، وحسبوا أن ذلك مثاراً للشك، وقالوا له: جئتنا بأخال وأظن، وتركتَ الآثار وما عليه السلف..
فقال: أما علمتم أن قول السلف هو رأي لهم؟! ولقد كنت أسأل ابن القاسم عن المسألة، فأقول: هو رأي مالك، فيقول: كذا أخال وأرى، وكان ربما يكره أن يهجم على الجواب..
ولما تلقى سحنون الأسديّة أراد أن يستوثق مما كان ظناً، فارتحل إلى ابن القاسم بها، وعرضها عليه، وقال: أريد أن أسمعها منك. فاستخار الله وأسمعه إياها، وأسقط من كتب أسد ما كان ظناً، وما كان يشك بأي نوع من الشك في نسبته إلى الإمام مالك، وما لم يجد فيه نصاً يثق به، أفتاه به على اجتهاده، بمقتضى أصول مالك أو على شبيه رأي مالك في مثله..
تلقى سحنون تلك الكتب على ابن القاسم بعد ذلك التهذيب، وكتب ابن القاسم إلى أسد: أن عارض كتبك بكتب سحنون، فإني رجعت عن أشياء مما رويتَها عني..
لكن أسد بن الفرات بعد استشارته لتلاميذه لم يفعل ذلك، حيث وجدوا من المصلحة العلمية إبقاء كتاب (الأسدية) بما فيه من آراء أخرى لغير الإمام مالك..
فهكذا كُتبت «المدونة»، وبقيت الأسدية..



قرأ سحنون الأسدية على ابن القاسم، وطلب منه إسقاط كل شيء عدا أقوال الإمام مالك، فكانت (المدونة) التي صارت أعظم كتب المذهب المالكي..

مكانة المدونة

إن من أوائل ما كُتب في فضل طلب العلم، ما كتبه ابن رشد، فهو يركِّز على فصل اسمه طلب العلم؛ يستمد به الأدلة من الآيات والأحاديث، ويضرب الأمثال لمن ارتحلوا في طلب العلم، فيضرب مثلاً بابن القاسم الأساس في وضع المدونة، الذي اغترب عشرين سنة في طلب العلم عند الإمام مالك، ثم يذكر رحلة سحنون إلى ابن القاسم مغترباً في طلب العلم، فيقول:
رحل سحنون إلى ابن القاسم فكان مما قرأ عليه مسائل المدونة، والمختلطة، ودونها، فحصلت أصل علم المالكيين، وهي مقدمة على غيرها من الدواوين بعد موطأ الإمام مالك، ويُروى: أنه ما بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك رحمه الله، ثم يقول: ولا بعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من المدونة، والمدونة عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو.



المدونة من أعظم كتب الفقه

موضعها من الفقه موضع أم القرآن من الصلاة تجزي من غيرها، ولا يجزي غيرها منها..

هذه هي المدونة التي اعتبرت الأصل الثاني للفقه المالكي، وهي إنما كُتبت محاكاة للمسائل التي اشتملت عليها كتب محمد في الفقه العراقي، فإن أسداً عندما اطلع على كتب العراقيين، أراد أن يستخرج أجوبة مسائلها من الفقه المالكي، وإذا كان الفقه العراقي أخص ما امتاز به كثرة التفريع والفرض، أي تقدير مسائل غير واقعة، والفقه المالكي يقتصر على النوازل، ولا يفتي في غيرها، فإنه مما لا شك فيه قد استفاد الفقه المالكي في عصره الأول أكبر فائدة بتلك المحاولة الناجحة التي قام بها أسد، إذ أنه فتق الفقه المالكي ووسعه، وحمل تلميذه الأول ابن القاسم على التخريج عليه، وهو مرن لم يتصلب بفعل الزمان..

وبذلك تلاقى الفقه المدني بالعراقي، وكما استفاد العراقيون من المدنيين اطلاعاً على آثار لم تكن عندهم برواية محمد الموطأ، فقد استفاد الفقه المالكي من عمل أسد وسَيْر سحنون على منهاجه، كثرة التفريع وربط المسائل بعضها ببعض..

ومن مكانة المدونة كذلك أنها تشمل آراء مالك المروية، وآراء أصحابه، وتخريج ابن القاسم على أصول مالك، فهي في الواقع قد سنَّت سبيل الفقه المقارَن، بموازنة آراء مالك بآراء أصحابه، وهي قد سنَّت أيضاً السبيل لتخريج المسائل على أصول مالك، ونسبتها إليه على هذا الاعتبار، وبذلك فتح باب التخريج في ذلك المذهب العظيم منذ عصره الأول، والتخريج في المذهب سبيل نموه وأساس شمول أحكامه، لأن الحوادث لا تتناهى، وإذا كان الفقهاء الذين نشروا المذاهب حاولوا اتباعها في كل ما يجد من أحداث، فلا بد من التخريج على أصول الأئمة، وقد وضع ابن القاسم الأساس، فبنى عليه من بعده..

هكذا جاءنا العلم، بأناس نذروا أنفسهم للعلم، وبمنهج أصيل في التلقي والنقل..

هكذا كانت حياة الإمام مالك كلها علم، وهكذا كانت حياة تلاميذه كلها جهاد وبذل وإخلاص في طلب العلم والحرص على نشره، وتأصيله، مبتغين بذلك وجه الله تعالى، فهذا الذي خلد ذكرهم، فمَن عاش لنفسه عاش صغيراً، ومن عاش لهدفٍ سامٍ خلد ذكره وبقي اسمه..

ليس بعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من المدونة، وهي عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو، وهي قد سنَّت سبيل الفقه المقارَن، وسنَّت السبيل لتخريج المسائل على أصول مالك..



الفصل الثاني

- كتاب الله تعالى
- السّنَّة النبوية الشريفة
- قول الصحابي
- الإجماع
- عمل أهل المدينة
- الاستحسان والمصلحة
- سدّ الذرائع
- العادة والعرف

الباب الخامس



الفصل الثاني

أصول المذهب



بنى الإمام مالك هذا العلم وهذا الاجتهاد على مصادر أصيلة، أخذها تلاميذه منه وأسسوا عليها المذهب المالكي، فكان الإمام يعتمد على مصادر أساسية هي:

1 - كتاب الله تعالى

يقول الشاطبي المالكي في موافقاته: إن الكتاب قد تقرَّر انه كليّ الشريعة، وعمدة الملّة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير أو استدلال، لأنه معلوم من دين الأمّة، وإذا كان كذلك لَزم ضرورة لمن رام الاطلاع على كليات الشريعة، وطمع في إدراك مقاصدها، واللحاق بأهلها أن يتخذه سميره وأنيسه، وأن يجعله جليسه على مرّ الأيام والليالي، نظراً وعملاً، لا اقتصاراً على أحدهما، فيوشك أن يفوز بالبغية، وأن يظفر بالطلبة، ويجد نفسه من السابقين، وفي الرعيل الأول، فإن كان قادراً على ذلك (ولا يقدر عليه إلا من زاول ما يعينه على ذلك من السنة المبينة للكتاب) وإلا فكلام الأئمة السابقين، والسلف المتقدمين، أخذ بيده في هذا المقصد الشريف والمرتبة المنيفة.

نظر الإمام مالك رحمه الله تعالى إلى القرآن الكريم تلك النظرة السامية، وكان من خيرة من يفهمون هذا الكتاب الكريم، ويستخرجون منه الأحكام، فهو يجعل منزلة الكتاب فوق كل الأدلة، ويقدمه على السنة وما وراءها، فهو يأخذ بنصه الصريح الذي لا يقبل تأويلاً، ويأخذ بظاهره الذي يقبل التأويل ما دام لا يوجد دليل من الشريعة نفسها على وجوب تأويله، ويأخذ أيضاً بدلالة الاقتضاء وهي ما يسمى لحن الخطاب، وهو دلالة اللفظ على ما يتوقف عليه صدق الكلام، وذلك كقوله تعالى: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ)(الشعراء: من الآية 63)، فإن الكلام يقتضي قولاً محذوفاً مقدَّراً، وهو: فضَرَب فانفلق، ومن السنة قوله ﷺ: «رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»، فإن رفع الشيء بعد وقوعه لا يكون، فلا بد لتصحيح الكلام من تقدير محذوف، وقد قدره بأنه الإثم، فمعنى القول: رُفع عن أمتي إثم الخطأ والنسيان.. إلخ..فدلالة الحديث على ما اشتمل عليه من أحكام هنا دلالة اقتضاء، لأنها جاءت بتقدير محذوف لا يتم الكلام إلا بتقديره، كما يأخذ الإمام مالك بمفهوم المخالفة ويسميه المالكية دليل الخطاب، وهو إثبات نقيض حكم المنطوق به للمسكوت عنه، كقوله ﷺ: «في سائمة الغنم الزكاة»، فهذا يدل بمنطوقه على وجوب الزكاة في الغنم السائمة، وبفهومه على أن الزكاة لا تجب في غير السائمة، ويأخذ الإمام مالك أيضاً بفحوى الخطاب وهي ما يسمى دلالة النص، أو دلالة الأولى، أو مفهوم الموافقة، أو القياس الجلي على حد تعبير بعض الفقهاء، وهي إثبات حكم المنطوق به للمسكوت عنه بطريق الأولى، وهي قسمان:

أحدهما: إثباته في الأكثر إذ يثبت في الأقل، لأن الكثرة تزيد الحكم قوة، مثل قوله تعالى: (فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً) (الإسراء: من الآية 23)، فإن ذلك يشمل الضرب وهو أكثر استحقاقاً للنهي من التأفيف والأذى فيه أكثر، وهو سبب النهي..



وثانيهما: إثبات الحكم في الأقل، لأن القلة تقتضي قوة في الحكم لا تكون في الكثرة، مثل قوله تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ)(آل عمران: من الآية75) لأن من اؤتمن على الكثير يؤتمن على القليل، فمَن أؤتمن في قنطار يؤتمن في دينار، هذه دلالات القرآن الكريم، وقوتها عند مالك رحمه الله ومرتبتها في الاستدلال يقدّم النّص ثم الظاهر، ثم المفهوم بالموافقة، ثم بالمخالفة..

أول الأصول والمصادر التي اعتمد عليها الإمام مالك في استنباطه: كتاب الله تعالى، فهو أصل الشريعة وكليّها، ومصدر أحكامها..

2 - السنة النبوية الشريفة

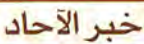
القرآن الكريم هو المصدر الأول لهذه الشريعة، وهو كليها الذي اشتقت منه أصولها وفروعها، وأخذت منه الأدلة قوة استدلالها، وإذا كان القرآن كذلك، فلا بد أن يكون بيانه للشريعة إجمالاً يحتاج إلى تفصيل، وأحكامه عامة تحتاج إلى تبيين، لذلك كان لا بد من الاستعانة بالسنة لاستنباط بعض الأحكام منه، أو لتتميم بيانه إن كان مجملاً، أو لتقرير ما لا يحتاج إلى بيان منه لتثبيته في قلوب المؤمنين..
وفي الحق إن السنة بيان للقرآن الكريم في شرائعه، فالزكاة والصوم، والصلاة والحج، كل هذه شرائع جاءت مجملة فبينتها السنة، والربا بأقسامه جاء مجملاً وبينته السنة، وكثير من أحكام الأنكحة جاءت مجملة فبينتها السنة، فهي إذن بيان للقرآن وترجمانه، ولقد قال الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) (النحل: من الآية44)، وعلى هذا تكون السنة في المرتبة الثانية التي تلي الكتاب..

الرواية عند مالك

الأحاديث النبوية تثبت بالسند المتصل بإحدى طرق ثلاثة: بالتواتر، أو بالاستفاضة والشهرة، أو بخبر الآحاد، وقد عرف القرافي الخبر المتواتر بأنه خبر أقوام عن أمر محسوس يستحيل فيه تواطؤهم على الكذب عادة، وهذا التعريف يقتضي أن تكون سلسلة السند كلها متواترة، بحيث يتلقى الحديث أقوام عن أقوام، حتى يتصل السند بالنبي ﷺ، والمتواتر يفيد العلم ضرورة، أي لا يكون لدي الفقيه مجال للتكذيب، والمستفيض قال فيه بعض العلماء: إنه ليس كحديث الآحاد، من حيث إثباته للظن، بل يفيد علم الطمأنينة من حيث إنه اشتهر في طبقة التابعين، حيث العهد القريب، وأعلام السنة قائمة، والآثار بينة، وشهرته في ذلك الوقت رادة لمظنة الكذب أو الخطأ في النقل، ولقد حسبه بعض العلماء في مرتبة المتواتر من حيث إفادته اليقين، ولكن لا بطريق الضرورة كالمتواتر بل بطريق النظر والاستدلال، وبعض العلماء يعدونه كخبر الآحاد من حيث إنه يثبت الظن مثله..
ويظهر أن مالكاً رحمه الله يرفع المشهور عن خبر الآحاد، لأن ما يشتهر في طبقة التابعين ويستفيض، فهو رواية أقوام عن الصحابة، وليس ذلك مما يكون مجالاً للريب عنده..

السنة النبوية هي بيان القرآن وترجمانه، لذلك جعلها الإمام مالك المصدر الثاني في استنباطه، وقد أخذ مالك بالمتواتر والمشهور من الأحاديث..





خبر الآحاد

وأما خبر الآحاد فهو ما لم يروه جماعة في القرون الثلاثة الأولى، وهو حجة عند جمهور المسلمين، بل يكاد يكون حجة بإجماعهم، ولكن العلم به يفيد ظناً، وإن كان العمل به واجباً، ويقول الشاطبي:
إن العمل بأخبار الآحاد واجب، لأنه وإن كان عملاً بدليل ظني هو يعتمد على القطعي، لأن الله سبحانه وتعالى أمرنا بأن نتبع الرسول في كل ما جاء به، فقال تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)(الحشر: من الآية7)، فالعمل بخبر الآحاد، وإن كان ظنياً، يعتمد على أصل قطعي، وهو كتاب الله سبحانه وتعالى، وكونه ظنياً لا يمنع العمل به، وفي الجملة كان الإمام مالك يرد أحاديث الثقات أحياناً إذا وجدها تخالف المشهور المعروف من أحكام الإسلام، ولذلك كان القياس أحياناً يقف مع أخبار الآحاد موقف التعارض، فيدرسهما الإمام مالك، ويرجح أحدهما على الآخر، أحياناً يرد القياس، وأحياناً يرد خبر الآحاد، ولذلك مكان من البيان..

قبول مرسل الحديث

ومالك رحمه الله كان يقبل المرسل من الأحاديث، ويظهر أنه في ذلك كان يسير على ما يسير عليه أكثر فقهاء عصره، فالحسن البصري، وسفيان بن عيينة، وأبو حنيفة رحمهم الله تعالى، كانوا يأخذون بالمرسل من الأحاديث، ولا يردونه، وإنك تفتح الموطأ فتجد فيه الكثير من المرسلات..
ولماذا كان مالك يقبل المرسلات، ويقبل البلاغات، ويفتي على أساسها مع أنه هو الذي كان يتشدَّد فيها؟!
والجواب عن ذلك هو أن قبول المرسل إنما كان من رجال وثق بهم وانتقاهم، فهو كان يتشدد في البحث عن الرجل الذي يكون ثقة، فإذا كان مستوفياً لكل شروطه اطمأن إليه، وقَبِل منه مسنده، وقَبِل مرسله وبلاغاته، فالتشدد في الاختيار هو سبب الاطمئنان وقبول الإرسال، وإن قبوله المرسلات على هذا الاعتبار ليس دليلاً على أنه يجيز الإرسال بإطلاق، ويجيز قبول المرسل بإطلاق، بل يجيز إن كان الإرسال من مثل من قبل منهم إرسالهم، فالعبرة بشخص من أرسل، لا بالإرسال في ذاته..

خبر الآحاد حجة عند جمهور المسلمين، وقد عمل به الإمام مالك، كما عمل بالمرسَل من الأحاديث إذا كان المرسِل ثقة مستوفياً للشروط التي اشترطها مالك في راوي الحديث..

حثه على الالتزام بالسنة

وكان الإمام مالك كثيراً ما يتمثل بالآيات التي تحث على الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (الحشر7)، وقوله تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾(النساء65)، هكذا أوصانا القرآن الكريم أن نعتمد على السنة ونقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم، كقوله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ (الأحزاب21).



3 - قول الصحابة

كان الإمام مالك رحمه الله في دراسته الأولى يتجه نحو تعرف أقضية الصحابة وفتاويهم، وأحكام المسائل التي يستنبطونها، فقد كانوا قريبين من النبي ﷺ، مرتبطين به في حياتهم وتصرفاتهم، شاهدوا أفعاله، ورأوا سنته مطبقة، وسمعوا أقواله، وتتلمذوا على يديه، كل هذا جعل الإمام مالكاً يطمئن أن يستعين بأقوال الصحابة الكرام، ويقدمهم على المصادر الأخرى من مصادر التشريع بعد الكتاب والسنة، بل يقدمهم على الإجماع، لأنهم لا يمكن أن يقولوا في الدين بهواهم، بل لا بد أنهم سمعوه أو علموه من النبي ﷺ فهم لذلك أقوى عنده في الاجتهاد من غيرهم..

وقد كان مالك حريصاً على تعرف فتاوى عبد الله بن عمر من مولاه نافع، وكان يترقبه في غدواته ليسأله عن أقوال عبد الله، وكان حريصاً على معرفة أقضية عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد تلقى فقه الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة، ونقلوا إلى الأخلاف اختلاف الصحابة ومعارفهم، وفتاويهم، وأقضيتهم، مع أحاديث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، فكان لفتوى الصحابي مكان من استنباطه، يأخذ بها ولا يخرج عليها، وقد اشتمل الموطأ على فتاوى الصحابة بجوار أحاديث رسول الله ﷺ، من ذلك: ما جاء في الهبة وبطلانها بالموت قبل القبض، أو بالمرض قبل القبض، فقد أخذ فيها بفتوى أبي بكر ثم عمر، فقد جاء في الموطأ:

مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: إن أبا بكر كان نحلها (أعطاها) جاد (مقدار) عشرين وسقاً (الوسق: حمل بعير) من ماله بالعالية، فلما حضرته الوفاة قال: والله يا بنية، ما من الناس أحب إليَّ غنىً بعدي منكِ، ولا أعز عليَّ فقراً بعدي منك، وإني كنت نحلتك جاد عشرين وسقاً، فلو كنت جددته واحتزته كان لك، وإنما هو اليوم مال وارث، وإنما هم أخواك، وأختاك، فاقتسموه على كتاب الله..

وجاء فيه أيضاً في الموضع نفسه: مالك عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير.. أن عمر بن الخطاب قال: ما بال رجال ينحلون أبناءهم نحلاً، ثم يمسكونها، فإن مات ابن أحدهم قال: مالي بيدي لم أعطه أحداً، وإن مات هو أي قرب موته قال: هو لابني، قد كنت أعطيته إياه، مَنْ نحل نحلة، يحزها الذي نحلها حتى تكون إن مات، فهو باطل..

وقد أخذ الإمام مالك رحمه الله بهذين الأثرين..

ولقد كان الإمام مالك يكثر من الأخذ بفتاوى الصحابة، ويعتبر فتاويهم من السنة، ولعله هو والإمام أحمد رحمهما الله أشد الأئمة استمساكاً بفتاوى الصحابة، وأكثرهم حرصاً عليها واتخاذها قاعدة لغيرها من الأقضية والفتاوى..

وإن هذه المسألة وإن اتفق على أصلها الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة، قد اختلف مقدارها في فقههم، فمالك وأحمد أكثروا من الاعتماد عليها، حتى أنها عدت ركناً من أركان اجتهادهما، وعليها تخرجوا في دراستهما الفقهية، وأبو حنيفة والشافعي دون ذلك أخذاً، وإن كان المنزع متقارباً، والاتجاه في الجملة متحداً..

أكثَرَ الإمام مالك من الأخذ بفتاوى الصحابة في فقهه واستنباطه، واعتبر فتاويهم من السنة، وقدمها على الإجماع، وعلى بقية مصادر التشريع..



4 - الإجماع

يقول القرافي في تعريف الإجماع: «هو اتفاق أهل الحل والعقد من هذه الأمة في أمر من الأمور، ونعني بالاتفاق: الاشتراك إما بالقول، أو الفعل، أو الاعتقاد، وبأهل الحل والعقد: المجتهدين في الأحكام الشرعية»..

ولعل مالكاً رحمه الله أكثر الأئمة الأربعة ذكراً للإجماع واحتجاجاً به، فنجده في مواضع كثيرة في الموطأ يذكر الحكم في القضية على أنه الأمر المجتمع عليه، ويعتبر ذلك سنداً يسوغ له أن يفتي به، وقد قال: وما كان فيه الأمر المجتمع عليه، فهو ما اجتمع عليه قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه..

وذلك لأن العلماء إذا اتفقوا على رأي واحد، فلن يجتمعوا على ضلالة، ولن يتفقوا على باطل، كما يستحيل اتفاقهم على أمر يخالف النصوص، ولذلك إذا حصل الإجماع فله قيمة عظيمة عند العلماء ومنهم الإمام مالك..

ومن أمثلة ذلك في الموطأ:

× جاء في الموطأ في ميراث الأخوة لأب قوله: قال مالك: الأمر المجتمع عليه عندنا أن ميراث الأخوة للأب إذا لم يكن معهم أحد من بني الأب والأم كمنزلة الأخوة للأب والأم سواء، ذَكرهم كذَكرهم، وأنثاهم كأنثاهم، لا يشركون مع بني الأم في الفريضة التي شركهم فيها بنو الأب والأم، لأنهم خرجوا من ولادة الأم التي جمعت أولئك، ثم بفروع الفروع، على هذا الإجماع..

× ومنها ما جاء في الموطأ حكم البيع مع اشتراط البراءة من كل العيوب، ففيه: والأمر المجتمع عليه عندنا فيمن باع عبداً، أو وليدة، أو حيواناً بالبراءة.. فقد برئ من كل عيب فيما باع، إلا أن يكون علم في ذلك عيباً فكتمه، فإن كان علم عيباً فكتمه لم ينفعه تبرئته، وكان ما باع مردوداً عليه..

هذا هو الإجماع الذي كان يحتج به الإمام مالك رحمه الله، ونرى الاحتجاج به كثيراً في كتاب الموطأ..

الإجماع مصدر أساسي من مصادر التشريع، وكان الإمام مالك يحتج به، ويذكر في مواضع كثيرة من الموطأ الحكم على أنه الأمر المجتمع عليه..



5 - عمل أهل المدينة

كان الإمام مالك رحمه الله يعتبر عمل أهل المدينة مصدراً فقهياً يعتمد عليه في فتاويه، ولذلك كثيراً ما يقول بعد ذكر الأخبار والأحاديث: الأمر المجتمع عليه عندنا..

أو يذكرها سنداً يعتمد عليه كل الاعتماد، إن لم يكن ثمة خبر، ولقد جاء في رسالة مالك إلى الليث بن سعد ما يدل على عظم اعتماده عليها، واستنكاره لمن يسلك غير مسلكهم، فقد جاء في صدر هذه الرسالة ما يدل على ذلك، وقد نقلناه فيما أسلفنا، ونكرر هنا نقل بعضه لنتبين فيه وجهة نظره، ففيها:

«اعلم -رحمك الله- أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مختلفة، مخالفة لما عليه جماعة الناس عندنا، وببلدنا الذي نحن فيه، وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك في أهل بلدك، وحاجة من قِبَلك إليك، واعتمادهم على ما جاءهم منك، حقيق بأن تخاف على نفسك، وتتبع ما ترجو النجاة باتباعه، فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ (التوبة 100)، وقال تعالى: ﴿فبشِّر عباد، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾ (الزمر 17،18)، فإنما الناس تبع لأهل المدينة، إليها كانت الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأُحل الحلال، وحُرِّم الحرام، إذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، يحضرون الوحي والتنزيل، يأمرهم فيطيعونه، ويَسنُّ لهم فيتبعونه..» إلخ مما قال..

هذه حجة الإمام مالك في احتجاجه بعمل أهل المدينة، وإنه كان في بعض الأحيان يقدِّم عمل أهل المدينة على خبر الآحاد لهذا المعنى الذي ذكره، وهو أن ذلك الرأي المشهور المعمول به في المدينة هو سنة مأثورة مشهورة، والسنة المشهورة مقدمة على خبر الآحاد..

ويظهر أن ذلك المنهاج لم يبدأ به مالك، فقد رأينا ربيعة الرأي شيخه يذكر ذلك المنهج فيقول: ألف عن ألف خير من واحد عن واحد..

ولقد قال مالك: قد كان رجال من أهل العلم والتابعين يحدثون بالأحاديث، فيقول: ما نجهل هذا، لكن مضى العمل على غيره، وقال: رأيت محمد بن أبي بكر بن عمر بن حزم، وكان قاضياً، وكان أخوه عبد الله كثير الحديث، رجل صدق، فسمعت عبد الله إذا قضى محمد بالقضية قد جاء فيها الحديث مخالفاً للقضاء يعاتبه، ويقول له: ألم يأتِ في هذا حديث كذا؟

فيقول: بلى..

فيقول: فما بالك لا تقضي به؟

فيقول: فأين الناس عنه؟ (يعني ما أجمع عليه الصلحاء بالمدينة، العمل به أقوى)..

ونرى أن الإمام مالك رحمه الله في المأثور عنه من أقوال قالها، أو رسائل كتبها، يقرر أن ما عليه جماعة العلماء بالمدينة حجة يجب الأخذ بها، وأن خبر الآحاد إن عارض عمل أهل المدينة ا لذي عليه جماعتهم ردّ الخبر، وأخذ بعملهم باعتباره أثراً عن النبي ﷺ أوثق نقلاً، وأصدق حكاية، والعبارات المروية عن مالك عامة تشمل أعمال أهل المدينة التي لا يمكن أن تعرف إلا بالتوقف كالأذان، وكمُدّ النبي ﷺ وغيرهما، وتشمل أعمال أهل المدينة التي يمكن أن يكون الاجتهاد والاستنباط سبيلها كبعض الأقضية، وأحكام المعاملات بين الناس..





مكانة اجماع أهل المدينة

وقد قال القاضي عياض: إن إجماع أهل المدينة على ضربين:

ضرب من طريق النقل، وهذا الضرب ينقسم إلى أربعة أنواع:

- ما نقل من جهة النبي ﷺ منقول، كالأذان والإقامة..
- وفعله كصفة صلاته ﷺ وعدد ركعاتها وسجداتها، وأشباه ذلك..
- ونقل إقراره عليه السلام لما شاهده منهم ولم ينقل عنه إنكاره..
- ونقل تركه لأمور شاهدها منهم، وأحكام لم يلزمهم إياها مع شهرتها لديهم، وظهورها فيهم، كتركه أخذ الزكاة من الخضراوات مع علمه عليه السلام بكونها عندهم كثيرة..

فهذا النوع من إجماعهم في هذه الوجوه حجة يلزم المصير إليه، ويترك ما خالفه من خبر واحد أو قياس، والضرب الثاني: ما يكون طريقه الاجتهاد والاستنباط..

وقد بيّن ابن القيم أن كل عمل مجمع عليه أساسه النقل لا تخالفه سنة صحيحة قط، وكل عمل أساسه الاجتهاد لا يقدم على سنة قط، إذ يقول:

فقد تقرر أن كل عمل خالف السنة الصحيحة لم يقع من طريق النقل البتة، وإنما يقع من طريق الاجتهاد، وكل عمل طريقه النقل لا يخالف سنة صحيحة البتة..

اعتبر الإمام مالك عمل أهل المدينة مصدراً فقهياً اعتمد عليه في فتاويه، ويقدمه أحياناً على خبر الآحاد إذا تعارضا..



6 - القـــياس

تصدى الإمام مالك رحمه الله للإفتاء أكثر من خمسين سنة، وكان يُقصد من مشارق الأرض ومغاربها للاستفتاء، وإذا كانت المسائل لا تتناهى، والحوادث تقع كل يوم، فلا بدَّ من فهم للنصوص، وتعرف لمراميها القريبة والبعيدة وإشاراتها وإيماءاتها، والبواعث لشرعيتها، ليمكن أن يصل إلى سعة شمولها، فيعرف حكم ما يقع مما لا يرد فيه فتوى من الصحابة، ولا سنة مشهورة، ولا يشمله عموم ظاهر للنص، وإن كانت الغاية من النص تومئ إلى حكمه والعلة الباعثة تشير إليه، أو تعرف به..

لذلك كان القياس أمراً لا بد منه لمثل مالك، وإذا كان الفقه في أدق معناه هو نفاذ بصيرة الفقيه لتعرف المراد من الألفاظ الدالة على الأحكام، فمعرفة عللها، وتعرف غاياتها، هو من هذا الباب، فالفقيه لا بد أن يقيس، إذ لا بد أن يعرف علة الحكم ليعرف كمال المراد من الشرع، وإذا عرفت العلة ثبت الحكم في كل ما تثبت فيه، لأن التماثل بين الأمور يوجب التماثل في أحكامها..

والقياس في الفقه الإسلامي هو إلحاق أمر غير منصوص على حكمه بأمر آخر منصوص على حكمه لعلة جامعة بينهما مشتركة فيهما..

ولقد تضافرت الأخبار عن أصحاب رسول الله ﷺ في تطبيق ذلك المبدأ العادل في استخراج للأحكام التي لم يجدوا فيها ظاهراً، فيحملونها على بعض النصوص بالتساوي في الحكم بين الأشياء المتماثلة..



وكان مالك الفقيه يسلك ذلك السبيل، ويأخذ بالتساوي بين الأشياء في الحكم عند تماثلها، ووجود العلة، فيقيس على الأحكام المنصوص عليها في القرآن الكريم، والأحكام المستمدة من الأحاديث النبوية، ويقيس كذلك على فتاوى الصحابة، ومن أمثلة ذلك: قياسه حال زوجة المفقود إذا حُكم بموته فاعتدت عدة الوفاة وتزوجت بغيره ثم ظهر حياً، بحال مَنْ طلقها زوجها، وأعلمها بالطلاق ثم راجعها ولم تعلم بالرجعة فتزوجت بعد انتهاء العدة، وذلك لأن عمر رضي الله عنه أفتى في هذه بأنها لزوجها الثاني دخل بها أو لم يدخل، فقاس مالك امرأة المفقود وقال: إنها للزوج الثاني دخل أو لم يدخل..

وفي الجملة كان الإمام مالك يقيس على الأمور المنصوص على حكمها في المصادر النقلية أو ما هي في حكم النقلية عنده، وهي الكتاب والسنة واجتماع أهل المدينة وفتاوى الصحابة..

والفقه المالكي لا يقيس فقط على الأحكام المنصوص عليها حتى يكون حملاً على النص مباشرة، كما ذكر الشافعي في أصوله، بل يقيس على المسائل المستنبطة بالقياس، فإذا تمَّ القياس في فرع من الفروع، ووُجد فرع آخر قيس عليه..

كان الإمام مالك يأخذ بالقياس في استنباط الأحكام، فيقيس على الأحكام المنصوص عليها في القرآن، والأحكام المستمَدة من الأحاديث، وعلى فتاوى الصحابة..



7 - المصالح المرسلة

الأصل في الشرع مصالح الأمة، فما كان فيه خيرها اجتمعت الأدلة على تأكيده وتثبيته والأمر به وجوباً أو ندباً، وما كان فيه مضرَّة تضافرت الأدلة على منعه والنهي عنه..

وليس في هذا خلاف بين الأئمة، كما أنه ليس بينهم خلاف أن الحوادث مع امتداد الزمن واختلاف البلاد والبيئات تكثر وتتجدَّد، وتبلغ حدَّاً يستحيل فيه أن نجد أصلاً معيَناً لكل حادثة أو مصلحة في الكتاب والسنة..

وأول من اعتمد المصالح وجعلها أصلاً، الإمام مالك رحمه الله..

وحقيقة هذه المصالح هي: كلُّ منفعة داخلة في مقاصد الشارع، دون أن يكون لها شاهدٌ بالاعتبار أو الإلغاء، وهذا الأصل يعتبره مع مالك أحمد بن حنبل والشافعي في بعضه، فهما قررا أن أحكام الشرع لم تأت إلا بما هو المصلحة، وإذا أتى النص فالمصلحة ظاهرة به، وإذا لم يُعرف له نصٌّ، فهناك نصوصٌ عامة يمكن أن يُؤخَذ بها في المصالح أو دفع المضارّ، نحو قوله تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)(الحج: من الآية78) (الحج:78)، ونحو قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»..

فعلى هذا يمكن أن يُحكم بكل ما فيه مصلحة لا ضرَر فيها، أو كان النفع فيه أكبر من الضرر، بأنه مشروع، وإن لم يكن لهذا النوع من النفع شاهدٌ خاص به، وكذلك كل ما فيه ضررٌ، مدفوع، وإن لم يكن له شاهدٌ خاص يدفعه..



أمثلة على المصالح المرسلة

فمن أمثلة المصالح: جمع أبي بكر رضي الله عنه للقرآن بعد أن خشي أن يهلك الحفاظ خصوصاً وقد هلك منهم كثيرون يوم اليمامة، ومنه: أمره بقتال أهل الردة..

هذا في النفع، أما في الضرر، فقد قال الشاطبي في الاعتصام: «العقوبة فيه –أي في المال– عنده ثابتة، فإنه قال في الزعفران المغشوش إذا وُجد بيد الذي غشَّه: أنه يُتصدَّق به على المساكين قلَّ أو كثُر، وذهب ابن القاسم ومطرِّف وابن الماجشون إلى أنه يُتصدَّق بما قلَّ منه دون ما كثُر، وذلك محكيٌّ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأنه أراق اللبن المغشوش بالماء، ووجه ذلك: التأديب للغاشّ، وهذا التأديب لا نصَّ يشهد له، لكنّه من باب الحكم على الخاصة لأجل العامة..

ومن أمثلة الضرورات التي لم يشهد لها أصل معين: أن الكفار إذا تترسوا بجماعة من أُسارى المسلمين، فلو كففنا عنهم لصَدَموننا وغلبونا على دار الإسلام وقتلوا كافّة المسلمين، ولو رمينا الترس –وهم المسلمون الأسارى– لقتلنا مسلماً معصوماً لم يُذنب ذنباً، وهذا لا عهد به في الشرع، ولو كففنا لسلّطنا الكفار على جميع المسلمين فيقتلونهم، ثم يقتلون الأسارى أيضاً، فيجوز أن يقول قائل: هذا الأسير مقتول بكل حال، فحفظ جميع المسلمين أقرب إلى مقصود الشرع، لأنا نعلم قطعاً أن مقصود الشرع تقليلُ القتل، كما يُقصد حسم سبيله عند الإمكان، فإن لم نقدر على الحسم قدرنا على التقليل، وكان هذا التفاتاً إلى مصلحة عُلم بالضرورة كونُها مقصود الشرع، لا بدليل واحد، وأصل معين، بل بأدلة خارجة عن الحصر، لكن تحصيل هذا المقصود بهذا الطريق –وهو قتل من لم يذنب– غريبٌ لم يشهد له أصل معين، فلا يسمَّى قياساً بل (مصلحة مرسلة)، إذ القياس أصل معين، وكون هذه المعاني مقصودة عُرفت لا بدليل واحد، بل بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسنة وقرائن الأحوال، وتفاريق الأمارات تسمَّى لذلك (مصلحة مرسلة)..

وعلى هذا فالمالكي والحنبلي والشافعي اعتمدوا (المصلحة المرسلة) وجعلوها من أصولهم، إلا أن الشافعي اعتمدها بما يكون مصلحة عامة في نطاق الشريعة، ولم يجعلها أصلاً خامساً برأسه، والإمام مالك أكثرهم أخذاً بها، وجعلها أصلاً من أصوله..

وفي الجملة: إن مالكاً يخضع لحكم المصلحة إن لم يكن نص قرآني أو حديث نبوي؛ لأن الشرع ما جاء إلا لمصالح الناس، فكل نص شرعي فهو مشتمل على المصلحة بلا ريب، فإن لم يكن نص فالمصلحة الحقيقية الملائمة لمقاصد الشرع هي شرع الله..

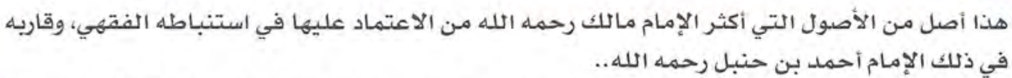
ويقول الشاطبي في ذلك: «وقد استرسل مالك استرسال المُدِلّ العريق في فهم المعاني المصلحية مع مراعاة مقصود الشارع لا يخرج عنه، ولا يناقض أصلاً من أصوله، حتى لقد استشنع العلماء كثيراً من وجوه استرساله زاعمين أنه خلع الربقة، وفتح باب التشريع، وهيهات! ما أبعده عن ذلك رحمه الله، بل هو رضي في فقهه بالاتباع، بحيث يخيل لبعض الناس أنه المقلِّد لمن قبله، بل هو صاحب البصيرة في دين الله تعالى»، ولعلَّ هذا الجانب يدل على عمق فهم وعلم الإمام مالك، فهو يحكِّم العقل ويتمسك بالنقل بتوازن عجيب لا يملكه إلا الراسخون في العلم..

أخذ الإمام مالك بالمصالح المرسلة وجعلها أصلاً من أصوله، فهو يخضع لحكم المصلحة إن لم يكن نص قرآني أو حديث نبوي، لأن الشرع ما جاء إلا لمصالح الناس، فالمصلحة الحقيقية الملائمة لمقاصد الشرع هي شرع الله..



8 - الاستحسان

تضافرت المصادر التي تثبت أن الإمام مالكاً رحمه الله كان يأخذ بالاستحسان، وينقل الشاطبي في الموافقات عن أصبغ أنه قال: سمعت ابن القاسم يقول ويروي عن مالك أنه قال: «تسعة أعشار العلم الاستحسان»..
والاستحسان عند مالك كما عرّفه الشاطبي في الموافقات: «الأخذ بمصلحة جزئية في مقابل دليل كلّي».
والأحكام التي كان الاستحسان عماد الأخذ بها، أو كان أداة الترجيح بين الأدلة فيها، كثيرة في المذهب المالكي:
فمنها: القرض، فإنه في الأصل ربا، لأنه مبادلة الدرهم بالدرهم إلى أَجَل، ولكنه أُبيح استحساناً، لمافيه من الرفق والتوسعة بين الناس، بحث لو بقي على أصل المنع لكانوا في حرج شديد..
ومنها: الاطلاع على عورات الناس للتداوي، فإن القاعدة العامة في العورات تحريم رؤيتها، ولكن استحسنت لدفع الضرر..
ومنها: المزارعة، والمساقاة، فإن القاعدة العامة توجب منع عقودهما لجهالة البدل فيهما، ولكن استحسنت استحساناً..
ويظهر من استقراء المسائل التي كانت الأحكام فيها مبنية على الاستحسان، أن الاستحسان عند الإمام مالك يفتي به في المسائل على أنه ترخُّص في القاعدة، لا على أنه القاعدة، فهو حكم جزئي في مقابل أصل كلي، كالإفتاء بقبول شهادة الشاهد غير العدل في البلد الذي لا يوجد به عدول، وكإجازة القرض دفعاً للحرج والمشقة.. ففي هذه المسائل وأشباهها كان الاستحسان ترخُّصاً من القاعدة العامة، أدى اطرادها إلى وقوع ضرر، فكان الاستحسان دفعه..
وقد يكون الاستحسان عندما يكون موجب القياس مؤدياً إلى حَرَج، ولأن الاستحسان في المذهب المالكي كان لدفع الحرج الناشئ من اطراد القياس، قال أصبغ الذي أكثر من الاستحسان: إن المُغرِق في القياس يكاد يفارق السنة، وإن الاستحسان عماد العلم..


الاستحسان عند الإمام مالك تسعة أعشار العلم، والأحكام التي بُنيت على الاستحسان كثيرة في المذهب المالكي..

9 - سد الذرائع

هذا أصل من الأصول التي أكثر الإمام مالك رحمه الله من الاعتماد عليها في استنباطه الفقهي، وقاربه في ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله..
والذريعة معناها: الوسيلة، ومعنى سد الذرائع: رفعها، ومؤدى الكلام: أن وسيلة المحرَّم محرَّمة، ووسيلة الواجب واجبة..
فالفاحشة حرام، والنظر إلى عورة الأجنبية حرام لأنها تؤدي إلى الفاحشة..
والجمعة فرض، فالسعي إليها فرض، وترك البيع لأجل السعي فرض أيضاً..
والحج فرض، والسعي إلى البيت الحرام وسائر مناسك الحج فرض لأجله..



شرح المقصود بسد الذرائع

وبيان ذلك: أن موارد الأحكام قسمان:

مقاصد: وهي الأمور المكونة للمصالح والمفاسد في أنفسها، أي التي هي ذاتها مصالح أو مفاسد..

ووسائل: وهي الطرق المفضية إليها، وحكمها كحكم ما أفضت إليه من تحريم أو تحليل، غير أنها أخفض رتبة من المقاصد في حكمها، ويقول القرافي: الوسيلة إلى أفضل المقاصد أفضل الوسائل، وإلى أقبح المقاصد أقبح الوسائل، وإلى ما هو متوسط متوسط، وقد أفاض ابن القيم في بيان ذلك الأصل وتصويره فقال: ولما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق توصل إليها كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها إلى غاياتها وارتباطاتها، ووسائل الطاعات والقربات في محبتها والأذن بها بحسب إفضائها إلى غاياتها..

فإذا حرّم الرب تبارك وتعالى شيئاً، وله طرق ووسائل تفضي إليه، فإنه يحرّمها ويمنع منها تحقيقاً لتحريمه وتثبيتاً له، ومنعاً أن يقرب حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضاً للتحريم، وإغراءً للنفوس به، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء، بل سياسة ملوك الدنيا تأبى ذلك، فإن أحدهم إذا منع جنده أو رعيته أو أهل بيته من شيء ثم أباح لهم الطرق والأسباب والذرائع الموصلة لعدّ متناقضاً، ولحصل من رعيته وجنده ضد مقصوده..

وكذا الأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه، وإلا فسد عليهم ما يرومون إصلاحه، فما الظن بهذه الشريعة التي هي في أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال، ومن تأمل مصادرها ومواردها علم أن الله تعالى ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم، بأن حرمها ونهى عنها..

والأصل في اعتبار سد الذرائع هو النظر في مآلات الأفعال وما تنتهي في جملتها إليه، فإن كانت تتجه نحو المصالح التي هي المقاصد والغايات من معاملات بني الإنسان بعضهم مع بعض كانت مطلوبة بمقدار يناسب طلب هذه المقاصد وإن كانت لا تساويها في الطلب، وإن كانت مآلاتها تتجه نحو المفاسد، فإنها تكون محرمة بما يتناسب مع تحريم هذه المفاسد وإن كان مقدار التحريم أقل في الوسيلة..

والنظر في هذه المآلات لا يكون إلى مقصد العامل ونيته، بل إلى نتيجة العمل وثمرته..

فمَن سب الأوثان مخلصاً العبادة لله سبحانه وتعالى، فقد احتسب نيته عند الله في زعمه، ولكنه سبحانه وتعالى نهى عن السبّ إن أثار ذلك حنق المشركين، فيسبوا الله تعالى، فقد قال تعالت كلمته: (وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ)(الأنعام: من الآية108)..

فهذا النهي الكريم كان الأمر الملاحظ فيه هو النتيجة الواقعة، لا النية الدينية المحتسبة..

وقد قسموا ما يؤدي إلى مفسدة إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: ما يكون أداؤه إلى المفسدة قطعياً، كحفر البئر خلف باب الدار في الظلام، بحيث يقع الداخل فيه بلا بد، وشبه ذلك، وهذا محرّم عند الإمام..

القسم الثاني: ما يكون أداؤه إلى المفسدة نادراً، كحفر البئر بموضع لا يؤدي غالباً إلى وقوع أحد فيه، وبيع الأغذية التي غالبها لا يضر أحداً، فهذا ليس بحرام عنده، لأن الأحكام لا تُناط بالنادر، إذ النادر لا حكم له، القسم الثالث: أن يكون أداؤه إلى المفسدة كثيراً، بحيث يغلب على الظن الراجح أن يؤدي إليها، كبيع السلاح في وقت الفتن، وبيع العنب للخمّار، ونحو ذلك مما يقع في غالب الظن لا على سبيل القطع أداؤه إلى المفسدة، وهذا محرَم عند الإمام مالك كذلك..

القسم الرابع: أن يكون أداؤه إلى المفسدة كثيراً، ولكن ليس غالباً، كالبيع بالأجل الذي قد يؤدي إلى الربا، ويتخذه بعض الناس سبيلاً، وهذا يتنازعه عاملان؛ عامل الإذن الأصلي وهو يقتضي الحلّ، وعامل ما يفضي إليه وهذا يقتضي التحريم..

ولذلك قرر المالكية صحة التصرف فأباحوه، ويترك قصد الربا لنية الفاعل، فإن قصده فهو آثم قلبه، وعقابه عند الله، وإن لم يقصده فإنه لم يرتكب إثماً..

وقد قال الشاطبي في هذا المقام: الشريعة مبنية على الاحتياط، والأخذ بالحزم، والتحرز عما عسى أن يكون طريقاً إلى مفسدة..

سد الذرائع أصل من الأصول التي اعتمدها الإمام مالك في استنباطه الفقهي، وهي الوسائل، فما كان وسيلة إلى محرم فهو محرَّم، وما كان وسيلة إلى مطلوب فهو مطلوب، (وهذا الأصل لم تعتمده كل المذاهب بل بعضها).

10 - العادات والعرف

العرف: هو الأمر الذي تتفق عليه الجماعة من الناس الصالحين في مجاري حياتها، ويصبح معروفاً ومقبولاً لديهم، والعادة: هي العمل المتكرر من الآحاد والجماعات، وإذا اعتادت الجماعة المسلمة أمراً صار عرفاً لها، فعادة الجماعة وعرفها متلاقيان في المؤدى، وإن اختلف مفهومهما، فهما يتلاقيان فيما يختص بالجماعات، والفقه المالكي يأخذ بالعرف ويعتبره أصلاً من الأصول الفقهية فيما لا يكون فيه نص قطعي، بل إنه أوغل في احترام العرف، لأن المصالح دعامة الفقه المالكي في الاستدلال، ولا شك أن مراعاة العرف الذي لا فساد فيه ضرب من ضروب المصلحة لا يصح أن يتركه الفقيه، بل يجب الأخذ به..

والعادات قسمان: عادات مقررة ثابتة لا تختلف باختلاف الأعصار والأمصار، وهي العادات المشتقة من الفطرة الإنسانية، والتي تدعو إليها طبيعة الإنسان، كالأكل والشرب والنوم وغير ذلك..

والقسم الثاني: عادات تختلف باختلاف الناس، وباختلاف البلاد، وقد ذكر الشاطبي ذلك القسم ومثَّل له فقال: والمتبدلة منها ما يكون متبدلاً في العادة من حسن إلى قبح، وبالعكس.. مثل كشف الرأس، فإنه يختلف بحسب البقاع في الواقع، فهو لذوي المروءات قبيح في البلاد الشرقية، وغير قبيح في البلاد الغربية، فالحكم الشرعي يختلف باختلاف ذلك، فيكون عند أهل الشرق قادحاً في العدالة، وعند أهل الغرب غير قادح، وقد بيّن القرافي أثر العُرْف في العقود التي تتأثر به، فعقد الشركة إن كان مطلقاً انصرف إلى المناصفة، والعقد على الأرض يدخل فيه الأشجار والبناء، والعقد على البناء يدخل فيه الأرض، والعقد على الدار يدخل فيه أبوابها وسلمها ورفوفها، وعقد المرابحة يدخل في أصل الثمن أجرة الخياطة والتطريز وكل تحسين.. إلخ..

ثم قال: وهذا الكلام مع بقية تفاريع هذا الباب كلها مبني على العادات..

ولولا العادات لكان هذا تحكُّماً صرفاً، وبيع المجهول، والغرر من الثمن غير جائز إجماعاً..

العادة والعُرف أصل من الأصول الفقهية، اعتمده الإمام مالك في استنباطه، وهو نوع من أنواع المصلحة..





تعليق على أصول المذهب المالكي

هذه أصول الإمام مالك رحمه الله التي استخرجها علماء مذهبه من جملة الفروع المأثورة عنه، والتي وجدوا أن الإمام مالكاً رحمه الله كان يعتمد عليها في استنباطه..

وأول ما يُلاحظ على هذه الأصول: مرونتها، فهو لم يجعل مطلق نص من الكتاب والسنة قطعياً، بل فتح الباب على مصراعيه لتخصيص عمومه، وتقييد مطلقه، فأكثر من المخصصات، وإنه كلما فتح باب التخصيص كان في النص مرونة تتسع لوسائل الاستنباط، فلا يجمد الفقيه عند العبارة لا يعدوها، بل يربط الأصول بعضها ببعض، فيخصص هذا بذاك، ويبعد المعنى الغريب بمعنى مأخوذ من أصل قريب، فيخرج من بينها فقه نضيج قوي قويم مألوف معروف غير بعيد عن أحكام العقول، وعما يتلقاه الناس بالقبول..

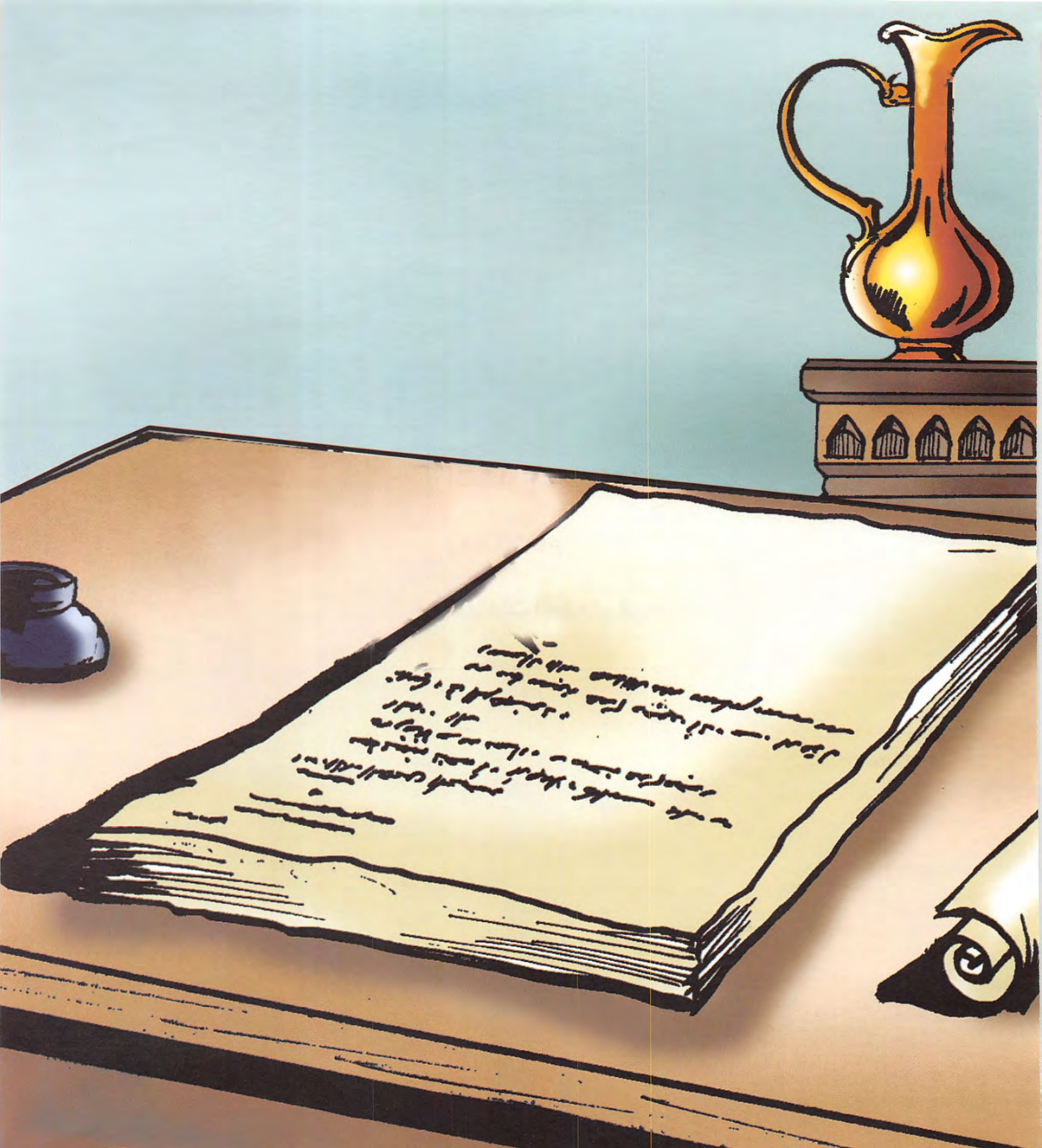
وثاني ما يلاحظ على هذه الأصول بعد مرونتها: اتجاهها نحو تحقيق المصلحة من أقرب طريق، وأكثر من طرقها، فجعل القياس طريقاً لتحقيقها، وجعل من طرقها الاستحسان بترجيح الاستدلال المرسل، إن أبعد القياس الوصول إليها، وجعل المصلحة القريبة أساساً في الاستدلال لتتحقق من أيسر سبيل، وجعل سد الذرائع وفتحها من طرقها، واعتبرها أصلاً أيضاً من أصول الاستدلال، ثم أخيراً اعتبر العُرْف، وهو باب من أبواب رفع الحرج ودفع المشقة وتحقيق المصلحة وسد الحاجة، وجعل العقود تحقق رغبات الناس البريئة من الآثام وحاجاتهم، وتسير على مقتضى مشهورهم..

فمالك رحمه الله قد رأى قصد الشارع الأساسي إلى تحقيق مصالح الناس جلياً في شريعته فجعل فقهه الذي لا يعتمد فيه على النص القطعي يسير حول قطبها، ويدور على محورها، يحميها بسدّ الذرائع وفتحها، ويكثر من الطرق الموصلة إليها، لتتحقق من أقرب طريق، وأيسر سبيل..

وثالثها: أن أصول الاستنباط عنده مترابطة يكمل بعضها بعضاً، ويستقي جميعها من معين واحد، ويهتدي بهدي واحد، وهي النص الإسلامي وروحه ومعناه، وتطبيق النبي ﷺ والصحابة له..

وبذلك التقى فقهه في غاية واحدة وهي مصالح الناس في الدنيا والآخرة، وسلك طريق الاتباع دون الابتداع، فقد وجدناه يعتمد على أقضية الصحابة وفتاويهم في تعرف غاية الشريعة، ثم يسترسل بعد ذلك في تعرف الأحكام والغايات استرسال العريق في فهم الشريعة بنصوصها ومراميها، وغاياتها القريبة والبعيدة، وبذلك فتح عين الطريق لمن جاء بعده من تلاميذه وتلاميذهم، ففهموا الفقه فهمه، وسلكوا طريقه، فنما الفقه المالكي نمواً عظيماً..

والملاحظ أن بعض أبناء المذهب قد توسعوا في بعض الأصول (مثل سد الذرائع) فضيقوا على الناس أو توسعوا في أخرى (مثل الاستحسان أو المصلحة المرسلة) وتجاوزوا الأدلة الأهم، والأفضل أخذ الأمور بوسطية ويسر.



الفصل الثالث



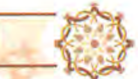
- انتشار المذهب المالكي
- وفاة الإمام
- شهادات العلماء فيه

الباب الخامس



الفصل الثالث

رحيل الإمام



انتشار المذهب

مذهب الإمام مالك فيه من المرونة الشيء العظيم، والشيء الكبير، وكثير من الناس يظن أن مذاهب الرأي مثل مذهب الإمام أبي حنيفة أكثر تيسيراً من مذاهب النقل مثل مذهب الإمام مالك، لكن الحقيقة أن مذهب الإمام مالك من أكثر المذاهب تيسيراً على الناس، سواء في العبادات، أم في المعاملات، ومن أسباب ذلك أن للمذهب مصادر عديدة تحدثنا عنها، وهذا ما جعله من أوسع المذاهب انتشاراً وأكثرها مرونة.

وقد انتشر المذهب في بلاد كثيرة، وكان منطق التاريخ أن يكون انتشاره في بلاد الحجاز حيث نشأ وانتظم؛ ولأنه استقى من بيئة الحجاز، ولكن بتوالي الأيام على بلاد الحجاز اختلفت أحواله، فتارة يغلب مذهب الإمام مالك وتارة يخمل، حتى إنهم ذكروا أنه خمل بالمدينة أمداً طويلاً حتى تولى قضاءها ابن فرحون عام 793هـ فأظهره بعد خمول.

وقد ظهر المذهب المالكي في مصر في حياة الإمام مالك، حيث أدخله فيها تلاميذه: عبد الرحمن بن القاسم، وعثمان بن الحكم، وعبد الرحيم بن خالد، وأشهب... وغيرهم من التلاميذ الذين اتخذوا مصر مستقراً ومقاماً، وقد استمر المذهب المالكي له الغلبة بمصر، حتى جاء المذهب الشافعي فنازعه السلطان فيها، حتى صار المذهبان هما الغالبان، ولا يزالان كذلك بين الناس فيما يتعلق بفقه العبادات..

وفي بلاد تونس انتشر المذهب المالكي، ولكن غلب عليها المذهب الحنفي مدة سلطان أسد بن الفرات، الذي كان مالكياً ثم تحول حنفياً، إذ درس على يد الإمام محمد بن الحسن كتب الفقه، ثم جاء المعزّ بن باديس فحمل أهل تونس وما والاها من بلاد المغرب على مذهب مالك، ولا تزال هذه البلاد تتعبد على مقتضى المذهب المالكي.

وفي الأندلس كان المذهب المالكي صاحب السلطان، قالوا: إن أهل الأندلس أخذوا مذهب الأوزاعي الذي كان فقيه الشام أمداً، حتى جاء المذهب المالكي فاستولى عليها، ولقد استوثق المذهب بسلطان الدولة عندما ولي القضاء يحيى بن يحيى الذي كان مكيناً عند أميرها، فكان لا يولي القضاء إلا من فقهاء ذلك المذهب، كما فعل أبو يوسف الحنفي عندما آل إليه منصب كبير القضاة في الدولة العباسية فكان لا يولي سوى الحنفية، وقد قال ابن حزم الأندلسي في ذلك: «مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان: الحنفي بالمشرق والمالكي بالأندلس».

وهكذا نرى مذهب الإمام مالك قد انتشر في غرب البلاد الإسلامية، ولم ينتشر إلا قليلاً في شرقها ببلاد العراق وما وراءها، وذلك لإقامة الكثيرين من تلاميذه بمصر وتونس، وسرى منها إلى كل البقاع في غرب البلاد، وهو كذلك اليوم منتشر في منطقة الخليج العربي كذلك.

مذهب الإمام مالك من أوسع المذاهب انتشاراً وأكثرها مرونة؛ ونشره تلاميذه في شمال إفريقية والأندلس..

حملة العلم

لكل إمام من الأئمة تلاميذ يسمونهم الأصحاب، وهؤلاء التلاميذ صاروا أئمة فيما بعد، فالإمام أبو حنيفة كان من تلاميذه: أبو يوسف، ومحمد، وزفر، وغيرهم.
والإمام الشافعي كذلك له أصحاب، والإمام أحمد بن حنبل له أصحاب، والفرق الرئيسي بين هؤلاء الأئمة الأعلام الذين نتحدث عنهم، وبين الأئمة العظام الذين عاصروهم من أمثال الليث بن سعد، أو الأوزاعي، أو الثوري، أو ابن عيينة (وهم لا يقلون شأناً عن الأئمة الأعلام) لكن أئمة المذاهب وجدوا تلاميذ يحملون آراءهم ويتبنونها وينشرونها، أما الآخرون فلم يجدوا مثل هؤلاء التلاميذ، ها هو الفرق.

لكل إمام تلاميذ يحملون آراءه وينشرونها، وهؤلاء هم الذين يجعلون المذهب يستمر وينتشر، وبدونهم فإن علم العالم يبقى حبيس الكتب ولا يبنى عليه مذهب..

تلاميذ الإمام مالك

كان لتلاميذ الإمام مالك شأن عظيم عنده وعند الأمة ممن بعده، فتلاميذه تفرقوا في البلاد الإسلامية، وبعضهم بقي في المدينة مع الإمام مالك، وكان لبعضهم دور كبير في نشر المذهب، واستمر بعضهم في نشر المذهب إلى أن تبناه بعض الخلفاء: كهشام بن عبد الرحمن في الأندلس، وكذلك ابن باديس في تونس، وغيرهم.



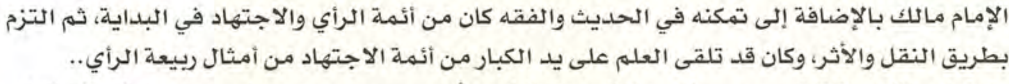


وفاة الإمام

توفي الإمام مالك رحمه الله بعد هذا العمر الطويل، فمات وعمره 92 سنة، ولقد رأيناه رحمه الله تعالى في حياته الجليلة الجميلة يعطينا المَثَل والقدوة في التعامل الراقي، في نموذج للشخصية التي جمعت الوسامة والأناقة والأخلاق، وجمعت معها مصادر العلم، رأيناه معلماً كبيراً لكبار العلماء، رأيناه في تعامله مع العامة والخاصة، بل مع الحكام، رأيناه في خُلقه، وفي سماحته، رأيناه في فقهه، في دقته في إفتائه، رأيناه قدوة ونموذجاً لطلاب العلم على مدى الزمان، رأيناه إماماً نموذجاً في مهابته وفضله، رأيناه نموذجاً للوقار والهيبة في أسلوبه، في تعليمه لتلاميذه في مجلسه.

هكذا كان رحمه الله نموذجاً فريداً بين البشر، خلَّف لنا مذهباً من أعظم المذاهب الإسلامية، كما خلَّف لنا تلميذاً من أعظم التلاميذ ــ بالإضافة إلى تلاميذه الذين حملوا مذهبه ــ تلميذاً يفتخر الإنسان أن يكون له تلميذاً مثله، ذاك هو الإمام الشافعي.

وهكذا ودّع الإمام مالك الحياة بعد اثنتين وتسعين سنة، أمضاها في تعلم العلم وتعليمه، وصار نموذجاً فريداً وقدوة متميزة ومثالاً عظيماً لكل من أراد السير في طريق العلم..



شهادات العلماء فيه

الإمام مالك بالإضافة إلى تمكنه في الحديث والفقه كان من أئمة الرأي والاجتهاد في البداية، ثم التزم بطريق النقل والأثر، وكان قد تلقى العلم على يد الكبار من أئمة الاجتهاد من أمثال ربيعة الرأي..

يقول ابن اللهيعة قاضي مصر وفقيهها: قدم علينا أبو الأسود محمد بن عبد الرحيم بن نوفل، فقيل له: مَنْ للرأي بعد ربيعة في المدينة؟

قال: الغلام الأصبحي، قال أبو يوسف صاحب أبي حنيفة ــ ويعد قريناً للإمام مالك من حيث الزمان ــ: «ما رأيت أعلم من ثلاثة: مالك وابن أبي ليلى وأبي حنيفة».

وقال معاصره سفيان بن عيينة: «رحم الله مالكاً، ما كان أشد انتقاءه للرجال!». (وهذا منهج للدعاة يجمع بين نشر العلم للعامة وانتقاء تلاميذ خاصة يكملون المنهج من بعده)، وقال في تفضيله على نفسه: «ما نحن عند مالك؟ إنما كنا نتبع آثار مالك، وننظر الشيخَ إذا كتب عنه مالك كتبنا عنه». (وهذا من تواضع سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى)، وكان يقول عنه: «كان لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً، ولا يحدِّث إلا عن ثقاة الناس، وما أرى المدينة إلا ستخرب (علمياً) بعد موت مالك بن أنس».

وقال الليث بن سعد: «علم مالك علم تقي، أمان لمن أخذ عنه من الأنام».

وقال الشافعي: «إذا جاءك الأثر عن مالك فشد به... وإذا جاءك الخبر فمالك النجم... وإذا ذُكر العلماء فمالك النجم... ولم يبلغ أحد في العلم مبلغ الإمام مالك لحفظه وإتقانه وصيانته، ومن أراد الحديث الصحيح فعليه بمالك».

وقال أحمد بن حنبل: «مالك سيد من سادات أهل العلم، وهو إمام في الحديث والفقه، ومن مثل مالك؟ متبع لآثار من مضى مع عقل وأدب».

وهكذا تجيء شهادات العلماء بغزارة علم الإمام مالك، ونزاهته في علمه، وتقواه فيه، وإمامته في الحديث والفقه معاً، مما لم يتوافر لغيره من العلماء.



الخاتمة

وفي ختام الرحلة مع هذا الإمام الجليل والعالم العظيم نقف لنعرض سريعاً بعض ما استفدناه من سيرته وحياته.. الأسرة هي المحضن الأول والأهم الذي يتربى فيه الطفل ويتلقى توجيهه الأول، وأسرة مالك كانت أسرة علم وفضل دفعته نحو العلم ووجهته إلى العلماء، فنمت مواهبه تحت ظلها، وتربى على الأخلاق والآداب الرفيعة، وتلقى العلم من أكبر وأعظم علماء زمانه..

كان مالك حريصاً على طلب العلم يطيل الوقوف بباب العلماء ويتحين الفرص للاستفادة منهم، يصبر على حرّ الشمس وشدة البرد، وعلى جفاء بعض أساتذته من أجل الحصول على أكبر قدر من العلم، وبهذا الصبر وهذه المثابرة استطاع مالك أن يأخذ علم أكثر العلماء في زمانه، فكانت حصيلته العلمية وافرة متنوعة، ثم أصبح هذا التلميذ النجيب عالماً حافظاً راوياً للحديث، بل من أكبر وأوثق رواة الحديث، لأنه كان لا يأخذ الحديث إلا من العلماء الثقات الحفاظ المتمكنين، ولا يأخذ من غيرهم، ويصبح الشاب مفتياً ومحدثاً في مسجد رسول الله ﷺ، ولا يحدث بحديث رسول الله ﷺ حتى يغتسل ويتطيب ويلبس الجديد من الثياب ويتعمم، إجلالاً واحتراماً لحديث رسول الله ﷺ، مما جعل لمجلسه وقاراً واحتراماً في نفوس الحاضرين، والتزم الإفتاء فيما يقع من المسائل، وكان لا يتجرأ على الفتوى ولا يسرع إليها، وكثيراً ما يُسأل فيقول: لا أدري.. بعكس ما نحن عليه اليوم من الإسراع في الفتوى والتجرؤ عليها والتقول في دين الله، وكثيراً ما يذكر تلاميذه بأنه بشر يخطئ ويصيب، وأن المرجع الأساس هو كتاب الله وسنة نبيه، وكل ما سواهما يحتمل الخطأ والصواب..

وبهذا المنهج العظيم الذي التزمه مالك في حياته فرض هيبته واحترامه حتى على الولاة والحكام، لم يكن يخشى أحداً إلا الله، ولا يخاف في الله لومة لائم، فخشيه الولاة والحكام، وصاروا يهابونه ويحسبون حسابه، وكان يرفض الذهاب إليهم لأن العلم يؤتى ولا يأتي، لا يتهافت عليهم ولا يتضاءل أمامهم، فكانوا يأتون إليه طالبين علمه، فيقف منهم موقف الأستاذ الناصح الواعظ، وكانوا يرسلون أولادهم إلى المدينة ليتلقوا العلم على يد الإمام مالك، ويقبل هدايا الخلفاء وأعطياتهم دون أن يتصاغر أمامهم بالقول ولا بالفعل، وكان يعظهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويذكرهم الحساب يوم القيامة، وبهذه الثقة بالنفس والعزة في الدين فرض احترامه واحترام العلم الذي معه على كل مَنْ حوله، فليس بالضرورة للعالم مقاطعة الحكام والوقوف منهم موقف العداء ورفض هداياهم وأعطياتهم، وليس بالضرورة أن يكون العالم فقيراً، فهذه مناهج مختلفة في فهم الزهد، حيث يقول الإمام مالك: التواضع في التقى والدين لا في اللباس.

فهو يرى أن اللباس الجميل الغالي الثمن والمطعم الحسن والمسكن الجيد لا يتنافى مع الزهد، ويرى غيره أنه يتنافى مع الزهد، ولكل وجهة نظره، ولنا أن نقتدي بمن نشاء منهم بشرط سلامة النية وسلامة الهدف في نفوسنا وأمام الناس، لا للتفاخر ولا للشهرة ولا لأي هدف دنيوي سيء، وبسبب صدق الإمام مالك وإخلاصه وخشيته وخوفه من الله انتشر علمه وذاع صيته في كل البلاد الإسلامية، وكثر تلاميذه الذين تلقوا العلم على يديه وحفظوه، ومن ثم كان لهم الفضل الكبير في نشر مذهبه وحفظه، بالإضافة إلى أهمية التأليف والكتابة في حفظ المذهب، فمن أعظم مؤلفات الإمام مالك كتاب الموطأ الذي حفظ فقه وحديث الإمام مالك، ثم ما جمعه ودونه تلاميذه كالأسدية والمدونة وغيرها من كتب المذهب، هكذا كانت حياة هذا الإمام العظيم، حافلة ذاخرة بالعلم والعمل منذ النشأة الأولى حتى آخر حياته، لم يألُ جهداً في التعلم والتعليم، مع الإخلاص لله رب العالمين، فليتنا ننشئ أبناءنا كما نشأ هؤلاء الأئمة الأعلام على العلم والفضائل والتقوى، ليكونوا في المستقبل أعلاماً ترفع لواء هذا الدين، وتُعلي كلمته، وتنصر أمته، وما ذلك على الله بعزيز..

والحمد لله رب العالمين..



مقارنة فريدة بين الأئمة الأربعة

رحمهم الله تعالى ورضي عنهم

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
الاسم والنسب	النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي الفارسي (أصله من فارس).	مالك بن أنس بن مالك من بني أصبح، ليست بينه وبين الصحابي الجليل أنس بن مالك قرابة.	محمد بن إدريس الشافعي، يلتقي مع الرسول صلى الله عليه وسلم في جده عبد مناف.	أحمد بن حنبل الشيباني، عربي من شيبان سكن أهله خراسان.
مكان الولادة والنشأة	الكوفة.	المدينة.	ولد أثناء سفر والده في غزة ولكنه من مكة ونشأ فيها.	بغداد.
مولده ووفاته	٨٠ – ١٥٠ هـ	٩٣ – ١٩٧ هـ	١٥٠ – ٢٠٤ هـ	١٦٤ – ٢٤١ هـ
رحلاته	لم تثبت له رحلات.	لم تثبت له رحلات.	المدينة، اليمن، العراق، مصر.	البصرة، مكة، المدينة، الشام، اليمن
الصفات الخلقية	متوسط القامة، أسمر مائل للبياض، طويل اللحية، جميل الطلعة، حسن الصوت، أنيق اللباس، كثير التطيب والتعطر والنظافة.	طويل، عظيم الجسد، شعره أشقر فيه صفرة، شديد البياض، واسع العينين، أشم الأنف، لحيته عظيمة تبلغ صدره، يأخذ من شاربيه ولا يحلقها.	طويل قليل لحم الوجه، طويل العنق، طويل الساقين، أسمر لكنه مشرق، خفيف العارضين، لحيته بقدر قبضة، يخضبها بالحناء الحمراء القانية.	طويل، نحيف أسمر اللون، يخضب لحيته بالحناء، يلبس البياض، والعمامة.

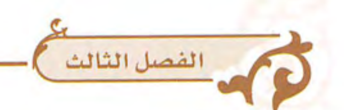
وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
أهم الصفات	تاجر ماهر، عالم بالمنطق والفلسفة، وعلوم الجدل، يحب المناظرة والمناقشة، اختار التخصص بالفقه حتى برع فيه.	أنيق، يلبس الحسن من الثياب، ويختار الطيب من الطعام، شديد الإتقان والحفظ، شديد الصبر، قوي العزيمة، مثابر وصابر على العلم، صاحب فراسة ونظر عميق، له مهابة خاصة خصوصاً عند العلماء.	اشتهر بالفراسة والبديهة، صاحب نظر ثاقب، معرفته واسعة بالطب، عالم بالأنساب، قوي الذاكرة، عميق المعرفة، كريم معطاء.	قوي الحفظ، شديد الورع، كثير الزهد، متين العلم، متقد الذهن، اشتهر بالاستقامة والثبات.
من أبرز مشايخه	حمّاد بن أبي سليمان، عطاء بن أبي رباح، ابن شهاب الزهري، نافع مولى ابن عمر، زيد بن علي، جعفر الصادق، عكرمة.	ابن شهاب الزهري، يحيى ابن سعيد القطان، ربيعة الرأي بن عبدالرحمن.	محمد بن الحسن، الليث ابن سعد، الإمام مالك، سفيان بن عيينه، عمرو ابن الحارث، عبدالله بن أبي جعفر.	سفيان بن عيينة، هشيم بن بشير، عبدالرزاق الصنعاني، أبويوسف، يحيى بن سعيد القطان.
المنهجية العلمية	التوسع في مصادر التشريع، التوسع في الرأي والاجتهاد، اشتهر بالقياس والعمل به، له منهج خاص في استخراج الأحكام.	اعتمد أسلوب الأثر، والفتوى الدقيقة، لا يحب أن يكتب عنه كل شيء لخشيته من الخطأ، يرفض التقليد الأعمى، ويحب الاجتهاد، يلتزم بما عليه من أهل المدينة لأنهم أقرب الناس للسنة.	بارع في الفقه وأصوله وفروعه، فقهه مزيج من قوة الرأي عند الأحناف وقوة الحديث عند المالكية، يرى أن للاجتهاد ضوابط ومقاييس.	الدقة في الحديث النبوي، التمسك بالنص وعدم التوسع في الاجتهاد، له آراء مشهورة في العقيدة والتمسك بظاهر النص دون تأويل يلغي المعنى الظاهر.

مقارنة فريدة بين الأئمة الأربعة

رحمهم الله تعالى ورضي عنهم

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
المواقف السياسية	معارض سياسي، لا يرى بصحة الدولة الأموية، وكان يرى الخلافة لزيد بن علي رضي الله عنهما، وسجن وعذب في سبيل ذلك، ولكنه ثبت على مواقفه مع أنه أُغري بالمناصب، وأيد العديد من الثورات السياسية ضد الحكم الأموي.	اختلط بالخلفاء والسلاطين، وقبل أعطياتهم وهداياهم، ولا يرى حرجاً فيها، ولكنه كان عزيزاً وقوراً أمامهم، حريصاً على فرض الوقار والعزة للعلم أمام الحكام، مال إلى تأييد ثورة محمد ذي النفس الزكية.	بعيد عن السياسة، ويرى أن علي بن أبي طالب في مواقفه في الفتنة، كان على الحق، ويدافع عنه في ذلك.	صاحب مواقف قوية مع الحكام والسلاطين، لم يتنازل حتى مع ما تعرض له من تعذيب، يبتعد عن الحكام، ولا يرغب بزيارتهم أو التقرب منهم ولا يقبل عطاءهم.
من أبرز تلاميذه	أبويوسف (يعقوب بن إبراهيم) محمد بن الحسن الشيباني، زفر بن هذيل.	عبدالله بن وهب، عبدالرحمن بن قاسم، أشهب بن عبدالعزيز، أسد بن الفرات.	الحسن بن محمد الزعفراني، الحسن الكرابيسي، أبوبكر الحميدي، حرملة ابن يحيى، إسماعيل المزني، يوسف بن يحيى البويطي، سليمان المرادي.	ابناه عبدالله وصالح، أحمد بن محمد المروزي، أبو القاسم الخرقي، أحمد بن محمد الأشرم.
أصول المذهب بعد الكتاب والسنة	الإجماع، فتوى الصحابي، الحديث المرسل والضعيف، القياس (للضرورة)، المصلحة المرسلة (للضرورة).	الإجماع، إجماع أهل المدينة، القياس، قول الصحابي، المصالح المرسلة، العرف، سد الذرائع، الاستحسان، الاستصحاب.	الإجماع، قول الصحابي، القياس.	الإجماع، قول الصحابي، القياس، الاستحسان، العرف.

وجه المقارنة	الإمام أبو حنيفة	الإمام مالك	الإمام الشافعي	الإمام أحمد
من أمهات الكتب في المذهب	الكافي (وقد جمع كتب ظاهر الرواية وهي: السير الكبير، السير الصغير، الجامع الكبير، الجامع الصغير، الزيادات). المبسوط (شرح الكافي في ٣٠ مجلداً). حاشية ابن عابدين.	الموطأ، المدونة (وهي المعتمدة) الواضحة، العتبية، الموازية، الكافي، مختصر خليل.	الأم، الرسالة، المجموع شرح المهذب، مُغني المحتاج، روضة الطالبين.	المغني، الإقناع، الروض المقنع، الفروع، دليل الطالب، مختصر الخرقي.
من أبرز علماء المذهب	محمد بن عابدين، أبو جعفر الطحاوي.	سحنون التنوخي، يحيى الليثي، أبوبكر بن العربي، ابن عبدالبر، أبو مروان الماجشون.	أبو إسحاق الإسفراييني يحيى بن زكريا النووي، تقي الدين السبكي، العز بن عبدالسلام، أبوحامد الغزالي.	أبوبكر الخلّال، شمس الدين بن قدامة، شيخ الإسلام ابن تيمية، ابن قيم الجوزية، محمد بن عبدالوهاب.
أماكن انتشار مذهبه اليوم	شبه القارة الهندية، العراق، الشام، مصر، جنوب شرق آسيا، روسيا، الصين، تركيا، وغيرها.	مصر وشمال إفريقيا، الحجاز، الخليج، السودان.	مصر، العراق، فارس، ماليزيا، اليمن، الحجاز، عدن، باكستان، الشام، جنوب شرق آسيا وغيرها.	نجد وقليل من الشام، والعراق، ومصر، والخليج، وغيرها.

قائمة المراجع

المرجع	المؤلف
البداية والنهاية	الإمام ابن كثير
سير أعلام النبلاء	الإمام الذهبي
تاريخ الإسلام	الإمام الذهبي
وفيات الأعيان	ابن خلكان
مالك حياته وعصره آراؤه وفقهه	الشيخ محمد أبو زهرة
تاريخ المذاهب الإسلامية	الشيخ محمد أبو زهرة
مالك بن أنس (سلسلة أعلام المسلمين)	عبد الغني الدقر
مالك بن أنس - إمام دار الهجرة	المستشار عبد الحليم الجندي



اقرأ أروع إصداراتنا






























































دستور السعادة الزوجية
حقق حلمك في الوصول إلى الجنة
ريّح بالك
حقق حلمك في حفظ القرآن الكريم
181 بطاقة للتميّز الإداري
كنز في أعماقك
قوانينك الخاصة


أفكار مختلفة.. للنجاح


القراءة التصويرية
اقرأ كتابا في ساعة


الذاكرة


الألعاب التربوية


الذكاء الوجداني


أسرار القوة الذاتية


قمم النجاح


100


صناعة نجوم الحياة


خفف وزنك!


زاد المرتل


كوني مختلفة


قوة الإقناع


اقترب من الله..!


اسمي طفل


أنت أيضا تقدرين


كراكيب الحياة


همسات السعادة


القراءة الذكية


فكّر بطريقة مختلفة


الفوائد


همسات النجاح


شيكات المحبة




افعل شيئاً مختلفاً
do
SOMETHING
different




القيادة متكاملة الجودة


الإبداع الفكري